

سياسات المجلة:

1. التجرد وعدم التحيز.
2. المهنية والاحترافية.
3. التجدد والمواكبة ومراعاة جاذبية القارئ.
4. التعاون والشراكة.
5. التخصص.
6. تنطلق من خلفية حضارية إسلامية.
7. تلتزم بأصول وقواعد البحث العلمي.
8. استكتاب الباحثين والكتاب من أبناء القارة، وتستقطب المتخصصين والباحثين من دول أخرى.
9. التوازن بين: الدول، والأقاليم، والموضوعات، والأساليب الإعلامية.
10. تحرص على توصيف الواقع الإفريقي وتحليل أبعاده؛ دون أن تكون طرفاً في الصراعات الإقليمية والمحلية، وتتجنب إثارة الخلافات والنزاعات.
11. تبتعد المجلة عن طرح كل ما يهدد السلم الاجتماعي أو يتعارض مع نماء القارة الإفريقية وازدهارها.

شروط قبول المواد للنشر:

1. أن تتوافق مع أهداف المجلة وسياساتها العامة.
2. التزام الأمانة والمنهجية العلمية، والتوثيق العلمي للمادة.
3. ألا يكون قد سبق نشرها أو قدمت لجهة أخرى للنشر.
4. الدقة والعمق في المضمون.
5. تجنب التجريح والنقد غير البناء للأشخاص والهيئات والدول.
6. صحة الأسلوب وسلامة اللغة.
7. أن يكون الحد الأقصى للمادة (15) صفحة، حوالي (4000 كلمة). مع ملخص باللغة الإنجليزية في حدود 250 كلمة.
8. ألا تكون المادة مجزأة على حلقات.
9. التعاون في إجراء التعديلات المناسبة.

مجلة قراءات إفريقية

جمهورية السودان - الخرطوم،

هاتف: 0024918826666

فاكس: 00249183388830

جمهورية مصر العربية - القاهرة،

هاتف: 0020222874277

فاكس: 0020222874277

المملكة العربية السعودية - الرياض،

هاتف: 00966114944949

هاتف: 00966014942900

هاتف: 00966502210920

هاتف: 0096655097415

بريطانيا - لندن،

7 Brides Place, Parsons Green

Fulham, London SW6 4HW, UK

هاتف: 0044-207-7364255

هاتف: 0044-207-4718261

كلمة التحرير

من قواعد النجاح

لنجاح وتحقيق الأهداف، على مستوى الفرد والمجتمع والأمة، شروطه وأسبابه وقواعده، التي ينبغي لكل صاحب هدف ومتطلع لنجاح أن يعرفها ويعمل بمقتضاها ..

ومن قواعد النجاح التي أرشد إليها القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿... وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأَتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: 1٨٩]؛ إذ «يُسْتَفَادُ مِنْ إِشَارَةِ آيَةِ: أَنَّهُ يَنْبَغِي فِي كُلِّ أَمْرٍ مِنَ الْأُمُورِ أَنْ يَأْتِيَهُ الْإِنْسَانُ مِنَ الطَّرِيقِ السَّهْلِ الْقَرِيبِ، الَّذِي قَدْ جَعَلَ لَهُ مَوْصِلاً، فَالْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ: يَنْبَغِي أَنْ يَنْظُرَ فِي حَالَةِ الْمَأْمُورِ، وَيَسْتَعْمَلُ مَعَهُ الرَّفْقَ وَالسِّيَاسَةَ، الَّتِي يَهِيَ بِهَا يَحْصُلُ الْمَقْصُودُ أَوْ بَعْضُهُ، وَالْمَتَعَلِّمُ وَالْمُعَلِّمُ: يَنْبَغِي أَنْ يَسْلُكَ أَقْرَبَ طَرِيقٍ وَأَسْهَلَ، يَحْصُلُ بِهِ مَقْصُودُهُ، وَهَكَذَا كُلُّ مَنْ حَاوَلَ أَمْرًا مِنَ الْأُمُورِ، وَأَتَاهُ مِنْ أَبْوَابِهِ، وَثَابَرَ عَلَيْهِ، فَلَا يَبْدَأُ أَنْ يَحْصُلَ لَهُ الْمَقْصُودُ بِعَوْنِ الْمَلِكِ الْمَعْبُودِ»^(١).

وإن من أبواب النجاح - على مستوى الدول والمجتمعات -: أن تعرف ما تملك وما تستطيع، وأن تعتمد - بعد الله - على العمق الداخلي، بهويته ومكوناته البشرية والمادية، لتنتقل منه، وتبني عليه الخطط والمشاريع، وتتحرك وفق القدرات والإمكانات الموجودة، فلا تبالغ فتتحمل من الديون ما يكبل القرار ويستهلك الدخل، أو تقتصر فتضعف الحصيلة وتبديد الجهد . فإن من أبرز أسباب «فشل» كثير من الدول، في النهوض بمجتمعاتها، أنها لم تطرق النهضة من أبوابها الصحيحة، فحينما تطبق خططاً اقتصادية، أعدّها من له أهدافه ومصالحه الخاصة من ورائها ويراعها أولاً، أو تستنسخ نماذج في الإدارة أو الحكم صنعّت لبيئة لها هويتها وخصائصها المختلفة، أو تمكّن للخبراء الأجانب وتهمش العقول الوطنية، فإنها تستهلك الجهد، وتضيّع الوقت، والعاقبة «الفشل»، لأنها لم تأت البيوت من أبوابها .

(١) تفسير السعدي، مؤسسة الرسالة، ط١ - ١٤٢٠هـ / ٢٠٠٠م، ص ٨٨.



ثقافية فصلية محكمة متخصصة في شؤون القارة الإفريقية تصدر عن المنتدى الإسلامي

أسعار البيع والاشتراك السنوي
لمجلة قراءات إفريقية

الدول	الجهة	سعر البيع	اشتراكات
مصر وإفريقيا	١,٥ دولار	١٠ دولار	مؤسسات أفراد
السعودية والخليج	١٠ ريال	٦٠ ريال	١٠٠ ريال
أوروبا وأمريكا	-	٢٠ دولار	٣٠ دولار

المواد المنشورة لا تعبر

بالضرورة عن رأي المجلة

رقم الأيداع: 1611 / 1437

الترقيم الدولي: ردمد 7235-1658

هينة التحرير

أ. د. جلال الدين محمد صالح
أ. د. محمد عاشور مهدي عاشور
د. ربيع محمد القمر الحاج
أ. محمد العقيد محمد أحمد
أ. بسام المسلماني

الإخراج الفني

واثل خالد كريزان

المدقق اللغوي

محمد فهمي

المراسلات: بريطانيا - لندن:

7 Bridges Place, Parsons Green
Fulham, London SW6 4HW, UK
هاتف: 0044-207-4718261
فاكس: 0044-207-7364255

المملكة العربية السعودية - الرياض:

هاتف: 0096614944949
فاكس: 0096614942900
جوال: 00966555097415

جمهورية مصر العربية - القاهرة:

هاتف: 002 02 22874277
فاكس: 002 02 22874275

جمهورية السودان - الخرطوم:

هاتف: 00249188266666
فاكس: 00249183285830

التسويق / التوزيع: marketing@qiraat.org

رئيس مجلس الإدارة

عبدالله بن عبد المظني الفايز

رئيس التحرير

د. محمد بن عبد الله اللعبون

info@qiraat.org

مدير التحرير

رأفت صلاح الدين

editors@qiraat.org

الهيئة الاستشارية

المشير: عبدالرحمن سوار الذهب (السودان)

د. إبراهيم أبو عياة (السعودية)

أ. إبراهيم كنتاوا (مالي)

د. حقار محمد أحمد (تشاد)

أ. د. حمدي عبد الرحمن حسن (مصر)

أ. د. عبد القفور البوسعيدى (كينيا)

د. محمد أحمد لوح (السنغال)

د. محمد الثاني عمر (نيجيريا)

٤٤

نحو استقصاء لمفهوم «الشباب» في
الثقافات الإفريقية
د. آدم بمبا - كوت ديفوار

٥٤

الشباب والتحول الديمقراطي في
إفريقيا
أ. مصطفى أنجاي - مالي

٦٤

الشباب الإفريقي وتكنولوجيا
المعلومات والتواصل
أ. سعيد دوغونا - مالي

٧٤

مسؤولية الدولة في تمكين الشباب:
قراءة في السياسات والاستراتيجيات
العمومية في دولة مالي
أ. دمبي انجاي - مالي

٨٤

الشباب الإفريقي وسؤال المستقبل:
تحديات وآفاق
د. هارون باه - السنغال

٩٢

تحديات الإعلام الإسلامي في غرب
إفريقيا
أ. هارون سوادغو - بوركينا فاسو

١٠٢

المشهد الإفريقي
تحرير المجلة

١١٤

الشيخ سعيد محمد سييسي وجهوده
الدعوية والتعليمية بغرب إفريقيا
أ. جميلة محمد سييسي

١٢٤

تقرير: حملة القلوب الصغيرة
تحرير المجلة

١٢٦

غامبيا في مفترق الطريق: ما بين
تشبث يحيى جامع وتدخل إيكواس
أ. عبد الحكيم نجم الدين - نيجيريا

٤

الاستثمار في الشباب الإفريقي

٦

دور رحلة الحج في نشر التعليم
العربي الإسلامي بغرب إفريقيا
د. أمين يهودا - نيجيريا

١٤

العلاقات البشرية والتجارية بين
مدينة فاس المغربية وإفريقيا الغربية
د. محمد تلوزت بن علا - المغرب

٢٤

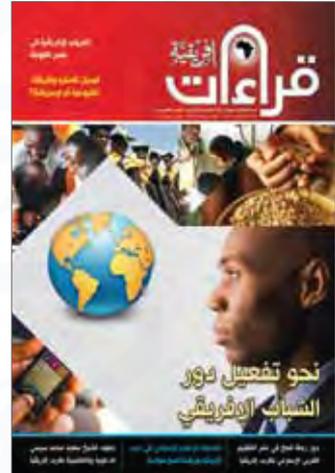
الحروب الإفريقية في عصر العولمة
دراسة في الطبيعة والميكانيزمات
أ. سعاد بوسنية - الجزائر

٣٢

فيدل كاسترو وإفريقيا.. الشيوعية
أم الإمبريالية؟
أ. يحيى بوزيدي - الجزائر

٤٢

ملف العدد: نحو تفعيل دور
الشباب الإفريقي
المقدمة



محرم - ربيع أول ١٤٢٨ هـ
يناير - مارس ٢٠١٧ م

العدد ٣١

الاستثمار في الشباب الإفريقي

الذين تناقل الناس خبرهم وشأنهم، قبل نزول القرآن الكريم وبعده، كانوا فتية كما ذكر الله- عز وجل-: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاَهُمْ هُدًى (١٣) وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا﴾ [الكهف: ١٣ - ١٤]. واستعلى أولئك الفتية على المجتمع الوثني بإيمانهم وتوحيدهم لله عز وجل، وفضلوا العيش في الكهف الضيق على حياة الرخاء والدعة؛ حفاظاً على إيمانهم.. ﴿هُؤُلَاءِ قَوْمًا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ [الكهف: ١٥].

وفي قصة أصحاب الأخدود، من حديث صهيب- رضي الله عنه- في صحيح مسلم، قال النبي صلى الله عليه وسلم: «كَانَ مَلِكٌ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، وَكَانَ لَهُ سَاحِرٌ، فَلَمَّا كَبُرَ قَالَ لِلْمَلِكِ: إِنِّي قَدْ كَبُرْتُ فَابْعَثْ إِلَيَّ غَلاماً أَعْلَمُهُ السَّحْرَ، فَبِعَثْ إِلَيْهِ غَلاماً يَعْلَمُهُ....»^(١)، وذكر من شأن ذلك الغلام وثباته على الحق، ودَعْوَتِهِ، وإيمان

تنوّع المجتمعات بين مجتمع متطوّر ومتخلّف، ومجتمع ناهضٍ وصاعد، ومجتمع يعيش أتون الصراعات، ومجتمع يعيش مراحل تحوّل فكريّ أو اقتصادي، سياسيّ أو قيمي، وأياً كان واقع المجتمع واتجاهه؛ يبقى الإنسان هو العنصر الفاعل المؤثر.

فلا نهوض ولا ارتقاء بأيّ مجتمع دون جهد الإنسان، إنها سنّة الله- عز وجل- في خلقه: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١].

ومع أهمية الدور الذي يؤديه أفراد المجتمع كافة، بطبقاتهم وأجناسهم، يبقى الشباب هم المحور وأصحاب الدور الفاعل.

فالشباب هم النسبة الأكبر في تعداد السكان في الدول المعاصرة، والشباب هم الأكثر حيويةً وفاعليةً، وهم أكثر فئات المجتمع استجابةً للتغيير، وأسرعها تقبلاً للتحوّلات، أياً كان اتجاه التغيير والتحوّل؛ لذا كان دعاة التغيير في المجتمعات- بكلّ اتجاهاتهم ومدارسهم- يستهدفون الشباب؛ فهم أسرع تقبلاً، وهم أداة انتقال الجديد من متغيرات الثقافة وخصوصياتها إلى عمومياتها.

إنّ الاستثمار في الشباب هو الاستثمار الحقيقي في المجتمعات، فهم القوة الفاعلة والمؤثرة، وهم رجال المستقبل؛ فمرحلة الشباب قنطرةٌ وبوابةٌ يمرّ بها الجميع، ومن يتحكم بهذه القنطرة يتحكم في مستقبل المجتمع فيما بعد. ومحورية دور الشباب وأهميته ليست خاصّة بالمجتمعات المعاصرة؛ فعلى مدى التاريخ كان للشباب الدور الفاعل والمؤثر، فأهل الكهف

(١) أخرجه مسلم مرفوعاً، ح (٣٠٠٥)، في الزهد: باب قصة أصحاب الأخدود والساحر والراهب والغلام، وإسناده صحيح على شرط مسلم، قال الحافظ ابن حجر في الفتح (٦٩٨/٨): (صَرَّحَ بِرَفْعِ الْقِصَّةِ بِطَوْلِهَا حَمَادُ بْنُ سَلْمَةَ، عَنْ ثَابِتٍ، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي لَيْلَى، عَنْ صَهْبِيبَ، وَمِنْ طَرِيقِهِ أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ وَالتِّرْمِذِيُّ وَأَحْمَدُ. وَوَقَّفَهَا مَعْمَرٌ، عَنْ ثَابِتٍ، وَمِنْ طَرِيقِهِ أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ)، فسباق حديث معمر ليس فيه صراحةٌ أنّ هذه القصة من كلام النبي صلى الله عليه وسلم؛ كما قال الحافظ ابن كثير في تفسيره، وقال: (قال شيخنا الحافظ أبو الحجاج المزيّ: فيحتمل أن يكون من كلام صهيب الرومي، فإنه كان عنده علم من أخبار النصارى)، تفسير ابن كثير، (٣٦٨/٨).

الناس على يديه، وهو لا يزال غلاماً صغيراً، فالساحر حين أراد أن يبقى علمه من بعده؛ طلب من الملك أن يختار غلاماً يافعاً يعلمه.

وأتباع الأنبياء- صلوات الله وسلامه عليهم- كانوا من الشباب، قال- تبارك وتعالى- عن دعوة موسى- عليه السلام-: ﴿فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ﴾ [يونس : ٨٣]، قال ابن كثير- رحمه الله- في تفسير هذه الآية: «يخبر- تعالى- أنه لم يؤمن بموسى عليه السلام، مع ما جاء به من الآيات البينات والحجج القاطعات والبراهين الساطعات، إلا قليل من قوم فرعون من الذرية، وهم الشباب، على وجلٍ وخوفٍ منه ومن ملئه أن يردوهم إلى ما كانوا عليه من الكفر، لأن فرعون [لعنه الله] كان جباراً عنيداً مسرفاً في التمرد والعتو، وكانت له سطوة ومهابة، تخاف رعيته منه خوفاً شديداً»^(١).

وكذلك كان معظم أتباع النبي صلى الله عليه وسلم من الشباب؛ فنصف العشرة المبشرين بالجنة- رضوان الله عليهم- أسلموا وهم دون العشرين، ومعظم الذين شهدوا بيعة العقبة الثانية من الأنصار مع رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا شباباً، ففي حديث جابر- رضي الله عنه- في روايته لقصة بيعة العقبة: «... ثم بَعَثَنَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، فَأَتَمَرْنَا، واجتمعنا سبعون رجلاً منا، فقلنا: حتى متى نذر رسول الله صلى الله عليه وسلم يُطرد في جبال مكة، ويخاف، فرحلنا حتى قَدِمْنَا عليه في المَوْسِمِ، فواعدناه شِعْبَ العقبة، فقال عَمَّه العباس: يا ابن أخي، إنسي لا أدري ما هؤلاء القوم الذين جاءوك؟ إنني ذو معرفةٍ بأهل يثرب! فاجتمعنا عنده من رجلٍ

ورجلين، فلمَّا نظر العباس في وجوهنا، قال: هؤلاء قومٌ لا أعرفهم، هؤلاء أحداثٌ»^(٢).

وقال ابن كثير متحدثاً عن قصة أهل الكهف: «فذكر- تعالى- أنهم فتية، وهم الشباب، وهم أقبل للحق، وأهدى للسبيل من الشيوخ، الذين قد عتوا وغشوا في دين الباطل؛ ولهذا كان أكثر المستجيبين لله ولرسوله صلى الله عليه وسلم شباباً، وأما المشايخ من قريش؛ فعامتهم بقوا على دينهم، ولم يُسلم منهم إلا القليل. وهكذا أخبر- تعالى- عن أصحاب الكهف أنهم كانوا فتية شباباً»^(٣).

فجديرٌ بقيادة الرأي والمصلحين في المجتمع أن يُعَنُوا بالشباب: بإعدادهم، وحمایتهم من موجات التغريب والعولمة ودعوات الضلالة، وأن يفتحوا صدورهم للشباب، فيستمعوا إليهم، ويجيبوا عن إشكالاتهم وما يعرض لهم، وأن يبذلوا الجهد في المشروعات التي تُعنى بالشباب تأهيلاً وتربية، واستثماراً لأوقات الفراغ.

والاستثمار في الشباب: لا يؤتي أكله ويحقق ثمرته ما لم يُضف له الاعتناء بالفتيات والشابات؛ فهنَّ الساعد الأيمن، والظهير والمعين. نفع الله بالجهود، وبارك في الخُطى، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه ■

(٢) أخرجه أحمد في المسند، ح (١٤٦٥٣)، تحقيق شعيب الأرنؤوط وآخرون، مؤسسة الرسالة - ١٤٢١هـ / ٢٠٠١م.

(٣) تفسير ابن كثير، (١٤٠/٥).

(١) تفسير ابن كثير، (٤/ ٢٨٧)، تحقيق سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط ٢٠١٤هـ / ١٩٩٩م.



دور رحلة الحج في نشر التعليم العربي الإسلامي بغرب إفريقيا: شمال نيجيريا نموذجاً

د. أمين يهوذا

محاضر بقسم اللغة العربية، كلية الآداب،
جامعة ولاية كدونا / نيجيريا



معاهد علمية، عامة ومتخصصة، وظهور حركات دينية تجديدية، نقلت المنطقة بالإسلام وتعاليمه وممارساته الصحيحة نحو الأفضل.

تاريخ موجز عن رحلة الحج في غرب إفريقيا
عامة، ونيجيريا خاصة؛

شعائر الإسلام، من صلاة وصوم وزكاة وحج، تحمل الأبعاد الموسمية المنتظمة التي تشد الأفارقة إلى أداؤها

شهد شمال نيجيريا رحلات متعددة، ومن أهمها رحلات الحج، وبمجرد اعتناقهم الإسلام أخذوا يتابعون قافلة تلو أخرى لزيارة الحرمين الشريفين، مما أثار إيجاباً في تطور التعليم العربي الإسلامي بالمنطقة، بجانب وفود العلماء والدعاة والمصلحين، حتى تكونت مجموعة كبيرة من العلماء وطلاب العلم من أهلها، تنافسوا في مجالات العلم والمعرفة، وظهر ذلك في تأسيس

بنشاط عال جداً؛ لارتباطها بالتعايش المجتمعي الذي ألفه الإفريقي، كما أنه وجد في رحلة الحج ما يقربه إلى مولاه العليم القدير، أضف إلى ذلك ما تتضمنه الرحلة من غايات تتسجم مع فطرته الأصلية، من حب الشجاعة، والتحمل، والبطولة، والتفوق، والاستطلاعات، والجولات حول العالم. ويقال إن من يستعد لرحلة الحج كان يُحوّل بيته إلى مصلّى وملتمسٍ لأهل الإيمان، حتى يستودعوه بقلوب مفعمة بحبّ الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم، ومشتاقاً إلى الديار المقدسة، وبجانب دعواتهم له يُحمّلونه أمانة الدعاء لهم في الحرمين الشريفين^(١).

وعلى امتداد إفريقيا جنوب الصحراء؛ اهتم ملوكها بعد إسلامهم برحلة الحج، لنشر الإسلام أو ترسيخه، بالإضافة إلى ذلك؛ أنهم عدّوها من مظاهر البطولة والتفاخر، واستطلاعات الهيمنة على دول الجوار.

وملوك مالي أسلاف منسا موسى كانوا يحجّون بيت الله الحرام كلّ عام، لكن تميزت زيارة منسا موسى حينما حجّ، عام ١٣٢٤م^(٢)، وكذلك أسكيا محمد بن أبي بكر ملك سنغاي (١٤٩٤م - ١٥٩١م)، ذهب للحجّ، ومرّ بالقاهرة، ووقف بها مدة ليقابل الخليفة العباسي ويحظى بمباركته^(٣).

ومن سلاطين شمال نيجيريا وأمرائه؛ دونمه ملك كانم برنو، إذ يعدّ أول سلطانٍ قام بأداء فريضة الحج، حجّ ثلاث مرات^(٤)، وحجّ بعده أمراء الهوسا، منهم بعض أمراء كنو وكشنا وززو، وممن تذكّرت الروايات المحلية: محمد ياجي من كنو، ومحمد حمّد أمير زاريا.

وبجانب رحلات الملوك والسلاطين والأمراء؛ كانت هناك رحلات العلماء التي نظّمت من أجل تحقيق أهداف علمية متعددة، منها: التعلم والتعليم، والاتصال بالأمراء

والشعوب، والدعوة إلى الإسلام وإرشاد الناس إلى حقيقته، حيث حظي شمال نيجيريا قديماً بهذه الرحلات، وبخاصّة رحلات الوفود القادمة من المغرب وموريتانيا والسنغال ومالي وغانا وسنغاي.. وغيرها.

وكما كان هذا شأن الملوك والعلماء؛ تسرّب هذا السلوك إلى الشعب كلّ حسب طاقته، فقد اشتهرت أسرٌ في مناطق نيجيريا قديماً بمزاولة رحلة الحج، حتى أطلق عليها: *أَلْحَزَاوِي* (Al-hazawa)، وتكار (Tikari)، وتنتشر هذه الأسر إلى الآن في كانو وكشنا وزاريا، على سبيل المثال: أسرة أَلْحَزَاوِي في زاريا؛ اشتهرت برحلة الحجّ قديماً على شكل مجموعة، منهم العلماء والتجار ومرافقوهم، كما تتجر بترحيل الناس إلى الحرمين مقابل مبالغ متفق عليها^(٥).

وحينما ترحل هذه الأسرة إلى الحرمين تستودع مدارسها وممتلكاتها إلى بعض الأمناء ريثما ترجع، ويحدث التزاوج بين أفرادها وبين أسر أخرى على الطريق، ولهذا الأسرة وسم يميّزها عن الأسر ذات الأوسمة، ووسمها رسمٌ بشكل هرمي تحت الشفة السفلى، وأشجار الحاج محمد بلو إلى أنه قابل بعض الأفارقة الساكنين في الحرمين بالأوسمة نفسها، وأحسّ بأنهم بقايا إخوانهم الذين بقوا في الحرمين^(٦).

وفي زاريا - أيضاً - أسرة مشهورة بلقب «تكار»، وتسكن في أحياء «مغاجيا» جنوب المدينة، وحسبما توصل إليه الباحث: فإنّ هذه الأسرة من الأسر التي انشغلت برحلة الحج قديماً^(٧).

وإذا أراد رجل الحجّ يُدّ نفسه روحياً واجتماعياً واقتصادياً، بحيث يزيد من التقرب إلى الله بالأعمال الحسنة، وكثرة الصدقات، والعفو عن الناس، ونشر الخير في مجتمعه، كما يكتب وصيته عن ثروته وأهله وغير ذلك، بل منهم من كان يُطلق زوجته خشية أن يدركه الموت على الطريق، مثل: الشيخ جبريل بن عمر شيخ عثمان

(١) مقابلة شفوية مع الحاج محمد جيفناوي، بتاريخ ٢٠١٦/٤/٣م، حيث ذكر أنه أدى فريضة الحجّ سيراً على الأقدام قبل منتصف القرن العشرين.

(٢) السعدي: تاريخ السودان، ص ٢٤.

(٣) السعدي، ص ٧٦.

(٤) أحمد بن فرطوا: تاريخ مي إدريس ألوما، ص ١٣١.

(٥) مقابلة شفوية مع الحاج محمد بلو، واحد من أسرة أَلْحَزَاوِي، زاريا، بتاريخ ٢٠١٦/٤/٧م.

(٦) المقابلة نفسها.

(٧) K.Yushau the history of Zazzau, under graduate thesis, A.B.U. 1998, P.37

خاصة واهتماماً كبيراً للغاية، ويلتحق من أراد المواصلة للحجاز بالقوافل المتحركة عن طريق درب الأربعين؛ برفقة المحمل الذي يحوي كسوة الكعبة وعطايا سلطان الفور لأهل الحجاز.

وتطلق هذه القوافل من برنو متوغلة في تشاد، مروراً ببرلومي وجفناً وغاماً، وإلى السودان بدايةً بنبالا وأبي، قاطعة شمال السودان، إمّا سالكة جنوبه وإمّا أقصى شرقه، لتلتقي في البحر الأحمر، حيث تتجه السفن إلى ميناء جدة^(٦). غالباً تتكون القافلة من الحجيج وعائلاتهم، وتضمّ الفقهاء ومعلمي القرآن الكريم والتجار، ويعتقد الكثير من أهل البقاع الإفريقية البعيدة أنّ السودان جزءٌ من أرض الحجاز.

امتاز شمال نيجيريا بامتيازات جعلته يستقبل أكثر القوافل التجارية، أو يلتقي أغلبها داخله، أضف إلى ذلك: القوافل التي تلتقي في منطقة «كب» بأقصى الشمال، أو في «كشنا»، حيث تحوّلت بهذه القوافل لمركز تجاري؛ قبل أن تتسلم «كنو» زمام القوافل والمتاجرة^(٧).

وكثيراً ما تحوّلت هذه الطرق إلى طرق الحجيج، وبخاصة الحجيج التجار، ولمثل هذه القوافل شعبية عالية برغم تباطؤها على الطريق، وهذا ما جعل مساحات شمال نيجيريا ممراً للحجيج، بل سهّل لشعوبها رحلة الحجّ أكثر من غيرهم؛ مما جعل المؤرخين يطلقون على المنطقة وعليهم: «بلاد التكرور» من التكرار، لشدة ترددهم.

وتجدر الإشارة إلى: أنّ كثيراً من المدن قامت نتيجة مرور هذه القوافل، ومنها: دماترو (Damaturu)، وفتسكن (Fataskun)، وغمبورن غالا (Gamborin gala) ببرنو، وتتميز أمثال هذه المدن بقرآء كتاب الله والعلماء، وقد ظلّ كثيرٌ من آثارها باقية.

وقد ترك المسلمون الحجيج بالمناطق التي عبروها آثاراً من العادات والتقاليد، وأنماطاً من الثقافة واللغة، وعددًا من مدارسهم الفقهية الخاصة بالمذهب

(٦) مقابلة الحاج محمد من جيغاوا، المذكورة سابقاً.

(٧) الدكتور ثالث: الشعر السياسي في مملكة زاريا، دراسة أدبية تحليلية، بحث مقدم لنيل درجة الدكتوراه في اللغة العربية، جامعة صكتو، ٢٠١٤م.

بن فودي^(٨)، وبمقابل ذلك كان بعضهم يتزوج على الطريق ويخلّف الأبناء، منهم على سبيل المثال: الشيخ حياة الدين غلاديمًا^(٩) من زاريا، وهو جدّ السيد منير جعفر الابن الأكبر للأمير الراحل جعفر من جهة والدته، حيث تزوج في السودان وخلّف الأبناء هناك^(١٠)، كما كان بعضهم يستقرون بين المدن الواقعة على الطريق أو الأراضي المقدسة وما جاورها، منهم والد المناضلة الفلسطينية النيجيرية فاطمة البرناوية^(١١).

كما أنّ للذهاب إلى الحجّ مراسيمه، وكذلك للرجوع أيضاً، وفي ذلك يقول الإلوري: «في استقبال العائد من الحجّ يخرج الأقارب والأصدقاء إلى موقف السيارة أو محطة القطار أو المطار ليستقبلوا الحاجّ الجديد، ثمّ يرافقوه إلى بيته في موكبٍ عظيمٍ كأنه ملك يتوجّج...»^(١٢).

طرق رحلة الحجّ من نيجيريا إلى الأراضي المقدسة:

تبدأ رحلة الحجيج من دول غرب إفريقيا، من دول حوض نهر النيجر، أو سهول فولتا العليا، أو الدول المطلة على شاطئ المحيط الأطلسي.

تخرج القوافل كلها في طريق واحد، تتجمع أغلبها في تشاد أو نيجيريا أو النيجر، كما تخرج الأخرى عن طريق طرابلس وطبرق وبرقة ومصر، تلتقي بطرق الحجيج القادمين من المغرب العربي وبلاد شنقيط، والطريق الرئيس هو الذي يعبر السودان؛ إذ يمرّون بديار الممالك الإسلامية القديمة في تشاد الباقرمي ووداي، ويدخلون في حماية سلطان سلطنة الفور، أو الداو، أو سلطنة التنجر القديمة، أو سلطنة المساليت، وهناك يجدون معاملة

(١) الشيخ محمد سمبو إبراهيم بن نوح: درة تحت الرمال، نبذة عن تاريخ حياة شيخ الشيوخ الفاضل جبريل بن عمر، مطبعة إحياء التراث، سكتو، ٢٠١٢م، ص (١٩ - ٢٠).

(٢) منصب من مناصب إمارة الهوسا.

(٣) مقابلة شخصية مع الدكتور ثالث/ محاضر بجامعة ولاية كدونا، بتاريخ ١٦/٨/٢٠١٦م.

(٤) انظر: موقع: www.Islam.com

(٥) الإسلام في نيجيريا والشيخ عثمان بن فودي، مرجع سابق، ص ١٤٣.

المالكي، وقراءاتهم للقرآن الكريم برواية ورش، وكتبهم، وكذلك في التزاوج والمصاهرة، وإدخال الدم الإفريقي بين الشعوب والقبائل المتعددة على طريق الحج.

مدارس طرق الحج.. وأبرز علمائها وطلابها:

كان لطرق الحج دورٌ فعّالٌ في إيجاد مدارس نقالة، ينتمي إليها كثيرٌ من العلماء والطلاب، وبما أن رحلة الحج قديماً كانت تستغرق أشهراً وسنوات، بين المدن والقرى والمفاوز، فإن هذا أصبح فرصة كبيرة للعلماء لكي يدرّسوا لطلاب العلم الديني أينما حلّوا، ويأتي إليهم الطلاب، سواءً من قاصدي الحج، أو من تقع بلادهم على طرق الحج.

«لقد كان المسلمون في نيجيريا يقومون بأداء فريضة الحج مع أنه أمرٌ شاقٌّ جداً في ذلك الزمن، وكان يستغرق عدة سنوات، فكان الحجيج يخرجون في قافلة صوب الشرق، ويتكسبون في الطرقات... ويقوم البعض بالتدريس خلال السفر، كما يقوم بالتعلم إذا صادف من هو أعلم منه في الطريق»^(١). وللملوك والأمراء دورٌ كبيرٌ في إنشاء هذه المدارس، عن طريق جلب العلماء إلى مناطقهم عبر رحلة الحج، من ذلك: الملك دونما ديبالي ملك كانم برنو، حيث رحل إلى الحج ثلاث مرات، واستدعى مجموعة من العلماء إلى الدولة، كما جلب كتباً إسلامية وعربية، وأرسل مجموعة من الطلبة إلى الأزهر الشريف للدراسة، وبنى لهم رواقاً يُسمّى: «الرواق البرناوي»، كما أسس لطلبة برنو مدرسة في الفسطاط، عُرفت بمدرسة ابن رشيقي لتدريس الفقه المالكي^(٢)، وبعده: الملك إدريس لوما وأبناؤه، حيث طوّروا هذا المشروع، وجلبوا العلماء من خلال هذه الرحلة^(٣).

هذه السيرة المحمودة لم تقف على ملوك كانم برنو فقط، فقد انتشرت عند ملوك وأمراء مناطق الهوسا، بدايةً بجندوتو (Kashina laka)، حيث تقع قريباً من

سكتو حالياً، حيث سكن الشريف يحيى منذ أواخر القرن الثاني الهجري- حسبما قاله خليفة قريب الله^(٤)، إن صحَّ التاريخ، تعدّ هذه المنطقة ذات الأسبقية من كانم برنو، وقد جلب معه كتاب الموطأ لمالك وبعض الكتب العربية الدينية. ومن ذلك أمراء كنو، حيث استضافوا من العلماء الشيخ المغيلي، ومجموعة من العلماء الوناغريين الذين سكنو مدابو (Madabo)، وجلبوا معهم مكتبة إسلامية ضخمة، منها كتب التصوف وعلم اللغة^(٥)، كما استقبلت إمارة زاريا وفود العلماء، على رأسهم أسرة مقاطعة جوما، وأسرة كونا، من هاتين الأُسرتين تتواصل الإمامة في زاريا إلى يومنا هذا^(٦)، وذكرت الروايات المحلية بعض أمراء ززو، الذين استدعوا العلماء إلى إماراتهم عبر رحلات الحج.

ومن ذلك أمير ززو: محمد كوسو، والأمير محمد الثاني، وغيرهم، حيث تمّ استدعاء الشيخ شنت كسفا من زنفر، والشيخ إسحاق الكانمي، بل يُعدّ ذلك من أكبر الأسباب التي أدت إلى وفود جالية من العلماء الكانميين، حيث نشروا الفقه المالكي فيها، وكذلك الحال مع غوبر كشنا وأدماوا.

تتوزع المدارس بين هذه المناطق، خصوصاً على طول طرق الحج، ذكر الحاج محمد- من جيفاوا:- أنه تعلم القرآن الكريم وبردة المديح في إحدى مدن تشاد، بل استطاعوا أن يكونوا فرقة إنشاد بردة المديح على طريقتهم إلى الحرمين الشريفين^(٧). هذا، ولقد ذكرت بعض المصادر المحلية والتاريخية أسماء عددٍ من العلماء وطلبة العلم الذين رحلوا من المناطق النيجيرية إلى الديار المقدسة، وأسهموا بشكلٍ كبيرٍ في تأسيس هذه المدارس، ونشر أصحابها العلوم العربية والإسلامية، وغيرها، على طريق الحج، أو فور رجوعهم من الحج.

(٤) الشيخ قريب الله محمد الناصر كبرا (١٩٩٣م): الرسالة الجليلة لمكانة نيجيريا العلمية، قبل كيان دولة سكتو، المكتبة القادرية، كانو، ص ٢٣.

(٥) الثقافة العربية في نيجيريا، مرجع سابق، ص ٢٥.

(٦) بلو موسى أبويكر: معاهد مدينة زاريا العلمية، بحث لنيل الماجستير في الدراسات الإسلامية، جامعة بايرو، كنو، ٢٠١٤م.

(٧) مقابلة الحاج محمد المذكورة سابقاً.

(١) الدكتور: شيخو أحمد سعيد غلادنتي: حركة اللغة العربية وآدابها في نيجيريا.

(٢) كبير آدم تدن نفاوا: المدخل إلى الأدب العربي النيجيري في القرن التاسع عشر الميلادي، دار الأمة، ط٣، ص ١٥.

(٣) الشريف إبراهيم صالح الحسيني: تاريخ الإسلام وحياة العرب إمبراطورية كانم، برنو، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، ص (١٢١ - ١٢٥).

وهنا يقف الباحث على ذكر بعضهم، مع الإشارة إلى أدوار كل منهم:

بعد أن تعلّم وعلم من المنطقة ارتحل إلى الحرمين الشريفين، ومكث فيها عشر سنوات بين العبادة وطلب العلم، والتقى كثيراً من العلماء، وافته المنية بأغدس وهو في طريق العودة^(٣)، مع هذا فقد استفاد طلاب العلم بمراسلاته، والكتب التي كان يُرسلها مع الوفود الحجّية المتتابة.

الشيخ أحمد بن محمد بن محمد بن محمد أقيت بن عمر الصنهاجي: من أعلام القرن التاسع عشر الميلادي، من أهل العلم والدين، وهو موسوعة في العلوم اللغوية والإسلامية، حجّ، ولقي الإمام السيوطي وخالد الأزهرى، ورجع في زمن فتنة الخارجي، ودخل كنو ودرس العلم وأفاد^(٤)، وبدأت تنتشر المعاهد العلمية بمجهوده، وهو من أوائل العلماء الصناهجة الذين سكنوا بها.

الشيخ محمد الأمين الكانمي: من أعلام القرن الثاني عشر الهجري، من كانم برنو، عارض الشيخ عثمان بن فودي برسائل دُونها التاريخ، حيث نشب قتال بينهما، زار أكثر العواصم الإسلامية، وتلقّى تعليمه من الأزهر الشريف والحرمين الشريفين عدة سنوات، وزار مدينة فاس والقرويين والقدس، وأصبح ملكاً على دولة كانم برنو لظروف سياسية^(٥)، وفي عهده بلغ التعليم الدينيّ أوجه بكانم برنو، حيث انتشرت المعاهد والمصادر العلمية.

الشيخ محمد بن راجي: كان من علماء القرن الثاني عشر الهجري محدثاً وفتياً، تتلمذ على يديه الشيخ عثمان بن فودي وأخوه عبد الله، زار الحرمين الشريفين، وتتلمذ على علمائهما، ورجع محدثاً يحمل الصحاح الست^(٦).

الشيخ جبريل بن عمر: من أعظم شيوخ وعلماء مناطق الهوسا في أواخر القرن الحادي عشر الهجري، ومن

الشيخ القاضي محمد بن أحمد بن أبي محمد التاذختي: من أعلام القرن العاشر الميلادي، كان فقيهاً عالمياً فهماً محدثاً متقناً جيد الحفظ كثير المناظرة، قرأ بمنطقة الهوسا على جدّه الفقيه الحاج أحمد بن عمر وخاله الفقيه الصالح علي، ولقي الإمام المغيلي بتكدة وحضر دروسه، ثم رحل إلى الشرق في صحبة الشيخ محمود، فلقى أعلام الإسلام، منهم شيخ الإسلام زكرياء والبرهانين والقلقشندي، وأجازه أبو البركات التويري وابن عبد القادر وعلي بن ناصر الحجاري وأبو الطيب البستي في مكة المكرمة، وبعد مدة رجع إلى بلاد السودان، وسكن كشننا، وأسّس بها مدرسة وفد إليه الطلاب، بعد أن أكرمه أميرها وولاه القضاء^(١).

الشيخ محمد الفلاتي الكشناوي: من أعلام القرن الحادي عشر الميلادي، تلقى مبادئ العلوم العربية والإسلامية في كشننا، ثم سافر إلى أداء فريضة الحج، وفي طريقه اتصل بالشيخ محمد الوالي بن سليمان الباغمري في تشاد وسمع منه ولازمه، ثم واصل سيره إلى الحرم الشريف، ورجع إلى مصر بعد أن تعلّم في الحرم، وفي طريقه إلى كشننا بعدما درّس في برنو لقي مصرعه، وكان رَحلاً^(٢)، ولكنّته تجواله لم يؤسس مدرسة دائمة، لكنه تتلمذ على عدّة شيوخ، كما تتلمذ عليه كثيرٌ من الطلبة عبر تجواله ورحلاته، وله عدة مؤلفات، ولا شك بأنها أدت دوراً في النهوض بالتعليم الإسلامي العربي.

الشيخ محمد شب عبد الله بن محمد بن سعد العالم: كان خال الشيخ عبد الله بن فودي، ومن مشاهير علماء مناطق الهوسا في القرن السابع عشر الميلادي وصلحائها،

(٣) الشيخ عبدالله بن محمد المعروف ابن فودي: تزيين الورقات، دار جوامع الكلم، مصر، (د، م، ن)، ص ٣٤.

(٤) المرجع نفسه: ص ٢١٦ وما بعدها.

(٥) إبراهيم صالح بن يونس بن محمد الأول الحسيني: تاريخ الإسلام وحياة العرب في إمبراطورية (كانم - برنو)، مكتبة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر، ط ٢، ١٩٧٦م، ص (١٣٣ - ١٣٨).

(٦) تزيين الورقات، مرجع سابق، ص (٢٠ - ٢١).

(١) الإمام محمد بلو بن عثمان بن فودي: إنفاق الميسور في تاريخ بلاد التكرور، طبع على نفقة الحاج محمد طن إغي، ظامير صكتو نيجيريا، (د، م، ن)، ص ٥١.

(٢) قريب الله محمد الناصر المختار الكبرى الكوني (الخليفة): الرسالة الجليلة لمكانة نيجيريا العلمية قبل كيان دولة (صوكتو) العاصمة العلية، من القرن الثاني إلى منتصف القرن الثاني عشر الهجري، المكتبة القادرية بكانو، نيجيريا، دار الأن، (د، م، ن)، ص ٤١.

من المصادر والمراجع التي جلبها طلاب العلم والعلماء وغيرهم خلال رحلة الحج؛

من أشهر المصادر والمراجع الإسلامية واللغوية، والفسون الأخرى، التي جلبها إلى بلاد إفريقيا العلماء وطلبة العلم وغيرهم، في طريق عودتهم من رحلة الحج: الموطأ للإمام مالك بروايته، وقد جُلب الموطأ عدة مرات، والصَّحاح الست، وبعض شروحه؛ منها شرح البخاري لليني، وألفية الأثر للسيوطي، والعشماوي لعبد الباري الرفاعي المصري، والعسكري للشيخ عبد الرحمن البغدادي، ومختصر ابن الحاجب، والمدونة البرادعية للبرادعي، والفقهاء على المذاهب الأربعة، والحكم لابن عطاء الله السكندري، وكثير من شرح إيقاظ الهمم، وملحة الإعراب للحريزي، وقطر الندى وشذور الذهب لابن هشام، وألفية ابن معطي، والفريدة للسيوطي، ومروي الصدى للصلح الأوجلي، وألفية بن مالك، ومقامات الحريري، وفي الحساب المقرعي، وفي الفلك سراج علم الفلك، والترياق في الطب، والكبريات للشيخ الكابري^(٥).

وممن عُرف بأنه جلب مثل هذه الكتب: الشريف يحيى مؤسس دولة جندوتو، في أواخر القرن الثاني الهجري، يُقال إنه جاء بالموطأ، كما جاء به الشيخ محمد الفلاتي، والصحاح الست أيضاً جاء بها الشيخ جبريل بن عمر، والشيخ محمد بن راجي، والشيخ الحاج أبوبكر عالوري جاء بالصحاحين بعد أن حصل على إجازة فيهما، كما جاء الشيخ جبريل بن عمر بقاموس تاج العروس على شرح القاموس، وشرح على إحياء علوم الدين، وألفية السند: نظم لمقدمة ابن صلاح في مصطلح الحديث^(٦).

وقد حظيت المراجع المالكية بعناية بالغة في جانب الفقه الإسلامي، وكتب العقيدة الأشعرية في أصول الدين، ومراجع التزكية والأخلاق، وكتب الأحاديث وشروحه وعلومها، وبعض كتب التفاسير، والدواوين الشعرية ومتون اللغة، وكتب الفلك والنجوم، وتقلت كتب السياسة والأدوية والطب عموماً. هذا، وقد جلبت أكثر أمهات الكتب المالكية

أكثر من تأثر بهم الشيخ عثمان بن فودي بعد أن تشبّع بالعلوم الدينية واللغوية حسب ثقافة المنطقة، رحل إلى الحج مرتين، والتقى بعدد كبير من العلماء، ودرس عند بعضهم، منهم الشيخ أحمد بن إدريس، والشريف محمد المرتضى الزبيدي^(١)، كما زامل عدة شيوخ، منهم: الشيخ أحمد التجاني مؤسس الطريقة التجانية.

الشيخ الحاج أبوبكر عالوري: من علماء الورن ببداية القرن العشرين، بدأ تعليمه عند الشيخ إبراهيم العطار، يقال إنه من أوائل من حج في الورن، ومكث مدة في الحرمين، ورجع بالإجازات عن الصحيحين، فكان بذلك متخصصاً في علوم الحديث، وأسس مدرسة بعد عودته^(٢).

الشيخ محمد مساعد الشيخ عبد الله بدندي البرناوي: من علماء الورن ببداية القرن العشرين الميلادي، زار الحرمين الشريفين، فتعلم في الأزهر، ولما رجع إلى الورن اشتغل بالتدريس؛ حيث أسس مدرسة^(٣).

وقد ازداد عدد طلاب العلم والعلماء الوافدين إلى الحرمين قبيل القرن العشرين ومطلعه، حيث سكن الحرمين منهم على سبيل المثال:

الشيخ محمد المنتقى كماسي: من زاريا، حيث توفي هناك، وقد خلف كتباً في فنون العلم الشرعي، وقد نقلت مكتبته من هناك إلى زاريا، ولاية كدونا، بعد وفاته، وما زالت مكتبة عامرة.

الشيخ شعيب من كنو: وافته منيته بها بعد عودته من الحرمين بسنوات، وله مؤلفات في الفقه والحديث. الشيخ يحيى الفلاتي: كان عضواً في تأسيس الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة^(٤).

(١) درة تحت الرمال...، مرجع سابق، ص (١٩ - ٢٠).

(٢) المرجع نفسه، ص ٧١.

(٣) الإلوري، آدم عبد الله: لمحات البلور في مشاهير علماء الورن، من ١٢٠٠ إلى ١٤٠٠ هـ الموافق ١٨٠٠م إلى ١٩٨٠م، المطبعة النموذجية، القاهرة، ص ٤٩.

(٤) عبد الجلال: مساهمة علماء نيجيريا في علم الحديث، بحث لنيل الدكتوراه في علم الحديث، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة إفريقيا العالمية، ٢٠١٤م.

(٥) الرسالة الجلية، مرجع سابق، ص (٢٧ - ٢٨).

(٦) درة تحت الرمال...، مرجع سابق، ص ٢٠.

طريقهم إلى الحجّ، ذاهبين وعائدتين، وعلى رأسهم: محمد ابن عبد الكريم المغيلي، وأحمد بابا التيبكتي^(٣)، وكذلك عمر الفتوي مؤسس مدينة اليَمَن، وغيرهم، بالإضافة إلى جهود العلماء النيجيريين. من هذه المدن؛ بدأت فكرة تأسيس المعاهد العلمية تنتشر في ربوع شمال نيجيريا، وهذه المعاهد ليست كما ألفناها اليوم (مكونة من مبان فخمة، ومقسمة إلى فصول ومكاتب)، وإنما هي عبارة عن حجرة جلوس الشيخ في منزله، يُلقى فيها الدروس حسب ترتيباته الخاصّة، منهم من يستغرق اليوم كله، ومنهم من يستغرق نصفه أو أدناه.

وبفضل انتشار ثقافة رحلة الحج؛ بدأ العلماء يخصّصون أماكن خاصّة للتعليم، بل انتقل بعضهم إلى المساجد ليتسع المكان لمجموعة كبيرة من الطلاب، حتى أصبح هناك معاهد عامّة تعتنى بتدريس أغلب الكتب الإسلامية واللغوية، مع مراعاة مستويات الطلاب، ولهذا السبب قسّم بعض العلماء أوقات أداء دروسهم ما بين المبتدئين والمتوسّطين والمتعمقين، وأما المعاهد المتخصّصة؛ فتعنى بدروس معيّنة، كالفقه أو الحديث فقط أو كتب معيّنة، على سبيل المثال: اختصاص علماء مدايو في تدريس مختصر الخليل^(٤).

هذا، وقد أدخل بعض العلماء التغيير الفعلي للكتب المقرّرة ومستواها، لأنّ اهتماماتهم في أول أمرهم كانت تنصب على الفقه وقليل من علوم القرآن والتفسير والحديث، يذكر علي أبو بكر الصورة التي وصل إليها التعليم العربي الإسلامي بالقرن الثامن عشر الميلادي؛ إذ يبدأ الطالب «بالكتب السهلة، ثم قراءة كتب اللغة، ثمّ كتب النحو، ثمّ الفقه، ثمّ الحديث، ثمّ الصرف والبلاغة، ثمّ التاريخ والمنطق والعروض»^(٥).

واستمرت المنظومة التعليمية الإسلامية تتطور شيئاً فشيئاً حتى استوعبت كثيراً من الكتب والفنون، منها على سبيل المثال: كتب التزكية والسلوك والعقيدة والجدل

المشرقية، وكتب الشيخ عبد القادر الجيلاني، وكتب حجة الإسلام محمد الغزالي، وبعض مؤلفات النووي والسيوطي وغيرهم. هذا، غير كتب مشاهير من العلماء التي تظهر من هنا وهناك، وهذا لا ينافي الكتب التي دخلت إلى المنطقة من المغرب العربي، حتى هذه دخل أكثرها خلال رحلة الحج. ويبدو أنّ بعض العلماء استفادوا بالكتب الطبية والعلومية التي جلبت إلى نيجيريا، فألّفوا على غرارها كتباً تدلّ على سعة ثقافتهم واطلاعهم، من ذلك ما كتب الشيخ الطاهر بن إبراهيم الفلاني: أمراض المعدة، والشيخ محمد بلو بن عثمان بن فودي في: مصوغ اللجين في أمراض العين، ورسالتين في الطبّ النبوي الشريف^(٦).

دور رحلة الحجّ في نشر التعليم العربي الإسلامي في شمال نيجيريا قديماً:

يرجع تاريخ التعليم العربي الإسلامي في نيجيريا إلى وقت توغّل الإسلام في هذه البلاد، فقد قام عددٌ كبيرٌ من العلماء وطلاب العلم الشرعي بدورهم فيه، وليس من السهل حصر عدد الذين قاموا بزيارة الأراضي المقدسة بقصد أداء فريضة الحجّ والنهل من مناهلها العلمية، لكنّ الظاهر أنّ كثيراً من الحجّيج، بمن فيهم الأمراء والعلماء والعامّة، قد أسهموا في نشر الإسلام والتعليم العربي الإسلامي بشمال نيجيريا، إذ قام الأمراء بجلب العلماء وتكريم مثوهم، والعلماء تصدّوا لتدريس العامّة وتعليمهم العلوم الإسلامية والعربية، والعامّة أقبلوا على العلماء والاسترشاد منهم.

وتحوّلت طرق الحجّ- ذهاباً وعودة- إلى ملتقى للشعوب الإسلامية، وقامت على امتدادها قرى ومدن متعددة، منها على سبيل المثال: مدينة غَزَزَمُو ومَاتِينَا وديكو في برنو، وجَدُونُو ومَرَمَة وكَشْنَا أَلِيَمَن (Yan leman) في جينفاوا^(٧)، واكتظت هذه المدن بالعلماء وطلاب العلم، بل أصبح جُلّها من أكبر مراكز التعليم العربي الإسلامي؛ بفضل «كثيرٍ من المغاربة والشناقطة الذين يمرّون بها في

(١) أ. د. يوسف فضل: الكتاب العربي وأثره في التواصل الثقافي مع إفريقيا، مقالة منشورة بمجلة دراسات إفريقية، مركز البحوث، جامعة إفريقيا العالمية، العدد ٥٢، ٢٠١٤م ص ٢٨.

(٢) إنفاق الميسور، ص ٢٢، وحركة اللغة العربية، ص ٦٢.

(٣) الثقافة العربية، مرجع سابق، ص ١٨١.

(٤) المرجع نفسه، ص ١٩٠.

(٥) المرجع نفسه، ص ١٩٠.

والحوار والفلك والطب والجغرافية والاقتصاد والحرف، بجانب التخصصات الدقيقة في الفقه الإسلامي المقارن، وعلم الجرح والتعديل، وعلم التفسير.. وغيرها.

وكلما كانت نسبة الحجج ترتفع تزايدت نسبة هذه المعاهد، لهذا السبب انتشرت بكثافة عالية جداً من أواخر القرن السابع إلى قبيل القرن العشرين، حيث ذكر الباحثون آلاف المعاهد المنتشرة في شمال نيجيريا، وخصوصاً في ظل إمارة إدريس ألوما، والشيخ محمد الأمين الكامي بأقصى الشرق، وإمارة الشيخ عثمان بن فودي بوسط نيجيريا وغربها، وفي برنو نجد معاهد متميزة، منها مراكز لإعداد الدعاة تحت إدارة العلماء المتبحرين، مثل: الشيخ محمد الخطيب (حجرمه)، والشيخ الطاهر إبراهيم فيرمه، والإمام أحمد بن فرتو، ومحمد بن عائشة، والوزير الكبير كُوسُو بن هرون^(١)، وفي سكتو وغونديو وما حولهما أكثر من ثلاثين معهداً، برغم حداثة مقارنته بمعاهد كشنا وكنو وزاريا، لكنها أدّت دورها إبّان تأسيس الدولة الفودية.

ومن علمائها: الشيخ جبريل عمر، والشيخ عثمان بن فودي، وأخوه عبد الله، وأبناؤهما، والوزير عبد القادر الملقب بمثلو، والشيخ مصطفى.

وأما معاهد كنو وكشنا وزاريا؛ فإنها من أقدم المعاهد في الشمال الغربي، ومن أهم علمائها: الشيخ عمر بن مختار كبرا كنو، والشيخ محمد غيغما من كشنا، الشيخ عمر الوالي صاحب (منظومة الفقه على المذاهب الأربعة) من زاريا، وكذلك الأمر في بوشي وأدماوا وبدّا والورن^(٢).

كما أنّ رحلة الحج غيرت الكثير من الأنظمة التعليمية التقليدية وطوّرتها حسب الأوضاع والظروف، تجلّى ذلك في أعمال الشيخ عبد الله ثقة، والشيخ طن مسني، والشيخ طن مرنا، والشيخ كن توبي، والشيخ إبراهيم موسى شيخ علماء الحديث في القرن العاشر الهجري، والشيخ زهر (ميكروغو)، وامتداداً إلى الشيخ طاهر بن إبراهيم فيرم، والشيخ جبريل بن عمر أستاذ الشيخ عثمان بن فودي، وقادة

الدولة الفودية عموماً والذين جاؤوا بعدهم، مثل: الشيخ عمر دلاجي، والشيخ موسى الزركزي، والشيخ إسحاق من دورا، والشيخ يهوذا بن سعد زاريا، والشيخ عمر الوالي، والشيخ عبد القادر النفوي، والشيخ كبر.

وبالنظر إلى فنون الكتب التي جُلبت من خلال رحلة الحج؛ ندرك أنّ العقلية التعليمية قد تحوّلت تحوّلاً كبيراً جداً؛ مما جعل صناعة التأليف واللقاء الدروس تتطور وتزدهر، فيقال إنّ معاهد زاريا من المعاهد التي تأثرت بهذه التحولات سريعاً، وخصوصاً قبيل العصر الفودي، كما أنّ جنودتو من المناطق التي تأثرت جداً بهذه الرحلة.

وعموماً؛ استقادت نيجيريا قديماً من رحلة الحج، في تطوير التعليم العربي الإسلامي، وتوغله داخل المجتمعات النيجيرية، وتخرج كثير من طلاب العلم الذين أصبحوا علماء، ومن ثمّ تصدّوا لهذه العملية الجليلة.

خاتمة البحث:

توصل هذا البحث إلى عدد من النتائج، ومن أهمّها:
- أنّ رحلات الحجّ متّصلة في ثقافة شعوب غرب إفريقيا عامّة، وشعوب نيجيريا خاصّة قديماً، مما جعل هؤلاء الشعوب يحجّون عاماً تلو عام، حتى العصر الحديث.
- أنّ رحلات الحجّ لها طعمها الخاصّ بغرب إفريقيا ونيجيريا، حيث قام بها جلّ طبقات المجتمع، من أمراء وسلاطين وملوك وعلماء وطلبة العلم وتجار أغنياء وفقراء.
- خلفت هذه الرحلات آثاراً على الطرق والمدن والدول التي مرّت بها؛ من المخالطة بالشعوب الأخرى، ومصاهرتهم والتعلّم والتعليم، بجانب الثقافات والحضارات التي خلفتها.

- كما أنّها خلفت مدارس دينية بمختلف فنونها، متنقلة ودائمة، تعلّم فيها طلبة علم، أو استزاد منها علماء، على طول طرق الحج، وقد استقرّ كثيرٌ منها في كثير من المناطق.
- أنّ هذه المدارس قامت بدورها في نشر التعليم العربي الإسلامي في نيجيريا، مما أسفر عن ظهور علماء ودعاة ومصلحين ومجاهدين، حيث قاموا بتطوير مسار التعليم الإسلامي بالمنطقة.

- أنّ رصد هذه المدارس ودراستها يحتاج إلى دراسات جادة متواصلة ■

(١) كبير آدم تدن نفاوا: المدخل إلى الأدب العربي في القرن التاسع عشر الميلادي، دار الأمة، نيجيريا: ٢، ص (٢٣ - ٢٥).

(٢) الثقافة العربية، مرجع سابق، ص (١٩٣ - ٢٢٤).



العلاقات البشرية والتجارية بين مدينة فاس المغربية وإفريقيا الغربية 1850م - 1920م



د. محمد تلوزت بن علا
باحث في التاريخ المعاصر - المغرب

ارتبطت مدينة فاس المغربية بعلاقات

تجارية مع مجموع مدن وبادي

المغرب، ثم مدت نفوذها التجاريّ في مراحل ازدهارها إلى إفريقيا الشمالية خارج البلاد، ثم أوروبا وغرب إفريقيا، وكان للإنتاج الحرفيّ الدّور الأساسيّ في تنشيطها، حيث وفّرت السلع والبضائع لتلبية حاجيات الزبائن في كلّ الأماكن، وشكّلت القوافل وسيلة أساسية لتصريفها خارج الحاضرة الإدريسية.

وتدين فاس في غناها وعظمتها لنشاطها التجاريّ، وتلازم نفوذها التجاريّ بنفوذها الروحيّ والسياسيّ داخل المغرب، غير أنّ هذا الامتداد التجاريّ سيُعرف تغييرات جذريّة؛ بدءاً من المناطق التقليدية للنفوذ التجاريّ لفاس: الجزائر طرابلس ومصر، ثم بلاد السودان وفي إفريقيا الغربية، بفعل التحولات التي عرفتها تلك الأماكن، وما شهدته من الغزو الاستعماريّ، باحتلال الجزائر سنة 1830م، ثم بلاد السودان وإفريقيا الغربية، وفرض الحماية الفرنسية على المغرب سنة 1912م، واكتساح الرأسمالية لها.

أولاً: فاس أكبر حواضر المغرب ببلاد السودان وإفريقيا الغربية؛

1 - فاس مدينة الحرف التقليدية والتجارة:

أ - التعريف بفاس تاريخياً:

تأسست مدينة فاس المغربية، التي تقع وسط البلاد، في نهاية القرن الثامن الميلادي، من قبل أحد أحفاد الرسول (عليه الصلاة والسلام)، هو إدريس بن عبد الله⁽¹⁾، ثم جدّ ابنه إدريس الشابّ بناءها بعد

(1) حول بناء مدينة فاس انظر: أ. ليفي بروفنسال:

قراية عشرين سنة، وأسس تجمّعاً ثانياً من المباني على الضفة الأخرى لوادي فاس.

ومن المؤكد أنّ موضع المدينة في السابق لم يتمّ تعميره كلياً، برغم أنه يتوفّر على عوامل جاذبة، كوفرة المياه الناتجة عن مياه الوادي، ومياه العيون المتفجّرة، خصوصاً في الضفة اليسرى له، وكذا لموقعه الجغرافيّ، وأراضي هذا الموضع صالحة للفلاحة، وتوفّر معظم مواد البناء، فتزخر غابات الأطلس بإمكانيات مهمّة لتزويدها بالخشب.

سمّيت - منذ البداية - المدينة الواقعة على الضفة اليمنى للوادي باسم: «عدوة الأندلس»، والمشيدة على الضفة اليسرى: «عدوة القرويين»؛ لأنّ الكثير من القُرطبيّين والمهاجرين من القيروان استقروا فيها منذ بداية القرن التاسع الميلادي.

ثم تلتّ فاس - مع وصول الفاتحين المرابطين الصحراويّين سنة 1075م - موجةً جديدةً من المهاجرين، فوحد قاندهم (يوسف بن تاشفين) العدوتيّين، وجعل هذه المدينة ليس عاصمةً له فقط؛ ولكن أيضاً قاعدة لوجيستية في فتوحاته العسكرية بإسبانيا، ويمكن اعتباره المؤسس الثاني لفاس، واستغلها أيضاً - بعد المرابطين - الموحدون (1145م - 1258م)، وكانت فاس في بداية القرن 13 مدينة مهمّة ومزدهرة.

استقرت الأسرة المرينية بفاس سنة 1248م على

E.Levi-Provençal , La fondation de Fès , dans - Annales de l'Institut d'études orientales de la - Faculté des Lettres d'Alger , IV (1938) pp.23 . 52

E.Levi-Provençal , Islam نشرها في: 41-d'Occident , Paris, 1900, p 3

وأهم المؤلفات باللغة العربية حول فاس: ابن أبي زرع الفاسي: روض القرطاس، أبو الحسن الجزنائي: زهرة الآس، محمّد بن جعفر الكتاني: سلوة الأنفاس ومحادثة الأكياس بمن أقبر من العلماء والصالحاء بفاس - 3 أجزاء، طبعة حجرية، فاس 1916م.

وهي معاصرة في تأسيسها لجامعة السوربون في فرنسا، وقد أشاد الشعراء العرب بنبوغ علمائها عند مدحها.

تراجع إشعاعها في مطلع القرن العشرين، ولم تعد كسابق عهدها عندما كانت تعدّ عقل الإمبراطورية القوية التي ظهرت في المغرب، امتدّ ذلك الإشعاع لكلّ أو جزء من إفريقيا الشمالية وإسبانيا المسلمة.

وفي الفترة التي تهمّنا: كان هناك فقط أربعة جزائريين يتابعون دروسهم بالقرويين، وهم الأجانب الوحيدون فيها، ويتمتع أساتذة الطبقة الأولى الذين بلغ عددهم ١٧ أستاذاً سنة ١٩٠٤م^(١) بسمعة كبيرة، ويسمّون: «العلماء الكبار»، وفي ١٩٠٦م كانت هيئة التدريس تضم ٤١ أستاذاً، منهم نحو ٣٠ معروفيين في المدينة بأنهم «علماء كبار».

ازدهرت الطرق الصوفية، خصوصاً في القرن ١٥ حتى القرن ١٨، في الوقت الذي اتخذ فيه الإسلام المغربي مظهره الذي حافظ عليه إلى القرن العشرين، وفي سنة ١٩٠٠م تقريباً كانت النخبة المكوّنة من علماء جامعة القرويين والموظفين الكبار والتجار يفضلون الانتماء إلى الطريقة التيجانية؛ بالرغم من أنّ الزاوية الأصل موجودة في الجزائر، وكان مقدّم الزاوية في فاس سنة ١٩٠٣م جزائرياً، ويقال إنّ العديد من أقارب السلطان ومن بطانته كانوا من أتباعها، وقد تعاطف نفوذها في مطلع القرن العشرين؛ لأنها أصبحت تضمّ سنة ١٩٠٧م فرعاًين بفاس بدل واحد سنة ١٨٩٨م، وكان لها مریدون في مختلف مناطق جنوب المغرب وإفريقيا الغربية، يزورونها سنوياً.

حالتها، وأعطتها صفة: «مدينة عاصمة»^(١)، ووجد المرينيون أنفسهم في ضيق فيها بعد أن وطّدوا حكمهم في مجموع المغرب، فأسسوا في سنة ١٢٧٦م مدينة إدارية وعسكرية بجانبها؛ تُعرف اليوم باسم: «فاس الجديد».

سيطرت الأسرة الحاكمة السعدية على فاس في منتصف القرن ١٦، بعدما استعصت عليهم في البداية، إلا أنّ السعديين اعتنوا بها، وحصّنها جيداً.

في ١٦٦٦م؛ تولّى الحكم بفاس أحد أفراد الأسرة العلوية الذي ينحدر من أسرة الرسول (عليه الصلاة والسلام)، ونشر فيها الأمن، لكنه توفّي فجأة سنة ١٦٧٢م، وخلفه أخوه المولى إسماعيل الذي لم تعجبه فاتخذ بدلاً منها «مكناس» عاصمةً لملكه، وبعد عهده الطويل؛ شهد المغرب اضطرابات جديدة لثلاثين سنة.

تألّفت مدينة فاس سنة ١٩٠٠م من مدينتيّ متباينتين؛ لكنهما مرتبطتان بنظام من الأسوار الحصينة هما: المدينة القديمة التي شاعت تسميتها بـ «المدينة»^(٢)، ثم المدينة الإدارية والعسكرية للقرن الثالث عشر، وهي «فاس الجديد»، وشكّلت «فاس الجديد» دوماً معقلاً محصّناً بأسوار قوية.

وخلال القرن ١٩؛ يمكن أن نقول بأنّ سلاطين المغرب ورّعوا وقتهم بانتظام بين فاس ومراكش؛ عندما لا ينهضون في حركةٍ إلى ناحيةٍ من أنحاء البلاد.

ب - المكانة العلمية والدينية لفاس في المغرب وخارجه:

تعدّ فاس مدينة حرف وتجارة وعلم، حيث عرفت منذ قرون إشعاعاً فكرياً مركزه جامعة القرويين^(٣)،

Pérétié , Les Médrasas de Fès , dans Archives - 372-marocaines, XVIII (1912), pp. 257
J. Berque , ville et Université, aperçu sur - l'histoire de l'Ecole de Fès, dans Revue historique du Droit français et étranger, 1949

Eugène-Aubin, (Descos), Le Maroc (٤) d'aujourd'hui, Paris, 1904. p. 281

(١) حول هذا العصر انظر:

R. Le Tourneau, Fez in the Age of Marinides , - Norman (Oklahoma), 1961

(٢) تمييزاً لها عن فاس البالي (فاس القديمة)، وفاس الجديد، وفاس الأوروبية؛ خصصناها باسم: فاس المدينة.

(٣) حول هذه الجامعة يراجع:

٢- الانتاج الحرفي بفاس:

يحتل الحرفي مكانة رفيعة ضمن السكان الحضريين، وأحسن دليل على ذلك أن جميع سكان المدينة يشاركون في مواسم الحرفيين، سواء كان موسم مولاي إدريس أو مواسم الحناتي، ويستدعي الحرفيون إلى احتفالاتهم نخب المدينة، ولا يقاطع أحدٌ دعوتهم.

وجميع الحرفيين مهما كانت أنشطتهم لهم الحق في لقب مشرف، جدير بالاحترام، هو اسم: «المعلم» (أي الذي يستطيع أن يلحن مثل الفني والمعلم).

في مطلع القرن العشرين كانت الصناعات تلبّي- تقريباً- جميع حاجات المدينة والبادية المجاورة، لكن الكثير من منتجاتها تجاوزت حدود منطقة فاس إلى خارجها، حيث كان يروجها وكلاء في المدن الرئيسية للمغرب؛ لأن الحرفيين الفاسيين كانوا يتمتعون فيها بشهرة واسعة.

أبرز الحرف التقليدية بفاس في أوائل القرن العشرين:

الصناعات الغذائية: لها المكانة الأولى في ترتيب الحرف، مثل: طحن الحبوب، وهي مزدهرة، حيث اشغل بها ما يقرب من ٧٠٠ عامل^(١).

صناعات الملابس: عددها كبير، يعمل بها حوالي ٦٠٠٠ عامل وعاملة، لا يشتغلون فقط لحساب فاس، ولكن أيضاً للبادية المجاورة والمدن المغربية، وبعض البلدان الأجنبية. ويأتي في مقدمة حرف الملابس: نساجو الصوف والحريير والقطن، ثم الخرازون، ثم الدباغون، بينما يأتي في الأخير الصباغون والخياطون، وحرف صغيرة أخرى، مثل: الأحزمة، أو صنّاع الشاشية الذين بدؤوا يخنقون منذ سنة ١٨٩٨م، لأن فرنسا والنمسا بدأتاً تصدران للمغرب شاشيات

مصنوعة ألباً وأقل ثمناً من شاشياتهم.

صناعة الأسلحة: توفر فاس لاحتياجاتها- إضافة إلى أدوات العمل- الأسلحة، فالى حدود القرن ١٦ كان يُصنع فيها السيوف والخناجر والرماح والحرايب والتروس والأقواس، واستمرت فيها صناعة الأسلحة البيضاء إلى بداية القرن العشرين، لكنها كانت محدودة.

الأدوات المنزلية: كان الحرفيون يلبّون حاجيات الفاسيين، فيما يخص الأدوات المنزلية التي تتطلبها الحياة اليومية، بدءاً من الشموع، والتي قال بشأنها ليون الإفريقي: «وهي أجمل المصنوعات التي أعتقد أنني رأيتها في حياتي»^(٢).

وبضّم عدد هؤلاء الحرفيين إلى جميع الحرفيين، المشار إليهم في مختلف طبقات الحرف اليدوية، نصل إلى رقم إجمالي يصل إلى قرابة ١٠ آلاف شخص، وإذا افترضنا أن كل عامل يعمل أربعة آخرين؛ فسيكون نصف السكان الفاسيين يعيشون على الصناعة التقليدية.

أما اليهود؛ فتعاطوا منذ أمدٍ طويلٍ بعض المهن، وبخاصة التي تتطلب استعمال المعادن الثمينة، مثل حرفة طرّق الذهب والفضة، وتسفير الكتب بالجلد، وصناعة خيط الذهب والفضة^(٣)، والسمكرة، وصناعة الفوانيس. وكان السمكرية وصنّاع الفوانيس اليهود يشتغلون فقط لحساب الملاح وفاس الجديد، ويتركون زبائن فاس المدينة لزملائهم المسلمين، ولم تشهد فاس منافسة بين اليهود والمسلمين لتقسيم العمل بينهما، ولا نعرف سوى القليل من الحرف التي زاولها في الوقت نفسه اليهود والمسلمون.

(٢) Léon l'Africain, Description de l'Afrique, t.1, p.193.

(٣) R. Guyot, R. Le Tourneau et Paye, Les Relieurs de Fès, dans Bulletin économique du Maroc, III (1936), p.112.

(١) R. Guyot, Notes sur les moulins hydrauliques de Fès et la corporation des meuniers qui les servent. غير منشورة.

في لغة أهل فاس بنعت: «التاجر» الذي يتطلع جميع التجار إلى حمله، ويعني هذا اللقب: التجار الجديرون بهذا الاسم، بينما يُلقَّب الآخرون بـ «حوانتي»: أي صاحب الحانوت.

وينتمي كبار التجار إلى ثلاث مجموعات رئيسية: باعة الحبوب، باعة العقارات، المصدرين، وقد أورد روني لوكليرك في سنة ١٩٠٤م^(٢)، لائحة بأسماء التجار الرئيسيّين لفاس، وأحصى منهم ستين تاجراً، تراوح رأس مالهم بين ٥٠ ألف فرنك ومليون فرنك أو يزيد، من بينهم الشرفاء واليهود الذين أسلموا.

كان التعامل جاريّاً بواسطة: خطاب الاعتماد - وسند الأمر - والسفتجة (كمبيالة): في فاس بشكلٍ عادي، وشرع بعض الفاسيين منذ سنة ١٨٩٠م في التعامل مع بنوك جبل طارق وطنجة، وكان بفاس ممثلٌ لبنكٍ يهوديٍّ بطنجة، يؤدي الخدمات البنكية الرئيسية لحساب موكله^(٣)، لكن ظلّ الكثير من الفاسيين مترددين لمدة طويلة إزاء الشيكات والأوراق البنكية والنقود الورقية، كان كبار التجار من تجار المنسوجات والحليّ والبلاغي يقومون بعمليات تجارية كبيرة، ولهم شيءٌ من الإلمام بالتجارة الدولية.

كان نقل السلع والمسافرين بين فاس وبقية أنحاء المغرب يتمّ بواسطة قوافل دوابّ الحمل، كان هذا النشاط حرّاً، يضطلع به الخواص ولا يتدخل المخزن أبداً فيه إلا فيما يخصّ نقل البريد، وتمتلك هذه الدواب طائفةً النقائين التي تنقسم إلى فرقتين متميزتين، كلّ واحدة منها لها رئيس.

(٢) René Leclerc , Maroc septentrional. Souvenirs (٢) et Impression (été 1904) , Alger, 1905, p.p 149 .et 250

A. Lahlou , Notes sur la Banque et les (٢) d'échanges commerciaux à Fès avant le protectorat, dans Hespéris, XXIV (1937), 232-pp.223

عمل بصناعة خيط الذهب والفضة أزيد من ٥٠٠ يهودي ويهودية، وهو رقم مهمٌ بالنسبة لعدد السكان (٨٠٠٠ نسمة ونيف)، وهي أكبر صناعة في الملاح، ويتعاطاها الكثيرون حتى في البيوت.

يكون النساجون واللباغون والبلاغيون ما يمكن أن نسميه: أرسنقراطية الصناعة التقليدية بفاس، ولكن بدرجة متفاوتة، فهذه الطوائف كانت كثيرة العدد، وتملك نسبة من الثروة، وقطعاً تحتكر ربما لقب الفاسية، فجميع المعلمين المهتمين، وغالبية العمّال في سنة ١٩١٠م، كانوا فاسيين منذ أمدٍ طويل.

٣ - الأسواق والمبادلات التجارية لفاس:

إلى بداية القرن العشرين كانت تُعقد أسواق للبيع بالمزاد العلني في كلّ يوم؛ لتصريف منتجات الحرف التقليدية، في أوقات معلومة بالنسبة للسلع المتوفرة بكميات كبيرة، وفي مكانٍ معيّن، مثلاً: بالنسبة للبلاغي تُباع يومياً - باستثناء الجمعة والأعياد - بين صلاتيّ العصر والمغرب بسوق السباط، وفي زقاق القيسارية الذي يمتلك فيه باعة البلاغي حوانيت، بينما يُقام سوقٌ للمزاد العلنيّ للجلود المدبوغة بفسوق الجلد بعد الظهر يومياً إلى الساعة مساءً.

وتُباع بعض السلع في المزاد بشكلٍ تسلسلي، حيث تُباع المواد الأولية، ثم منتجاتها نصف المصنعة، ثم المنتج المصنّع، وهكذا كان شأن الجلد الخام، يليه المدبوغ، وأخيراً منتجات الجلد، وبالنسبة للمواد المصنوعة والمواد الخام الصناعية يتم اللجوء إلى دلال أو مناد^(١)، ويبلغ عددهم قرابة سبعمائة، يكونون عدة طوائف، لها الامتياز التجاريّ في الاستئثار بهذا السوق أو ذاك.

كان من بين هؤلاء التجار الكثير من أصحاب الحوانيت، لكن وحدهم تجار الجملة هم الذين يديرون بحقّ النشاط التجاري، وهم الذين يحقّ لهم أن يُلقَّبوا

(١) يقصد بهما حرفياً: الذي يُشهر ويُعرّف بالشيء، مثل البضاعة، لبيعها.

٤ - العلاقات التجارية لفاس خارج المغرب:

أوروبا إلا بوصفها مواد تكميلية وتلبي شغف الأوروبيين وبكميات قليلة.

ثانياً: العلاقات البشرية والتجارية بين فاس وإفريقيا الغربية: ١ - العلاقات البشرية:

لا تسعفنا الوثائق المغربية في تتبع تاريخ هجرة المغاربة إلى إفريقيا الغربية، لكننا نجد معلومات عنها في كتب الرحالة الأوروبيين المستكشفين، وضباط الجيش الفرنسي في حملاتهم العسكرية على بلاد السودان الغربي، ف «ليوبولد بانل» Leopold Panel يؤكد أنه، أثناء إقامته في سان لويس (السنغال) عام ١٨٥٠م، تعرّف على تاجر مغربي من مدينة فاس، كان قد هاجر قبل التاريخ المذكور بسنتين أو ثلاث^(٣).

ويبدو أنّ وجودهم ظلّ محدوداً ولم يستترع انتباه الأوروبيين المستكشفين للمدينة؛ إذ لم يُشر إلى وجودهم فيدهيرب L. Faidherbe في الإحصاء الذي تمّ بالمدينة سنة ١٨٥٨م، حيث بلغ عدد سكانها زهاء ١٥ ألف نسمة، واعتبرها من أجمل مدن سواحل إفريقيا الغربية^(٤)، ويمكن تفسير قلة عددهم في ذلك الوقت بأنّ الأمراض الاستوائية كانت تفتك بهم، وتحّد من جرّاتهم ونشاطهم التجاري الذي يتعدى المغرب إلى دكار، وسابقاً إلى القاهرة^(٥).

تتاجر فاس أولاً مع باديتها، ومع مناطق شمال المغرب، وقلّصت فتن مغرب القرن ١٩ ومطلع القرن ٢٠ المبادلات التجارية بين فاس والمناطق البعيدة، لكنها لم توقفها، فقبل الحماية كانت لفاس علاقات تجارية مع مجموع المغرب، لكن في الوقت الذي كانت تمونّ فيه المناطق الأقلّ بعداً بالمواد الاستهلاكية العادية؛ فإنها تتبادل مع المناطق البعيدة بمواد ذات قيمة عالية، يمكن لثمنها أن يغطّي نفقات نقلها المرتفعة.

وكانت المنتجات الرخيصة للصناعة الفاسية تصل إلى كلّ المدن، وكثير من البوادي المغربية، وسبب ذلك جودة هذه السلع، ولاستقرار عدد من التجار الفاسيين في المراكز التي يمكن تصريف سلع فاس منها بكميات معقولة، فكانت هذه السلع متوفرة في وزان وتازة، وأيضاً بمكناس والدار البيضاء وأزمور ومراكش.

حافظ تجار فاس في بداية القرن العشرين على علاقات تجارية منتظمة مع العديد من البلدان الإفريقية، ففاس تشتري من الجزائر: عود الثقاب وورق السجائر والتبغ والمناديل الحريرية، وتصدّر إليها المنسوجات والبلاغي التي بلغت قيمتها ٢٠٠ ألف فرنك سنة ١٨٩٢م^(١)، ورؤوس الماشية التي بلغ عددها حوالي ٢ آلاف رأس سنة ١٨٩٧م، وقد توقفت تماماً هذه المبادلات بسبب اندلاع ثورة «بوحمارة» سنة ١٩٠٢م.

أما مصر؛ فتوطدت معها حركة تجارية بفضل مواكب الحج، فكان تجار فاس يصدّرون إليها المنسوجات والبلاغي. أما أوروبا فكانت تجارة فاس ذات طبيعة أخرى معها، وقُدّرت قيمة صادرات المواد غير الأساسية بستمائة ألف فرنك سنّتي ١٩٠١م و ١٩٠٢م^(٢)، ولم تكن منتجات الصناعة الفاسية تُباع في

(٣) Panel, L. Relation d'un voyage du Sénégal a Souera en 1950. Ed. Le livre africain, Paris, 1968. CF, TAMOUH, Z. le Maroc et le Soudan au XIX siècle. Thèse de doctorat. Université Paris I. Paris, 1982. P. 51. Inédit
نقلاً عن: عبد الواحد أكيمير: المغاربة والبنانيون في إفريقيا الغربية، ص ١.
http://www.aljabriabed.net/n87_03akmir.htm

(٤) M.L. Faidherbe, Notice sur la colonie du Sénégal Arthus Bertrand Editeur, p.10

(٥) R. Tourneau, Les souks

ضمن كتاب: تقايد تاريخية ٢٠١٥م، مطبعة انفو برانت فاس، ٢٠١٥م، ص ٣.

(١) Rapport de la mission militaire française du 18 février 1893

(٢) روني لوكيريك، مرجع سابق، ص ٢٤٤.

وكانت دكاكين التجار الفاسيين تشبه المتاجر الأوروبية في تنظيمها وطرق معاملاتها، كما بدأت الدور التجارية المغربية في السنغال تتعامل تجارياً مع المؤسسات الفرنسية، فتفوّقت آنثذ المنتجات الفرنسية على الإنجليزية؛ ذلك أنّ منطقة سان لوي، وتحديداً سواحل السنغال الحالية، شهدت عبر تاريخها تنافساً حاداً بين القوة الاستعمارية الأوروبية.

٢ - المبادلات التجارية بين فاس وإفريقيا الغربية:

كانت قيمة المعاملات التجارية بين فاس وإفريقيا الغربية، مطلع القرن العشرين، تبلغ عند بعض التجار أرقاماً كبيرة، فعلى الكيتيري يروّج نصف مليون فرنك، وأبو بكر كنون ربع مليون فرنك.

ومن أسباب نجاحهم: سهولة اندماجهم في المجتمع المحلي بزواجهم من نساء البلد، فالزوجات الفاسيات يرفضن مرافقة أزواجهنّ خارج فاس، وبالأحرى إلى تلك الديار.

أما تومبوكتو؛ فكانت وضعيتها وصلاتها بالمغرب مختلفة تماماً، فهي تقع ضمن الفضاء السيادي للدولة المغربية، فإلى حدود نهاية القرن ١٨ يشير الضابطان الفرنسيان لوسيان هوبير Lucien Hubert وموريس دولافوس Maurice Delafosse: أنها كانت تابعة لنفوذ سلطان المغرب، غير أنّ غزوات الطوارق عليها وعلى المسالك المؤدية إليها أضعفت تلك الصلات.

وأهم الطرق التجارية التي ارتبطت بها مع المغرب: طريق من تافيلالت إلى تومبوكتو؛ عبر تيمومين وعين صالح أو درعة، وإلى تومبوكتو؛ عبر تاودني، ومن الساحل الأطلسي والمغرب؛ إلى بلاد الهوسا عبر النيجر.

وخلال نهاية القرن ١٩ ومطلع القرن ٢٠؛ ساهمت الطريق من تلمسان إلى تومبوكتو بشكل أكبر في تصريف المنتجات المغربية في بلاد السودان، حيث بقيت سلح المغرب مطلوبة فيها.

في مطلع القرن العشرين، سنة ١٩٠٥م، استقر أكثر من مائة تاجر فاسي في السنغال ١٩٠٥م، لكن هذا الاستقرار حديث؛ لأنّ أول تاجر شرع في نشاطه في سان لوي Saint Louis يرجع إلى ١٨٧٤م.

ووصل حجم هذه المبادلات التجارية السنوية بين فاس والسنغال إلى حوالي مليون فرنك تقريباً، كلها لصالح فاس، ونجد حديثاً عن التجار الفاسيين، وبشكل لافت للنظر، في رسالة إخبارية وجّهها الطبيب دانرفيفيل Docteur D'Anfreville إلى السكرتير

العام، مؤرخة بـ ١٢ فبراير ١٩٠٥م، من سان لوي، حيث بلغ عددهم ١١٢ نفرًا يشكّلون الجالية المغربية بهذه المدينة^(١)، يمارسون كلهم التجارة، وبعضهم يشغل إدارة تسيير الدور التجارية، جاء معظمهم من المدن الساحلية الغربية، ومن فاس، ويمثلون إلى حد بعيد البورجوازية الحضرية المغربية، وقد اهتمت سلطات فرنسا بدراساتها وتتبع مواضعها من مسألة التسرب الفرنسي الاستعماري إلى غرب إفريقيا، خصوصاً أنّ المغرب في هذه الفترة كان لا يزال يحتفظ باستقلاله.

وبدأت طرق الملاحة البحرية تعوّض بشكل كبير الاتصال البري بين المغرب والسنغال، فالإبحار من طنجة إلى سان لوي سهل، ويستغرق أياماً معدودة، وغير مكلف للتجار.

ومن التجار الأوائل الذين استقروا في السنغال: التاجر الفاسي «علي الكيتيري» الذي استقر في سان لوي، وتعاوى تجارة الكتب العربية المستوردة من مصر وتونس، ثمّ وسّع تجارته وشرع في تسويق المنتجات الجلدية والمنسوجات المجلوبة من المغرب أو إنجلترا، ومن أبرز التجار الآخرين: «الحاج حميد برادة» الذي زاول تجارة الزرابي والبلاغي الصفراء المجلوبة من فاس، والتي ينتعلها سكان سان لوي.

(١) L. d'Anfreville, L. Bulletin du comité de l'Afrique française. (Renseignements Coloniaux), n°1, année 1905, p.154.

١٨٩٣م^(٤) إلى تراجع النشاط التجاري للمغاربة فيها، حيث كانوا يمثلون الزبون الأول لهذه المدينة، واستقر فيها منذ سنة ١٩٠٠م تجار فرنسيون ومن سان لوي، ونشطت تجارتها مع مدينة سان لوي.. فنافست التجارة المغربية والتجارة مع طرابلس.

وهذا الاكتساح التجاري الفرنسي للوجود المغربي هو ما يشرح حركة غزو نظمها ذوي منيع وأولاد جريز، انطلقت من تافيلالت ومّرت بالسواورة لتُغير على الفرنسيين في تومبوكتو في نونبر (نوفمبر) ١٩٠٤م^(٥)؛ لأنّ قوافلهم التجارية تضررت، وتقلصت مساحة مراعيهم بسبب الاحتلال الفرنسي.

٣ - بضائع التجارة الفاسية بإفريقيا الغربية:

ولا تصدّر فاس المنتجات التي تنتجها فقط، وإنما غدت فاس منذ وقت طويل مركز تجميع للبضائع من داخل المغرب، ثم تعيد توزيعها أو تصديرها.

وتدين التجارة الفاسية في وجودها لوجود صناعة للحرف متنوعة ونشيطة وغزيرة الإنتاج، ومن أبرزها المنتجات الجلدية، وفي مقدمتها البلاغي التي تجد إقبالا في المدن المغربية الكبيرة من الفئة الفنية التي تعدّ الزبون الأول للبلاغي الفاسية ذات الجودة العالية، كما يتمّ ترويج هذه البلاغي في قبائل شمال المغرب، وكان لحرفي البلاغي وتجارها وكلاء يساهمون في ترويج سلمهم داخل المنطقة الخليفية في شمال المغرب الخاضعة للنفوذ الإسباني.

ينتمي تجار البلاغي اجتماعياً إلى الفئة البورجوازية الفاسية، فأغلب تجار «سوق السباط» بفاس يجيدون القراءة والكتابة، وينتمون إلى طُرق دينية «متقفة»، مثل الطريقة التجانية والدرقاوية والكتانية،

وبلغ عدد القوافل التي تستقبلها تومبوكتو سنة ١٨٨٧م من جهة الشمال ٤٠٠ قافلة، فكانت بذلك أكبر مدن السودان وأكثرها غنى، تمثل «ميتروبول» الصحراء لنشاطها التجاري، فالتاجر المغربي كان ينظر إلى تومبوكتو بوصفها: «بلاد مباركة، إنها منجم ذهب، يكفيك أن تحني للأرض لجمعه، فرحلة واحدة إليها تقني المرء»^(١).

وكان فرنسيو الجزائر ينظرون بامتعاض شديد لنجاح التجارة المغربية في السودان، وكتب شارل بروسلاز Charles Brosselard، سنة ١٨٦٠م، يقول: «المغرب بلد لا يعدم المواد الطبيعية، ولا الصناعة، فتجارته... نشيطة ومتأنية، لا يتراجع أمام الشركات... يتمتع بسمعة وثقة مستحقين، ويمكننا أن نتفاوض معه على قدم المساواة (في الجزائر والسودان)»^(٢)، فالسلع المغربية بقيت تصل إلى تلمسان عن طريق قوافل فاس وتازة ووجدة، وتافيلالت، وهذه الأخيرة كانت ترتبط بفاس بقافلة شهرياً تتكون من ٥٠ إلى ١٠٠ جمل، وفي موسم جني التمرور تصل إلى ثمانية قوافل، وتتوزع منها السلع الفاسية نحو الجزائر ورغم ثقل الرسوم الجمركية المستوفاة في المركز الحدودي مع المغرب، والذي أقامته فرنسا من جهتها لمنع دخول السلع الإنجليزية إليها.

وتتضح أهمية تجارة تومبوكتو في أعين فرنسيي الجزائر في هذه الأرقام التي أوردها شارل بروسلاز، فما بين سنتي ١٨٥٤م و ١٨٦٠م عبرت من المغرب إلى الجزائر ٢٧٦ قافلة وصلت إلى تلمسان، قدرّت قيمتها عند البيع بـ ٢,٢٨٠,٠٠٠ فرنك^(٣).

وأدى الغزو الفرنسي لتومبوكتو واحتلالها سنة

Lucien Hubert et Maurice Delafosse, (٤) Toumbouctou. Ed., Grande Imprimerie Parisienne, Paris 1894, p.14

L. Mercier, Harkas Doui-Menia et Ouled (٥) Djerir vers le Sahel. In Bul. Renseignements Coloniaux. N°7, 1905, p. 265 à 267

M. Charles Brosselard, Tlemcen et (١) Toumbouctou, Imprimerie De A Bourget, Alger 1861, p. 7

.Ibid, p. 12 (٢)

.Ibid, p.12 (٣)

ومن المنتجات الحرفية التي قامت حولها حركة تجارية نشيطة: «الزرابي» التي مكّنت فاس من الارتباط تجارياً بالعالم الخارجي، كالأسواق الأوروبية، حيث غزتها الزربية الفاسية المتميزة بألوانها وأشكال زخارفها الهندسية الجميلة، وجودة الصوف المستعملة فيها، ومتانة عُقْدِها، فخلقت لها زبائن في بلدان كثيرة، وتحكّمت عوامل كثيرة في صادرات تجارة الزرابي من فاس، مثل القدرة الإنتاجية لحرف الزرابي، وقدرة الأسواق الخارجية على استيعاب هذا المنتج.

وتتم الصادرات عبر عددٍ من الموانئ، كالعرائش، أو عبر مرسيليا أو جبل طارق، بواسطة مجموعة من «القبائين» الممثلين التجاريين، إلا أنّ هذه التجارة كانت موسمية فقط، تتقوى خلال أشهر من السنة، مثل: نونبر (١١) ودجنبر (١٢) ويناير (١). وقد هيمنت طنجة لاحقاً على صادرات فاس نحو السنغال، والتجار الذين لا يتوفرون على وكلاء لهم فيه؛ يتعاملون مباشرة مع دور تجارية في دكار.

وتحكّم في تصريف الإنتاج الحرفي الفاسي في السنغال تجارٌ كبار، منهم^(٧): بن زويغ: وهو تاجر كبير، والشركة المغربية: يمثلها م. فابريس M. Fabrez، ومولاي علي الكيتيري: له ثلاثة ممثلين بالسنغال، والحاج إبراهيم السوسسي: محمي فرنسي، والحاج أحمد العسري، ومحمد بن القادر جلول: يمثله أبوه الذي استقر في السنغال.

ويبدو أنّ التجار اليهود الفاسيين لم يكن لهم نشاطٌ كبيرٌ في التجارة مع تومبوكتو ولا السنغال بشكلٍ مباشر، حيث اهتموا بالتجارة مع الدول الأوروبية التي كانوا أكثر انفتاحاً عليها، وتخصّصوا في السلع الثمينة.

de l'Agriculture du Commerce et de la Colonisation, mois de juin 1916, p. 7

René Leclerc, Le commerce et l'industrie à (٧) Fez..., op.cit, p. 233

ومن أشهر الأسر التي تهيمن على هذه التجارة: أسرة الشرايبي وأولاد لزرق وأولاد برادة، وتملك هذه الأسر متاجر داخل فاس وفروعاً لها في المدن المغربية، وقد صُدِّرت من هذا السوق سنة ١٩١٨م: ٢٠٠ ألف زوج من البلاغي^(١)، وإلى حدود سنة ١٩٢٠م بقي يزود أسواق الجزائر ومصر والسنغال بحاجاتها من البلاغي^(٢).

وكانت السوق السنغالية، التي تمتصّ الجزء الأكبر من الإنتاج المحلي من البلاغي، تُعرف بـ «سوق السباط»، إضافة إلى بعض المنتجات الجلدية^(٣)، وبلغت قيمة صادرات فاس من البلاغي سنة ١٩٠١م قرابة ٥,١ مليون فرنك؛ مقابل ١,٥٧٠ مليون فرنك سنة ١٩٠٢م^(٤).

وتصدّر نصف البلاغي الفاسية إلى مصر، بينما يقتسم النصف الثاني بين السنغال من جهة، ثمّ الجزائر وتونس وطرابلس من جهة ثانية، وتصل قيمة البلاغي الموجهة إلى السنغال سنوياً إلى ٤٠٠ ألف فرنك^(٥).

واتسمت تجارة البلاغي بفاس بعدم استقرار مبادلاتها بفعل الأزمات التي عرفتها حرف البلاغي مبكراً من عهد الحماية، فظهرت فيها الأزمة منذ سنة ١٩١٦م، حيث بادرت إدارة الحماية إلى إنشاء لجنة للبحث عن الأساليب الناجعة لوقايتها^(٦).

Andrien Massonnaud, «L'évolution des (١) corporation depuis notre installation au Maroc », in. B.E.M., volume IV, janvier 1937, p.42

Guyot, Le Tourneau et Paye, «Le commerce (٢) des babouches à Fès...», op.cit, p. 42

J. Berque, «Deux ans d'action artisanale à (٣) Fès...», op.cit., p. 161

René Leclerc, Le commerce et l'industrie (٤) à Fez., in Bulletin de l'Afrique Française, Renseignements Coloniaux, n°7, 1905, p. 244

.Ibid, p.245 (٥)

A.N.R., n° (1915), Rapport Mensuel-Direction (٦)

٤ - نهاية تجارة القوافل وميلاد تجارة البحر:

دخلت تجارة القوافل بين المغرب والجزائر مرحلة الأوفول والركود عند نهاية القرن ١٩ ومطلع القرن ٢٠، فالروابط التجارية التي جمعت فاس بإفريقيا الشمالية وبلاد السودان؛ كانت بفضل القوافل التجارية، فالجمل كان هو ناقل سلعها.

والسلع الأوروبية أدت الى انقراض بضائع فاسية، مثل الأقمشة: الحايك، الشاشية: الطربوش الفاسي، الأحزمة، الحقايب، الكراسي الجلدية.. وغيرها.

كما ساهمت الاضطرابات الداخلية التي دخلها المغرب في مطلع القرن العشرين في توقف التجارة الفاسية واضمحلالها، فعلى سبيل المثال أوقفت فتنة «بوحمارة» نشاط فاس التجاري مع شرق المغرب نهائياً، اضافة إلى الغزو الفرنسي لمعاقل التجارة الفاسية في بلاد السودان، وظهرت فيها إدارة استعمارية جديدة، لها خطتها وأهدافها في المنطقة.

كلها عوامل جعلت التاجر الفاسي يولي وجهته بعيداً عن تجارة القوافل إلى التجارة عبر البحر، حتى مع الأمم الإسلامية في شمال إفريقيا، فأصبحت بضائع فاس تخرج منها باتجاه المراكش وطنجة، ليس فقط لتلمسان وتونس وطرابلس ومصر، بل حتى داخل المغرب، وإن كان هذا التحول قد أنعش التجارة الفاسية، خصوصاً مع السنغال، حيث تزايد عدد الدُّور التجارية الفاسية به لتصل ٣٠ متجراً سنة ١٩٠٤م، منتشرة في دكار وسان لوي^(١)، وكانت هذه طيلة القرن ١٩ أكبر مركز لجمع السلع وتوزيعها، وظهرت فيها أولى البنوك: البنك الفرنسي لغرب إفريقيا، وبفضل نشاطها مُنحت نظاماً بلدياً كالذي يوجد في المدن الفرنسية، حيث كانت تتمتع بميزانياتها في التسيير الذاتي.

ولهذا؛ فاختيار التجار الفاسيين للاستقرار فيها كان له ما يبرره، من الاستفادة من أوضاعها وموقعها، فالتاجر الفاسي معروفٌ بحذقه وفطنته التجارية في غياب أي عون من الجهاز المخزني المغربي.

لقد تغيّرت الأوضاع العامّة للتجارة الفاسية مع إفريقيا الغربية بشكل كبير مع نهاية القرن ١٩ مع وصول جحافل القوات الفرنسية للمنطقة، وهذا ما يشرح دخول مسار القوافل في اضطرابات وغياب الأمن، حيث بدأت القبائل التي تضررت من ذلك في الهجوم على القوات الفرنسية والمتعاونين معها من القبائل المنافسة، وقد ساهمت الزاوية السنوسية والطريقة الدرقاوية بنفوذها الروحي في بلورة هذا الشعور لدى السكان.

أما المغرب؛ فلتظيم التجارة الأوروبية الناشئة بالمغرب، بعد فرض الحماية عليه سنة ١٩١٢م، سارعت سلطات الحماية إلى استحداث أجهزة لها وتشجيعها، ومنها: مكاتب البريد للاتصالات، وهيكل إدارية للإشراف على قطاع التجارة، وربط فاس بين فرنسا ومستعمراتها بغرب إفريقيا في الملاحة الجوية، وإنشاء السكك الحديدية مع فاس، لهذا تطورت واردات وصادرات مدينة فاس من مختلف البضائع.

وهكذا؛ انقطعت صلات فاس التقليدية مع شرق المغرب ومع تومبوكتو، وأصبحت لها امتدادات تجارية في مجالات أخرى، خصوصاً مع الميتربول، بفضل تلك التغييرات الجديدة، وتفوقت تجارة البحر على تجارة البرّ الفاسية، وهي التحولات نفسها التي عاشت فيها غرب إفريقيا، مع انتشار التجارة الرأس مالية التي تَوَمَّن فقط بالربح وإخضاع الآخر بالقوة لاستغلاله، وهي مبادئ لم تكن تخطر على بال التاجر الفاسي في سعيه التجاري أبداً، ما يدعو في الوقت الحاضر إلى إعادة بعث الصلات التاريخية التجارية والروحية والبشرية بين المغرب وإفريقيا الغربية ■

Albert Noyer, 1901, «Questions Coloniales ; (١) Les Oulade-Sidi- Cheikh et Bouamama». Imprimerie Gaston Lemaury, p. 233



الحروب الإفريقية في عصر العولمة: دراسة في الطبيعة والميكانيزمات

أ. سعاد بوسنية

باحثة دكتوراه في العلوم السياسية، كلية العلوم السياسية
والعلاقات الدولية، قسم الدراسات الدولية، جامعة الجزائر

حملت نهاية الحرب الباردة، بوصفها حدثاً تأسيسياً لنظام عالمي جديد، موجةً من التفاؤل ببلوغ السلام العالمي، فلاول مرة منذ الحرب العالمية الثانية أمكن وضع حد لسباق التسلح، واستثمار المخصصات الضخمة التي كانت موجّهة نحو بناء الترسانة العسكرية في أغراض التنمية المستدامة ومكافحة الفقر، غير أنّ تطوّرات الأحداث العالمية كشفت لاحقاً نسبة هذا الطرح.

فالتحوّلات البنوية والقيمة التي شهدتها النظم العالميّ أدت إلى تراجع محورية الدولة؛ لصالح تنامي عدد وقوة تأثير مجموعة من الفواعل تحت الدولية وعبر الدولية- من جهة، إلى جانب التغيّرات الحاصلة في نمطية التّهديدات على وقع صعود تهديداتٍ أمنية جديدة، تختلف من حيث مصادرها وطبيعتها عن تلك التي سادت حقبة الحرب الباردة- من جهة أخرى.

يستوجب هذا ضرورة استحداث مقاربات غير تقليدية أكثر استيعاباً لمتغيّرات الوضع الدوليّ الجديد، خاصّة في ظل وجود عقبة معرفية، أبطت الغموض يلفّ هذا النمط الجديد من التّهديدات التي لم تكن مدرجة ضمن الأجندة الأمنية لوحدات المجموعة الدولية.

إنّ بروز تهديداتٍ عابرة لحدود الدول وأقلّ قابلية للتّحكم، مثل الإرهاب، والجريمة المنظمة، والهجرة غير الشرعية، ومافيا تجارة السّلاح والمخدرات، وتهريب الأموال والبشر، والتلوث البيئي، والانتشار الوبائي، ومخاطر الدول الفاشلة، والحروب الأهلية، ومشكلات التنمية والفقر، شكّكت في قدرة الدول القومية على مواجهتها عبر تعزيز قدراتها العسكرية وتأمين حدودها الجغرافية فقط؛ باتخاذ إجراءاتٍ أحادية الجانب، ولهذا؛ اتّجهت العديد من الأوساط الفكرية والأكاديمية إلى أن تأخذ في اعتبارها استدامة بعض الحروب، وحتى بروز حروب جديدة. وهكذا؛ سرعان ما انهارت هذه النظرة المتفائلة المباشرة بمهد سلام عالمي؛ تحت وطأة التحوّلات العميقة التي شهدتها مسائل السّلم والأمن الدوليّين بعد الحرب الباردة، وما صاحب ذلك من تغيّر حاسم في طبيعة الحروب- من كونها حروب ما بين الدول؛ إلى التّصعيد في وتيرتها داخل الدول- بالشّكل الذي يهدّد الاستقرار المحليّ والإقليميّ والعالميّ.

وتعدّ إفريقيا من أكثر بؤر التوتّر حول العالم، بسبب تقاسم الحروب الداخلية التي تمحورت أساساً حول محدّدات هوياتية زادت في حدّتها عوامل أخرى، كعشائنة الدولة القومية، وانخفاض الأداء الاقتصادي، وضعف مستويات التنمية وغيرها، وهو ما شكّل تحديات حقيقية أمام عمليات بناء السّلم المستدام في القارة. وقد تصدّرت مسألة تغيّر طبيعة الحرب أجندة المهتمّين، سواء في الدوائر المعرفية أو السياسية بعد الحرب الباردة، كما في عصر العولمة، ما دفعهم إلى الحديث عن «الحروب الجديدة»^(١).

وفي هذا الإطار؛ يمكن رصد مجموعة من المؤشّرات للتّدليل على تغيّر طبيعة الحرب، من ذلك تراجع الحروب بين الدول من منظور كميّ؛ لصالح الحروب الداخلية التي تدور ضمن حدود الدولة أو على أنقاضها، وأصبحت تحتكر ما يفوق ٨٠٪ من إجمالي الحروب اليوم، لكنها ترك مجالاً واسعاً للتّدخل الخارجي Foreign Intervention نذرّاً بمفاهيم أخلاقية حول حقوق الإنسان Human Rights، حيث يفيد برنامج جامعة أوسالا لبيانات الصراع Uppsala Conflict Data Program أنّ عام ٢٠١٤م شهد صراعاً دولياً مسلحاً واحداً فقط، ويتعلّق الأمر بالصراع الهندي الباكستاني، بينما تمّ تسجيل ٣٩ صراعاً داخل الدول، ١٢ منها- أي ما يعادل ٣٢٪- تمّ تدويلها Internationalized. وشملت الصّراع في: (مالي، نيجيريا، الصومال، جنوب السودان، وأوغندا)^(٢)، فضلاً عن الارتفاع الدراميّ لعدد الضحايا المدنيين، وعليه؛ ستناقش هذه الدراسة الإشكالية الآتية:

ما خصائص الحروب الإفريقية في عصر العولمة، وهل فقدت المفاهيم التقليدية للحرب مصداقيتها في التّعامل معها؟

أولاً: نهاية نظام الحرب الباردة وتغيّر طبيعة الحروب الإفريقية؛

من المهم جدّاً إلقاء نظرة عامّة على تاريخ إفريقيا الحديث، من أجل فهم أفضل للحروب الإفريقية المعاصرة، ويتعلّق الأمر هنا بتقسيّ وتحليل حجم التّأثير الذي مارسه انهيار المنظومة الشيوعية؛ كتحوّل بنويّ ذي طبيعة سياسية على تغيّر طبيعة الحرب وظهور أنماط جديدة من العنف، فالصّراع المركزيّ بين الشرق والغرب خلال الحرب الباردة حجب صراعات أخرى في أطراف العالم، حيث عمدت القوتان العظميان إلى

منها: الحروب ذات الشدّة المنخفضة Low-intensity wars، حروب ما بعد الحقبة الاستعمارية Post colonial wars، الحروب اللاتماثلية Asymmetric wars، الحروب الإثنية Ethnic wars، الحروب الأهلية Civil wars، حروب النوع الثالث Wars of the third kind، حروب الجيل الرابع Fourth generation warfare، الحروب الجديدة New wars، الحروب الصغيرة Small wars.

(٢) Therése Pettersson, and Peter Wallensteen, "Armed conflicts, 1946- 2014", Journal of Peace Research, Vol. 52, No. 4, 2015, p 537, Available at: http://1journal-of-_61533/www.pcr.uu.se/digitalAssets/61pdf.50-peace-research-2015-pettersson-536

(١) لقد استخدمت مفاهيم متعدّدة للدلالة على هذه الحروب المعاصرة:

أكثر من ٨٠٠,٠٠٠ من التوتسي والهوتو عام ١٩٩٤م^(١)، ما أفقد المنظمة الأممية- بوصفها ممثلاً للشريعة الدولية- جزءاً مهماً من مصداقيتها وسلطانها الأخلاقية.

ومع تسارع وتيرة العولمة؛ تزايدت الضغوط الغربية على الدول الإفريقية باتجاه الديمقراطية، والقضاء على الأنظمة السلطوية. وقد تمّ ذلك في مناخ عنف اجتماعي، طبعه عاملان مهيكلان، فمن جهة: ترافقت عملية التحول الديمقراطي مع لاقاعدية الاقتصاد والبنى الدولية؛ في ظل ضعف القدرات الإدارية للدولة، وخصخصة بعض وظائفها الأساسية، وهو ما تُرجم على أرض الواقع إلى حركة عامة من هدم الطابع المؤسسي للدولة، بشكل غدى نموّ الممارسات غير القانونية، وظهور كيانات موازية لسلطة الدولة، سمحت بتضاعف غير مسبوقة لإمكانات تجنّب الملاحقة القانونية، في الوقت الذي كانت فيه القدرات العقابية التي تحتكرها الدولة على درجة عالية من الضعف.

ومن جهة أخرى: تصاحب مطلب التحول الديمقراطي مع تفتت وتجزؤ المجتمعات الإفريقية، وهو ما يُفسّر في الواقع الإفريقيّ بتنوع الإثنيات والهويات وتعدّد الولاءات، حيث أخفقت معظم الدول الإفريقية في رهان الاندماج الهوياتي للجماعات المختلفة المكوّنة لها.

وهنا تجدر الإشارة إلى: أنّ التعددية الإثنية- بعدد ذاتها- ليست سبباً كافياً لاندلاع النزاعات المسلّحة بين هذه الجماعات، ولكن عندما تستشعر جماعة إثنية أو أكثر الحرمان Deprivation والظلم Grievance الممارسين ضدها، سواء تعلّق الأمر بتناقص الثروة أو السلطة، تحدث التعبئة Mobilization، وبعبارة أخرى: عندما تصبح الدولة تُدار لحساب جماعة معينة وليس لحساب الأمة، تلجأ بعض الجماعات إلى تبني أشكال مختلفة من التنظيم، بما في ذلك العنيفة منها، كتعبير عن رفضها للوضع، والمطالبة بقدر أوسع من الفرص الاقتصادية، والمشاركة في السلطة السياسية، وتولّي الوظائف العامّة والحكومية، وإقرار نوع من العدالة الاجتماعية، وهذه المطالب تعبّر عن نفسها عادةً في شكل توتّرات، سرعان ما تتطوّر إلى تمردات مسلّحة، وفي هذا الإطار

توفير الغطاء والدعم للأنظمة السلطوية- ذات الطابع المدنيّ ظاهرياً- في إفريقيا لمواجهة الجماعات المتمردة المسلّحة في الداخل، في إطار سعيهما نحو استقطابها إلى أحد المعسكرين؛ لتعزيز موقعه في مواجهة المعسكر الآخر، وضمان مصالحه الأيديولوجية والجيوا-استراتيجية.

لقد أمّلت ظروف الحرب الباردة على الدول الإفريقية: أن تصطف في أحد المعسكرين لضمان الحصول على الدعم الضروري لغزو السلّطة أو الحفاظ عليها وبكل ثمن، لكن مع زوال الترتيب العالميّ (ثاني القمبية) تضاعفت القيمة الاستراتيجية لهذه الدول، وتراجعت مكانتها في النظام العالمي، ما أدى إلى تضيق هامش المناورة لديها، ومضاعفة القيود على خياراتها السياسية، حيث حرّمت من الربوع الاستراتيجية التي كانت تتلقاها من القوتين العظميين في شكل مساعدات اقتصادية وعسكرية، ودعم سياسيّ ودبلوماسي.

وبتلاشي فرص تلقي العون الدولي، الذي مثل أبرز سمات الحرب الباردة، انهارت وسائل الضّغط والسيطرة التي طالما وظّنها أحد المعسكرين لاحتواء الحروب الداخلية وضبطها، أو على الأقل منع تفاقمها، وأصبحت أغلب الأنظمة السياسية الإفريقية مهددة بالسقوط وبالفضى الداخلية، خصوصاً أنها تواجه أزمات متعدّدة، وتعاني من تمّ عجزاً خطيراً في جانب الشّرعية، زادت في حدّته مطالب تأكيد الهوية ضدّ الدولة الأمّة التي لم تعرف وجوداً حقيقياً في إفريقيا.

وبنهاية الاستقطاب الدولي الحاد؛ لم تعد سياسات الغرب اتجاه إفريقيا مندرجة ضمن استراتيجية شاملة لإدارة الصّراع مع الشرق، وإنما أصبحت مدفوعة أساساً بالمصالح الغربية المباشرة في المنطقة، وبات التعامل مع دول العالم الثالث عامّة، والدول الإفريقية بصفة خاصّة، حسب خصوصية كلّ حالة على حدة، وقد بدأ هذا التوجّه واضحاً من خلال موقف المجموعة الدولية من عمليات التدخل الإنساني Humanitarian Intervention في النزاعات والحروب الإفريقية، الذي تبيّن- بمرور الوقت- بأنّه لا يستند إلى القانون ولا إلى العدالة، بل إلى القوة، وتحكمه الانتقائية والمعايير المزدوجة.

فالملاحظ: أنّ هذه النزعة التدخلية قد اقتصرّت على حالات محدّدة دون سواها، حيث اتّخذ مجلس الأمن إجراءات ردعية ضدّ العراق فيما يتعلّق بمشكلة الأكراد، وتدخل هناك باسم حماية حقوق الإنسان والأقليات، بينما لم يحرك ساكناً لوقف أعمال الإبادة الجماعية في رواندا، والتي ذهب ضحيتها

(١) Paul Magnarella, "Explaining Rwanda's 1994 Genocide", Human Rights & Human Welfare, Vol. 2, No. 1, Winter 2002, p 25, Available at <http://www.du.edu/korbel/hrhw/pdf.1-magnarella2/1-2/volumes/2002>

كتب ستيوارت Stewart يقول: إن «اللامساواة في الوصول إلى الموارد أو الفرص السياسية والاقتصادية والاجتماعية بين الجماعات المختلفة، يمكن أن تؤثر سلباً على الرفاه الفردي والاستقرار الاجتماعي، لكن إذا تزامن هذا التفاوت في الحصول على الموارد والفرص مع وجود بعض الاختلافات الثقافية: فإن الثقافة تصبح عامل تبعية قوي لهذه الجماعات، وما يترتب عن ذلك من اضطرابات سياسية»^(١)، وأحسن مثال في هذا السياق: التراخي السياسي والإنسانية التي عرفتها رواندا، والتي وصلت إلى درجة التطهير العرقي.

إن تقاطع العوامل السابقة مع الضغوط التي تمارسها الديناميات الخاصة بالعملة؛ أدى إلى آثار هدامة على استقرار الدول الإفريقية، فباستثناء بعض الحالات^(٢): أدت الضغوط باتجاه الديمقراطية إلى انعكاس التناقضات العرقية التي كانت قد خدتها الحرب الباردة، بينما عمقت برامج الإصلاح الاقتصادي Economic reform programs المفروضة، وعمليات التحرير Liberalization التي صاحبها، من الأزمة الاقتصادية في إفريقيا، على نحو سارع في عملية إجهاد المشروع الديمقراطي، وإغراق القارة في مستنقع من الصراعات والحروب الأهلية.

ثانياً: تحول الحرب: بحث في خصائص الحروب الجديدة في إفريقيا:

تجمع العديد من الطروحات التفسيرية على تغير طبيعة الحرب، وظهور أنماط جديدة من العنف المنظم Organized Violence منذ العقدين الأخيرين من القرن العشرين، خصوصاً في إفريقيا، ومن أبرز ملامح هذا التغير: تراجع الحروب بين الدول مقابل انفجار عددها داخل الدول.

وإذا استعرنا عبارات ماري كالدور Mary Kaldor: فإننا

نشهد «نهاية الحرب التقليدية بين الدول»، غير أن ذلك لا يعني نهاية العنف، بل إنه اتخذ أشكالاً مختلفة عن حروب القرن العشرين^(٣)، وهنا نجد أن طبيعة الحروب المعاصرة وخصائصها كانت مثار جدل فكري ونقاشات واسعة في السنوات الأخيرة، ميدانها حقل دراسات الحرب والسلام، ولا سيما ما تعلق بالفروق النوعية بين «الحروب القديمة» و «الحروب الجديدة».

وعلى الرغم من تباين المرجعيات التي اعتمد عليها أغلب منظرى الحروب الجديدة؛ فإنهم يتفقون- بشكل عام- على أنها تختلف من حيث الكم والكيف عن الأنماط التقليدية السابقة للحرب بين الدول، ما يعكس الحاجة إلى تطوير إطار تفسيري جديد لها، يتجاوز التوصيف الكلاسيكي للحروب الدولية الذي أدركته تحولات عميقة في عصر العولمة، وقد تجلّى ذلك أساساً من خلال أعمال مارتن فان كريفلد Martin Van Creveld، وروبرت كابلان Robert D. Kaplan، وكالفي هولستي Kalevi J. Holsti، بينما قدّمت ماري كالدور^(٤)، في مؤلفها الموسوم: (الحروب الجديدة والقديمة: العنف المنظم في عصر العولمة)، أكثر النماذج التحليلية شمولاً للحروب الجديدة، التي تختلف- من وجهة نظرها- عن الحروب القديمة، سواء من حيث الفواعل Actors، أو الأهداف Goals، أو الأساليب Methods، أو طرق التمويل Forms of Finance.

إن الحروب الجديدة، حسب كالدور، هي حروب عصر العولمة، التي تحدث عادة في المناطق التي ضعفت فيها الدول التسلطية إلى حد كبير نتيجة لانتهاجها على باقي العالم، وفي ظل مثل هذه الظروف تنهار الحدود الفاصلة بين «الدولة» و «غير الدولة»، بين العام والخاص، بين الخارجي والداخلي، بين الاقتصادي والسياسي، وحتى بين الحرب والسلام، وعلاوة على ذلك؛ فإن انهيار هذه الفروق الثنائية يعد سبباً ونتيجة للعنف في الوقت نفسه^(٥).

ثانياً: تحول الحرب: بحث في خصائص الحروب الجديدة في إفريقيا:

تجمع العديد من الطروحات التفسيرية على تغير طبيعة الحرب، وظهور أنماط جديدة من العنف المنظم Organized Violence منذ العقدين الأخيرين من القرن العشرين، خصوصاً في إفريقيا، ومن أبرز ملامح هذا التغير: تراجع الحروب بين الدول مقابل انفجار عددها داخل الدول.

وإذا استعرنا عبارات ماري كالدور Mary Kaldor: فإننا

(١) Frances Stewart, "Horizontal Inequalities: A Neglected Dimension of Development", Working Paper No. 81, University of Oxford: Queen Elizabeth House QEH Working Paper Series, February 2002, p 3, Available at <http://www3.qeh.ox.ac.uk/pdf/qehwp/qehwps81.pdf>

(٢) خذ على سبيل المثال: تجربة جنوب إفريقيا مع الديمقراطية التوافقية Consociational Democracy التي نجحت في إرساء أسس حكم ديمقراطي قائم على تقاسم السلطة، وإشراك جميع الأعراق والإثنيات المكونة للمجتمع في عملية صنع القرار، وهو ما شكل قاعدة صلبة لاستقرارها السياسي.

(٣) Mary Kaldor, "Wanted: Global Politics", The Nation, November 5, 2001, Available at <https://www.thenation.com/article/wanted-global-politics/>

(٤) Mary Kaldor, New and Old Wars: Organized Violence in a Global Era, 1st ed, Cambridge: Polity Press, 1999.

(٥) Idem

المثال: فإن قرابة ٩ من أصل ١٠ أشخاص أُصيبوا أو قُتلوا خلال الحرب من المدنيين، وذلك نظراً لضعف هيكل الدولة، وتورط عدد من الفواعل الدولية وغير الدولية في الحرب، الأمر الذي أدى إلى عملية خصخصة للعنف.

فالأطراف الرئيسية في الحروب الجديدة لم تعد تقتصر على القوات المسلحة النظامية، وإنما تضم مجموعة واسعة من المتمردين، وشركات الأمن الخاصة، والمترتبة الأجانب، وأمرء الحرب المحليين، والعصابات الإجرامية التي تتحدى سلطة الدولة، فضلاً عن الجيوش النظامية، بشكل يرفع من حدة العنف وهمجته، واحتمالات الإفلات التام من العقاب، لأن الأطراف المتحاربة لا تحكها أيّة قواعد للسلوك خلال الحرب.

فالحروب الجديدة التي حطمت النظام المؤسس للدولة، بمعنى الاحتكار الفعلي للعنف المشروع، هي من دون شك: حروب تقع -تماماً- خارج إطار اتفاقيات جنيف الحامية للمدنيين، فقد بات استهداف المدنيين، وتدمير البنية التحتية للدولة، وليس الأهداف العسكرية، ضمن الغايات الأساسية للحرب، وهذا محددٌ مركزيٌّ جداً لفهم الحروب الجديدة.

٢ - الحروب الجديدة: حروب لامتالية:

تشكل أساليب الحروب الجديدة - في الواقع - إحدى أهم خصائصها المميزة، وتغلب عليها تقنيات حرب العصابات Guerrilla Warfare، وقد تم استحداث هذا النمط من أجل تفتيت الحاجة إلى التركيز الكبير للقوات المسلحة الذي طبع الحروب القديمة؛ لأن حرب العصابات لا تقتصر على ساحة المعركة، وإنما تمتد إلى مناطق كثيرة.

ويستتبع ذلك ضمناً: أنّ المجال المكاني للحروب الجديدة أيضاً ليس محصوراً بميدان المعركة، ولذلك فإن فكرة كلاوزفيتز Clausewitz عن مركز ثقل أو مركز جاذبية الحرب^(٢) The Center of Gravity of War فقدت مصداقيتها في تحليل الحروب الجديدة، التي يمكن أن تندلع في أنحاء متفرقة من الدولة، سواء المدن، القرى، المدارس، دور العبادة، الفضاءات

p 11, Available at
http://www.dtic.mil/dtic/tr/fulltext/u2/a372860.
pdf

(٣) تتمحور هذه الفكرة حول افتراض وجود مواقع أساسية ترتكز عليها فعالية المنظومة العسكرية، وأن استهدافها بنجاح يؤدي إلى انهيار كلي في صفوف القوة العسكرية للعدو، وقد عرفها كلاوزفيتز بأنها: القطب الذي تتبع منه كل مصادر الحركة والقوة.

ويمكن أن تتعارض خصائص «الحروب الجديدة» مع خصائص «الحروب القديمة» على عدد من المستويات المختلفة:

١ - الحروب الجديدة: حروب قائمة على الهوية Identity-based wars

تستند الحروب الجديدة، بشكل أساسي، على دوافع تتعلق بالهوية: (الإثنية، الدينية، القبلية)، وذلك خلافاً للحروب القديمة التي قامت من أجل مصالح جيوسياسية أو أيديولوجية (الديمقراطية أو الاشتراكية)، ولسياسات الهوية منطبقاً مختلفاً عن الأهداف الجيوسياسية أو الأيديولوجية؛ لأنها تسعى إلى تحقيق المصالح الضيقة لجماعات معينة، بدلاً من تبني سياسات أو برامج تركز على متابعة المصلحة العامة في معناها الأوسع^(١).

٢ - تآكل احتكار الدولة الفعلي للعنف المشروع:

لم تقتصر التأثيرات الواسعة للعولمة على إضعاف قدرة الحكم في بعض الدول الإفريقية فحسب، بل أدت في الحالات القصوى إلى انهيار الدولة وخصخصة الأمن.

ويعد ضعف الدولة أو فشلها السمة العامة الأساسية المميزة للحروب الجديدة، ويربط عدد من الدارسين هذا الفشل بالتآكل التدريجي لقدرة الدولة على احتكار وسائل العنف، وعندما تفقد الدولة هذه القدرة يصبح العنف أسلوباً للحياة، وما يترتب عنه من نتائج خطيرة على سلامة المدنيين ورفاهيتهم، حيث أصبح التمييز بين المقاتلين وغير المقاتلين، في سياق الحروب الجديدة، غير واضح على نحو متزايد.

ففي الحروب القديمة: التي تحوّلها الجيوش النظامية للدول؛ كانت ساحة الفصل بينها هي ميدان المعركة، وطريقة إعلان الحرب هي: احتلال الأقاليم بالوسائل العسكرية، مع وضوح الحدود بين الجنود والسكان المدنيين.

أما في الحروب الجديدة: فإن المعارك نادرة الحدوث، ويتم توجيه معظم أعمال العنف بصورة كبيرة ضد المدنيين بدلاً من الجيوش العدو، قرابة ٩٠٪ من ضحايا الحروب الجديدة هم من غير المقاتلين، مقارنة بأقل من ١٥٪ في مطلع القرن العشرين^(٢)، ولو أخذنا «الحرب الأهلية الصومالية» على سبيل

(١) Idem.

(٢) Carnegie Commission on Preventing Deadly Conflict, "Preventing Deadly Conflict", Final Report, Washington, DC: Carnegie Commission on Preventing Deadly Conflict, December 1997.

العامّة إجمالاً، لأنّ هدف المقاتلين هو إطالة أمد الحرب ومواصلة العنف، وهنا نكون أقرب إلى حروب الاستنزاف، حين يصبح الصمود أكثر أهمية من النصر العسكري، بينما يتمّ تحقيق الفوز في الحرب من خلال الإنهاك النفسي للعدوّ، وأصبحت عمليات الإبادة الجماعية، والتطهير العرقي، والمذابح، وحوادث القتل الوحشية، والاعتصاب المنظم، والعنف الجنسي، والتّهجير الإجباري، وسائل رئيسية؛ يؤسّس من خلالها أمراء الحروب الجديدة سيطرتهم السياسية، فضلاً عن التّجنيد القسريّ للأطفال على نطاق واسع، حيث تشير التّقدّرات إلى وجود قرابة ٢٠٠,٠٠٠ طفل دون سنّ الثامنة عشرة بين ذكور وإناث، تمّ تجنيدهم في جيوش المتمرّدين، فواعل رئيسة في الحروب الجديدة؛ لأنهم أقلّ تكلفة، وأسهل للتّجنيد من القوّات النظامية، والأهمّ من ذلك أنّهم أسهل لإبقائهم تحت السيطرة^(١).

٤ - الاقتصاد السياسي للحروب الجديدة Political Economy of New Wars

تؤكّد أدبيات الحروب الجديدة على دور العامل الاقتصادي بوصفه متغيّراً تفسيرياً مهماً لفهمّ ديناميات حروب عصر العولمة، ومع أنّ اقتصاديات الحرب ليست ظاهرة جديدة؛ فإنّ العولمة أوجدت نمطاً جديداً من الاقتصاد السياسي المرتبط بالحروب الجديدة، ففي حين قام اقتصاد الحروب القديمة على تعبئة الإنتاج وتخصيصه لدعم المجهود الحربي، عبر مجموعة من الإجراءات، مثل زيادة معدّلات الضرائب، نجد أنّ هذه الإيرادات الضريبية قد تراجعت، ففي إطار اقتصاد الحرب المعلوم The Globalized War Economy، لصالح أشكال جديدة من التّمويل الخاص، وتشمل أعمال السلب والنهب، والسوق السوداء، والمساعدات الإنسانية، ودعم الشّتات، وعمليات الخطف، وتهريب المخدّرات والبشر، والاتجار غير المشروع في الموارد الأوّلية الخام القابلة للتبادل، مقابل الحصول على الأسلحة، سواء تعلق الأمر بالأخشاب أو الألماس أو النّفط، والذي ينطوي على بُعد دولي عميق، وله ارتباطاته بشبكات التّجارة العالمية، كما هو الحال في أنغولا مثلاً، حيث مارس كل من الحكومة والحركات المتمرّدة عمليات اتجار غير مشروعة بالألماس والنّفط، وفي جمهورية الكونغو الديمقراطية؛ تحصّلت الميليشيات الخاصة التابعة للرئيس الأسبق دينيس ساسو نغيسو Denis Sassou Nguesso على جزء من

تمويلها خلال الحرب الأهلية عام ١٩٩٧م من بيع حقوق استغلال احتياطيات النّفط، وضمن السّياق نفسه؛ جمع تشارلز تايلور Charles Taylor زعيم الحرب الليبيري ٤٠٠ مليون دولار في السنة الواحدة خلال الحرب الأهلية التي استمرت من ١٩٩٢م وحتى عام ١٩٩٦م، أي أنّ الحرب أصبحت مؤسّسة اقتصادية مربحة، فمن خلال خلق جماعات لها مصالح اقتصادية في الإبقاء على حالة الحرب؛ أصبح العنف - في حدّ ذاته - هدفاً للحروب الجديدة، حيث يعتمد الحفاظ على مصادر الدخّل على استمرار العنف، وبالنتيجة؛ فإنّ الاقتصاد السياسي للحروب الجديدة يعمل على تعزيز نظم العنف الممنهج واستدامتها. ومن وجهة نظر كالدور؛ على الرغم من الاتّجاه، في بعض الأحيان، نحو تبرير دوافع الحروب الجديدة بالمكاسب الاقتصادية، إلا أنه من الصّعب جدّاً التّمييز بين أولئك الذين يستخدمون غطاء العنف السياسي لأسباب اقتصادية، وأولئك الذين ينخرطون في الأنشطة الاقتصادية لتمويل قضيتهم أو مشروعهم السياسي^(٢).

ثالثاً: الحروب الإفريقية الجديدة: حروب محلية، وأبعاد عابرة لحدود الدول؛

أدى فشل «الدولة الإفريقية» في أدائها الوظيفي إلى انحسار شرعيتها لدى الجماعات المكوّنة لها، وفي الحالات القصوى إلى استقالة الدولة، أي بروز أنماط متعدّدة لضبط السياسي والاجتماعي بعيداً عن الدولة، وفي هذا الإطار يقول جاكسون Jackson: إنّ السياسة الهشة قابلة للاختراق، ولذلك من السهل جدّاً تحويل القضايا الداخلية في مجتمعات العالم الثالث إلى قضايا دولية، وقياساً على ذلك؛ فإنّ كلّ حرب داخلية تخلق الطلب على التدخل الخارجي، فالحروب الجديدة هي حروب ذات طابع محليّ تخصّ دولة معينة، لكنها غالباً ما تتخذ بُعداً إقليمياً أو دولياً بفعل عامل الانتشار Spillover، ومن ثمّ لا يكفي التركيز على المحدّدات المحلية للعنف Domestic Determinants of Violence فقط عند دراسة حروب عصر العولمة، وإنما يجب الاهتمام بالعمليات العابرة للحدود Transnational Processes، والتي يتمّ من خلالها امتداد خطر الحرب إلى دول الجوار الإقليمي، وتشمل:

(٢) Mary Kaldor, "In Defence of New Wars", (٢) Op.cit., p 3

(١) Patrick A. Mello, Op. cit., p 3 -

١ - حركة المتمردين واللاجئين عبر الحدود:

أسفرت أعمال العنف الممنهج أو المنظم الموجهة أساساً ضد السكان المدنيين، باعتبارها السمة الأكثر بروزاً للحروب الجديدة، عن تضخم نسب النزوح القسري Forced Displacement. بما في ذلك: أعداد اللاجئين Refugees، وطالبو اللجوء Asylum-seekers، والنازحون داخلياً Internally displaced persons الفارون من جحيم الموت، حيث تشير إحصائيات المفوضية السامية لشؤون اللاجئين التابعة للأمم المتحدة إلى وجود ١٦,١ مليون لاجئ حول العالم نهاية عام ٢٠١٥م.

وتضم منطقة إفريقيا جنوب الصحراء أكبر تجمع للاجئين بنحو ٤,٤ ملايين شخص، ينحدر معظمهم من خمس دول رئيسية، هي: (الصومال، جنوب السودان، جمهورية الكونغو الديمقراطية، السودان، وجمهورية إفريقيا الوسطى)، إذ قدر عددهم بنحو ٣,٥ مليون لاجئ مع نهاية عام ٢٠١٥م، أي ما يعادل ٨٠٪ من إجمالي اللاجئين بهذه المنطقة^(١).

وتشكل تدفقات اللاجئين إلى دول الجوار الإقليمي عاملاً قوياً لعدم الاستقرار، سواء في الدول المصدرة أو المضيفة، وذلك من خلال نوعين من الآليات على الأقل، فمن جهة: تعد موجات اللاجئين إرهاباً لحالة من عدم الاستقرار السوسيو-سياسي، خصوصاً إذا كانت تركيبتهم الإثنية أو العرقية أو الدينية مختلفة عنها في الدولة المضيفة، حيث يمكن للاجئين في هذه الحالة تغيير التوزيع السكاني، بشكل قد يؤدي إلى الإخلال بميزان القوة السياسية بين الجماعات المتعايشة أصلاً عند الحد الأدنى من مستويات التوافق السياسي.

ومن جهة أخرى: يفرض التدفق الكبير للاجئين جملة من التحديات السوسيو-اقتصادية على الدولة المضيفة، ما يؤدي إلى ارتفاع حدة التوتر في المجتمع المضيف الذي يطالب حكومته بضرورة الحد من تحويل النفقات العامة للاستجابة لتدفقات اللاجئين^(٢)، أو حتى تعليق حق اللجوء.

وبالمقابل: يتخذ المتمرّدون من مخيمات اللاجئين قواعد خلفية لشنّ عملياتهم العسكرية ضد بلدانهم الأصلية، الأمر

الذي يؤثر سلباً في العلاقات الثنائية بين دول الملجأ ودول المنشأ، فهذه الأخيرة كثيراً ما تتهم الأولى بتوفير ملاذ آمن للجماعات المتمردة التي تتشظ ضد حكومتها الرسمية، فمثلاً: قام أفراد من اللاجئين التوتسي الروانديين بالسلح في أوغندا، وتشكيل الجبهة الوطنية الرواندية التي نفذت هجماتها على رواندا انطلاقاً من الأراضي الأوغندية، وبلغت مشارف العاصمة كيغالي، قبل أن تتراجع بسبب الدعم الذي قدمته كل من فرنسا والكونغو إلى حلفائهما في الحكومة الرواندية.

لكن: قد ترى حكومة الدولة المضيفة، في الوقت نفسه، أن الحفاظ على قواعد المتمردين على إقليمها لا يتفق مع أهداف سياستها الخارجية، الأمر الذي يدفعهم إلى تبني مواقف متشددة ضدها، تشكل تهديداً موضوعياً لأمنها القومي، فعلى سبيل المثال: أنشأ بعض اللاجئين التوتسي القادمين من رواندا تنظيمات سياسية تتشظ في معارضة نظام الرئيس ميلتون أوبوت Milton Obote في أوغندا، كما شهدت جمهورية الكونغو الديمقراطية تصعيداً عنيفاً للتوترات العرقية في شرق البلاد نتيجة التدفق الواسع للاجئين جراء استمرار الحرب الأهلية في رواندا.

٢ - التضامانات العابرة للحدود:

لم تكن التقسيمات الجغرافية للسيادة متقمة مع الحدود الثقافية للجماعات، وهنا يبرز دور جماعات الشتات Diaspora، أو الجماعات ذات القرابة العرقية على حدود الدول، في تدويل الصراع المسلح الداخلي، وهي كيانات سوسيو-سياسية نشأت نتيجة للهجرة القسرية، ينتمي أفرادها إلى نفس الأصل الإثني أو القومي، ويقومون بشكل دائم بصفتهم أقليات في دولة مضيفة أو أكثر، ويحافظون على اتصالات منتظمة مع وطنهم الأم، ومع الأفراد والجماعات من نفس الخلفية المقيمين في بلدان مضيفة أخرى^(٣)، ولذلك: فإن اندلاع العنف في دولة ما له انعكاسات في دول أخرى، من خلال منطلق العدوى Contagion، أو عملية التبعية التي تتم في الدول المجاورة لدى القومية نفسها، فعلى الرغم من انتشار هذه الجماعات عبر الحدود: فإنها تتقاسم الإحساس نفسه بالهوية المشتركة Shared Identity، وإذا أضفنا إلى ذلك صعوبة اندماجها في المجتمعات المضيفة: فإنه

(١) United Nations High Commissioner for Refugees (UNHCR), "Global Trends: Forced Displacement in 2015", Geneva: UNHCR, 2016, p 14, Available at: <http://www.unhcr.org/576408cd7.pdf>

(٢) Idem.

(٣) Gabriel Sheffer, Diaspora Politics: At Home (٢) Abroad, 1st ed, Cambridge: Cambridge University Press, 2003, pp 9- 10

يصبح من الشرعيّ القول بدورها في التّحريض على العنف، ويتمثل الأساس المنطقي لهذه النتيجة في أنّ وجود أعضاء هذه الجماعات عبر الحدود يعني توفير قاعدة دعم أكبر للتمرد العرقي، من خلال ضلوعها في عمليات تهريب للأموال، والأسلحة، والمواد الخام، والمخدرات، والبشر، والسِّلَع بين مناطق الصّراع والأسواق العالمية، والتي تشكّل عنصراً مهماً لاقتصاد الحرب.

وقد مارست هذه الجماعات دوراً في استمرار الحرب الأهلية في الصومال، والصّراع في دارفور، من خلال دعم الأطراف المتحاربة مالياً ومادياً.

٣- التّدخل الخارجي:

تؤدّي الأطراف الثالثة Third Parties، مهما كانت طبيعتها، دوراً أساسياً في تشكيل ديناميات الحرب، فمن خلال توفير قدرة إضافية لأحد أطراف الصّراع في صورة تمويل، أو أسلحة، أو تدريب، أو غيرها من أشكال الدّعم، يمكن للمساعدة الخارجية External Assistance إحداث تغيير جذريّ في علاقات القوة بين الجماعات المتحاربة.

وقد ورد في تقرير لمؤسسة راند RAND Corporation حول كيفية إنهاء التمردات المسلّحة: أنّ طبيعة الدّعم الخارجي External Support وانتظامه؛ يعدّ - في كثير من الأحيان - متغيّراً حاسماً في تحديد مخرجات الحروب الأهلية^(١).

غير أنّ الوقائع الميدانية تؤكّد أنه: عندما لا تؤدّي التّدخلات الخارجية في الصّراعات الداخلية إلى تحقيق نصر عسكريّ سريع؛ فإنه من المرجّح تصعيد حدّة العنف المسلّح، وإطالة أمد الصّراع بمرور الزمن، وما يرافقه من احتمالات اتّساع نطاق العنف الداخلي، وتحوّله إلى حرب إقليمية ممتدّة، وهو ما يدفعنا إلى القول بقيام علاقة سببية موجبة بين التّدخل الخارجي وتفاقم العنف الداخلي؛ لأنّ إرساء السّلام يتوقف في النهاية على دوافع الأطراف المتدخّلة التي لا تخلو من النّزعة البراغماتية، ومدى فعالية المبادرات الاقتصادية، أو الدبلوماسية، أو العسكرية التي تطرحها.

ويمكن هنا الاستشهاد بالصّراع في جمهورية الكونغو الديمقراطية الذي لم يؤدّ إلى تثبيت مسار تطورها السياسي والاقتصاديّ فحسب، وإنما استقطب أغلب الدول المجاورة لما اعتبر «أكبر حرب في إفريقيا»، من خلال انخراط سبع دول إقليمية على الأقل، سواء لدعم حكومة كابيلا Kabila أو الحركات التمردية، منها: (أنغولا، ناميبيا، زيمبابوي، أوغندا، ورواندا). وتتبع دوافع هذه الدول للتّدخل في الصّراع الكونغولي من منطقتين: أولهما اقتصادي؛ بهدف وضع اليد على الثروات المعدنية في شرق الكونغو، ولا سيما النحاس، والكوبالت، والكولتان، والذهب، والألماس، والتصدير. أما المنطق الثاني؛ فهو الانشغالات الأمنية المتمثلة أساساً في تفكيك معسكرات تدريب المتمردين الروانديين والأوغنديين في شرق الكونغو وتجميد نشاطهم، الذي ضاعف من التوتّرات السياسية على المحور: كشاسا- كيغالي- كمبالا.

الخاتمة:

شهد العقدان الأخيران من القرن الماضي ظهور نمط جديد من الحروب في إفريقيا، باعتباره أحد مظاهر عصر العولمة، أدّى إلى إحداث القطيعة مع المنطق الكلاوزفيتزي القديم للحرب. وتختلف الحروب الجديدة عن الحروب القديمة التي سادت في القرنين التاسع عشر والعشرين، سواء من حيث الفواعل، أو الأهداف، أو الأساليب، أو طرق التّمول، وتحدث عادةً نتيجة لتآكل شرعية الدولة وانهيار قدرتها على الاحتكار الفعليّ للعنف المشروع، فالحرب في التّصور الكلاسيكي هي: عنف تظّمه الدول في إطار الجيوش النّظامية، لكن في سياق الحروب الجديدة أصبح العنف خارجاً عن السّيطرة، نظراً لتورط مجموعة واسعة من الفواعل الحكومية وغير الحكومية، فعندما تعجز الدولة عن أداء وظيفتها الأساسية المتمثلة في توفير الحد الأدنى من الأمن لمواطنيها، يلجأ كلّ فرد للاحتماء بسلاحه ضماناً لسلامته، على نحو يوسّع من نطاق العنف وهجميته، ما يعني استحالة احتواء رقعة الحروب الإفريقية، بما يمنح امتدادها، فتحوّلت إلى حروب تطهير عرقي، وأزمات إنسانية ممتدّة باهظة التكاليف بالنسبة للدول المعنية والمجتمع الدولي على المدى الطويل.

إنّ القيام بعملية إعادة بناء شرعية «الدولة الإفريقية» يعدّ مدخلاً جيّداً للسيطرة على العنف، وذلك من خلال اعتماد الشّرع الدستورية، والمأسسة، وسيادة حكم القانون، بوصفها مرجعيةً وحيدةً لممارسة السّلطة، بما يجعل من «الدولة الإفريقية» - من جديد - تعبيراً عن إرادة جماعية، وفضاء حقيقيّ للعيش المشترك ■

(١) Patricia L. Sullivan, Johannes Karreth, "The conditional impact of military intervention on internal armed conflict outcomes", Conflict Management and Peace Science, Vol. 32, No. 3, July 2015, pp 269- 288, Available at: <http://www.jkarreth.net/files/sullivan.karreth.2015.pdf>



فيديل كاسترو وإفريقيا.. الشيوعية أم الإمبريالية؟

أ. يحيى بوزيدي

أستاذ مساعد بكلية الحقوق والعلوم السياسية -
جامعة سيدي بلعباس - الجزائر



هذه الصورة لفيدل كاسترو الزعيم التحرري تقابلها صورة أخرى مناقضة لها؛ لا تختلف كثيراً

استطاع الزعيم الكوبي «فيدل كاسترو»

صناعة اسم عالمي له من خلال

كفاحه ضد الاستعمار والإمبريالية، ولعل وجود

بلاده على مرمى حجر من الولايات المتحدة،

وصموده ضد كل مخططات اغتياله والمحاولات

الانقلابية، ساهم في هذا الاعتقاد^(١).

رُفعت السرية عنها، أعدّه مدير مكتب الشؤون التاريخية التابع لمجلس الدولة، بيدرو ألفاريز-تابيو، يذكر بأنه: حتى ١٩٩٣م كانت هيئات أمن الدولة الكوبية قد اكتشفت وحيدت ما مجموعه: ٦٢٧ محاولة لاغتيال القائد العام فيدل كاسترو. انظر: فيدل كاسترو، الطغيان العالمي، موقع تأملات القائد العام، ٢٠٠٧/٠٧/٠٧م:

<http://www.cuba.cu/gobierno/reflexiones/2007/ara/f070707b.html>

(١) في مشروع كتاب، يحتوي على تحليل مفصّل للوثائق التي

عن نظرائه من زعماء العالم الثالث بشكلٍ خاص، والمعسكر الاشتراكيّ بشكلٍ عام، وهي صورة الحاكم المستبد المتسلط، الذي مكث في أعلى هرم السلطة لفترةٍ طويلةٍ تجاوزت أربعة عقود، بنى خلالها مجداً عالمياً له، لكن على حساب شعبه الذي ما زال يريزح تحت الفقر والتسلط والديكتاتورية.

وبرغم المساحة الصغيرة لبلده؛ فإن رؤيته ونضاله، إلى جانب رفيقه «أرنستو تشي غيفارا Ernesto «Che» Guevara»^(١)، امتد إلى كل أمريكا اللاتينية، ومنها إلى آسيا وإفريقيا.

وفي القارة السمراء؛ شارك فيدل كاسترو في الكثير من أحداثها، وارتبط اسمه بكل زعمائها، وفي مقدمتهم الزعيم الجنوب إفريقي نيلسون منديلا، غير أن دور كوبا في النزاعات الإفريقية تعثره سلبيات كثيرة، ولم يكن بالصورة الطوبوية (المثالية) التي يتم تداولها إعلامياً.

فيدل كاسترو.. الأيديولوجيا حتى الرمق الأخير؛

وُلد الزعيم الكوبي «فيدل أليهاندر كاسترو Fidel Alejandro Castro» بإقليم بيران، في المنطقة الشرقية من كوبا، يوم ١٣ أغسطس ١٩٢٦م، لأسرة ثرية من ملاك الأراضي. تلقى تعليمه في المدارس الكاثوليكية، وكان مجداً في دراسته، ومُنح لقب «أفضل رياضي» وهو شاب عام ١٩٤٤م، ثم تخرّج في جامعة هافانا في ١٩٥٠م؛ بعد حصوله على درجة الدكتوراه في القانون^(٢).

مارس كاسترو مهنة المحاماة لعامين، وخطط

للترشح لمقعد في البرلمان الكوبي عام ١٩٥٢م، لكن الإطاحة بحكومة «كارلوس بريو ساكاراس» على يد «فولغنسيو باتيستا» أرغته على عدم الترشح، وبعد ١٩٥٢م حمل السلاح ضدّ نظام «باتيستا» بعد رفض دعواه القضائية التي اتهمه فيها بانتهاك الدستور، وقاد هجوماً فاشلاً على ثكنات «مونكادا» العسكرية في سانتياغو دي كوبا، وسُجن، ثم عُفي عنه بعد عامين.

عاش في منفىٍ اختياريّ بالولايات المتحدة والمكسيك لمدة عامين، ثم عاد لكوبا في ١٩٥٦م على رأس مجموعةٍ قليلةٍ من المتمردين، أطلقت على نفسها: «حركة ٢٦ يوليو»، وانضمّ إلى الزعيم الثوريّ «أرنست تشي غيفارا»، وأطاح في ١٩٥٩م بحكم باتيستا الديكتاتوري^(٣).

تمسك كاسترو خلال نضاله السياسيّ وحكمه بما اعتبره ثوابت متسقة مع قناعاته الأيديولوجية والعقائدية، وإن عدلّ أحياناً في التكتيكات، وإنحنى أحياناً أخرى للرياح العاصفة، ولكن بشكلٍ مؤقتٍ لا يلبث أن يعود بعده إلى المسار المحدد سلفاً، فصمد أمام ضغوطٍ كثيرة، متصاعدة أحياناً ومتنوعة أحياناً أخرى وخائفة أحياناً ثالثة، على مدار أكثر من ستة عقود من النضال والثورة ثمّ قيادة الدولة في كوبا، منذ بداية نضاله السياسي، وحتى اعتزاله العمل السياسي في مطلع ٢٠٠٨م^(٤).

ومع انتهاء الحرب الباردة لم تتخل كوبا عن توجهاتها الفكرية، كما لو أنّ التاريخ ثابت لم يراوح مكانه^(٥)؛ إذ واجه كاسترو ٤٥ عاماً من الحصار

(٣) فيدل كاسترو، الجزيرة نت، المرجع السابق.

(٤) وليد محمود عبد الناصر: فيدل كاسترو.. آخر الأساطير في عالمنا، جريدة الحياة، ٢٠٠٢/١٢/٢٠م: <http://www.alhayat.com/Opinion/Writers/18849528>

(٥) جورج فريدمان: الانفتاح المحكوم.. أي مسار محتمل للعلاقات الأمريكية-الكوبية؟، مجلة السياسة الدولية،

(١) أرنستو تشي جيفارا: ثوري كوبي ماركسي، أرجنتيني المولد عام ١٩٢٨م، وهو طبيب، وكاتب، وزعيم، وقائد عسكري، ورجل دولة عالمي، وشخصية رئيسية في الثورة الكوبية.

(٢) فيدل كاسترو، الجزيرة نت، ٢٥/٠٨/٢٠٠٧م: <http://www.aljazeera.net/specialfiles/422f-acf0-7db6-pages/760e57692d03bd06bd4e>

والاشتراكية، ومهاجمة الرأسمالية، حتى بعد خروجه من السلطة في كوبا.

البيدق.. الصغار في حلبة الصراع بين الكبار:

ينتمي فيدل كاسترو إلى جيل زعماء الحركة التحريرية الذين خاضوا معارك كبيرة مع القوى الاستعمارية؛ متسلحين بإيمانهم بالمبادئ التي يدافعون عنها، دون امتلاك عناصر تمكثهم من مجابهة الآلة العسكرية لخصومهم، فانخرط كاسترو في الصراع بين القوتين العالميتين، واضعاً جزيرة كوبا المجهولة في البحر الكاريبي في قلب خريطة العالم^(٢)، ساعده في ذلك جغرافيتها، حيث موقعها في المجال الحيوي الأمريكي، ودخولها في قلب الحرب الباردة، حيث كانت مسرحاً لأزمة كادت تنتهي بحرب عالمية ثالثة (أزمة خليج الخنازير).

رأى كاسترو في الثورة الكوبية جزءاً أساسياً من ثورات الجنوب على الاستعمار الغربي، وأن مصير أمريكا اللاتينية مرتبط بمصير كل الجنوب، فكان حليفاً لعبد الناصر العربي وسيكوتوري الغيني وماندبلا الإفريقي^(٣)، وجعل من «الثورة الكوبية» مثلاً للعديد من ثوار أمريكا اللاتينية أو إفريقيا أو آسيا^(٤)، لذلك قال عنه الزعيم السوفييتي السابق غورباتشوف: «في القرن العشرين فعل فيدل كاسترو كل شيء لتدمير النظام الاستعماري؛ من أجل إقامة علاقات مبنية على التعاون»^(٥).

(٢) عبد الباري عطوان: رحل آخر رجال جيل العظماء، رأي اليوم، ٢٦/١١/٢٠١٦م: <http://www.raialyoum.com/?p=570753>

(٣) سيف دعنا: فيدل كاسترو: الجنوبي الأخير، موقع قناة الميادين، ٢٦/١١/٢٠١٦م: <http://www.almayadeen.net/articles/opinion/47189>

(٤) وليد محمود عبد الناصر، المرجع السابق.

(٥) هكذا نعى العالم فيدل كاسترو، الشرق الأوسط، العدد

الاقتصادي الذي فرضته الولايات المتحدة على بلاده، واستمر نظامه حتى بعد أفول ثم سقوط الأنظمة الشيوعية في الاتحاد السوفييتي وأوروبا الشرقية، حيث نجح الزعيم الكوبي في الحفاظ على الأعلام الحمراء ترفرف أمام أبواب عدوه الأكبر: الولايات المتحدة الأمريكية^(١).

وبينما أضحت أولوية «الاقتصاد» عن «الأيدولوجيا» إحدى مسلمات السياسة الدولية في نهاية القرن العشرين وبداية القرن الحادي والعشرين، وحتى «روسيا» وريثة الاتحاد السوفييتي كوّنت محاولات إحياء إرثه والعودة إلى الساحة الدولية؛ من خلال ما اصطلح عليه بـ«أيدولوجية المصالح الوطنية»، غير أن فيدل كاسترو استمر على نهجه؛ مخيباً التوقعات التي روج لها الكثيرون من أن انهيار الاتحاد السوفييتي السابق وتفككه؛ سيرتب عليه تلقائياً انهيار التجربة الاشتراكية في كوبا، لكن نجحت كوبا في إيجاد مصادر بديلة من الدخل القومي بعد توقف المساعدات السوفييتية، كما نجحت في إيجاد مسارات بديلة؛ لم تبق فقط على حالة الصمود الكوبية، بل عززت وضع كوبا، وطنياً: بالاستثمار في قطاعي السياحة والصناعات الصغيرة والمتوسطة، وإقليمياً: باتساع رقعة اليسار الحاكم في القارة اللاتينية منذ مطلع الألفية الثالثة، وفي مقدمها فنزويلا بمواردها الاقتصادية الضخمة وشراكتها مع كوبا، وهذا ما أدى إلى عزل نسبي للولايات المتحدة عن تطورات القارة اللاتينية مقابل الإقرار بأهمية الدور الكوبي إقليمياً.

واستمر كاسترو في نضاله منذ منتصف القرن الماضي وحتى آخر نفس، وفي الدفاع عن الشيوعية

٢٠١٥/٠٢/٠٦م:

<http://www.siyassa.org.eg/NewsQ/5081.aspx>

(١) من هو فيدل كاسترو؟، بي بي سي عربي، ٢٦/١١/٢٠١٦م: <http://www.bbc.com/arabic/world-38114876>

رفضت مناقشة استقلال مستعمراتها الإفريقية في إطار الأمم المتحدة، وعندما سقط الحكم الديكتاتوري العسكري في البرتغال، الذي قاده «سالازار» في أبريل ١٩٧٤م، وافقت الحكومة البرتغالية الجديدة على استقلال غينيا بيساو في ١ سبتمبر ١٩٧٤م، ثمّ موزمبيق في ٢٥ يونيو ١٩٧٥م، وأنجولا في ١١ نوفمبر ١٩٧٥م، وتلا ذلك اندلاع حرب أهلية طويلة في أنجولا، ودخلت القوتان العظيمان في هذا الصراع الذي تحوّل إلى «حرب بالوكالة»^(٤).

وقد بدأ الانخراط الكوبي في القضايا الإفريقية مع دعم النضال التحرري الجزائري ضد فرنسا، ثمّ انتقل إلى الكونغو (زائير سابقاً)، وفي ١٩٦٤م أرسل كاسترو مبعوثه الشخصي «تشي غيفارا» في زيارة لثلاثة أشهر لعدد من البلدان الإفريقية، حيث كان يعتقد الكوبيون بوجود حالة ثورية في وسط إفريقيا، وأرادوا المساعدة في ذلك^(٥).

وبلغ الوجود العسكري الكوبي ٤٦ ألف جندي وخبير، موزعين على ١٤ دولة في إفريقيا، وتركز معظمهم في كل من أنجولا غرباً وإثيوبيا شرقاً^(٦)، ومع نهاية الحرب الباردة كان ٢٨١٤٢٢ على الأقل من الجنود والضباط الكوبيين حاربوا جنباً إلى جنب مع الجنود الأفارقة من أجل الاستقلال الوطني أو ضدّ العدوان الأجنبي، وفقد الكثير منهم حياتهم في هذه الحروب، ففي ١٩٨٧م ذكرت صحيفة لوس أنجلوس

ويرغم اعتماده على المساعدة الروسية؛ كان كاسترو أحد أعمدة حركة عدم الانحياز التي تأسست حديثاً في بدايات حكمه^(٧).

وعمل على نشر الثورات ودعمها في العالم الثالث، متحدثاً واشنطن، حتى الكرملين أحياناً، في وقت غادره رفيق سلاحه غيفارا للقيام بمهمةٍ مستحيلة في بوليفيا، لكنه قُتل عام ١٩٦٧م^(٨)، كان فيدل يريد من رفيق سلاحه أن يكون بطل تصدير الثورة الماركسية في أمريكا اللاتينية، وفي إفريقيا، وخصوصاً في أنجولا، وفي ١٩٧٥م؛ أرسل كاسترو قواته إلى ما وراء المحيط الأطلسي، في مغامرة إفريقية استمرت ١٥ عاماً، شاركت خلالها في معارك في أنجولا وإثيوبيا^(٩).

فيدل كاسترو وإفريقيا.. من الاستعمار إلى الإمبريالية؛

تزامنت الثورة الكوبية سنة ١٩٥٩م مع الموجة الثانية للاستقلال في إفريقيا، فحتى عام ١٩٦٥م اطرده تقلص الوجود الاستعماري، ووصل عدد الوحدات المستقلة إلى ٣٥، ولم يعد في القارة إلا ١٣ وحدة خاضعة للاستعمار أي قرابة ١٤٪.

ولقد ساهم في شرعنة الدور الكوبي في إفريقيا أنه جاء في مواجهة الاستعمار الخارجي، وبخاصة البرتغالي الذي يعدّ أول استعمار أتى للقارة، وآخر من تأثّر بالتحرير؛ إذ لم تعترف البرتغال بأن لها مستعمرات في إفريقيا، وإنما كانت تؤكد أنّ تلك المستعمرات هي: «البرتغال ما وراء البحار»، ومن ثمّ

(٤) محمد سيد سليم: تطور السياسة الدولية في القرنين التاسع عشر والعشرين، القاهرة: دار الفجر للنشر والتوزيع، ط١، ٢٠٠٢، ص ٥٤٢.

(٥) Sean Jacobs, To so many Africans, Fidel Castro is a hero. Here's why, theguardian, 2016/11/30, <https://www.theguardian.com/commentisfree/2016/nov/30/africa-fidel-castro-nelson-mandela-cuba>

(٦) صلاح الدين حافظ: صراع القوى العظمى حول القرن الإفريقي، الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون، سلسلة عالم المعرفة، العدد ٤٩، يناير ١٩٨٢، ص ١٢١.

٢٠١٦/١١/٢٦، ١٣٨٧٨

<http://aawsat.com/home/article/793411>

(١) فيدل كاسترو، الجزيرة نت، المرجع السابق.

(٢) فيدل كاسترو.. سيرة القرن العشرين، الجزيرة نت، ٢٠١٦/١١/٢٦

<http://www.aljazeera.net/news/reportsandintervi/26/11/ews/2016>

(٣) فيدل كاسترو.. سيرة القرن العشرين، المرجع السابق.

تايمز أن ١٠٠٠٠ جندي كوبي قُتلوا في أنجولا منذ ١٩٧٦م، وهذا أعلى بكثير من الوفيات الأمريكية في فيتنام^(١).

واستمر وفاء فيدل كاسترو لإفريقيا حتى بعد نهاية الحرب الباردة، حيث واصل دعمها، بتدريب الأفارقة في الجامعات الكوبية، وعندما تفشّى مرض الإيبولا في ثلاث دول إفريقية غربية؛ اضطر منتقو كوبا- الأمريكيون أنفسهم- إلى الإقرار بمساهمتها في التخفيف من الأزمة، ففي إحدى مراحلها، قدّمت كوبا، التي لا يتجاوز عدد سكانها ١١ مليوناً، أكبر مجموعة من العمال الطبيّين الأجانب، مقارنةً بأيّ دولة أخرى كانت تعمل إلى جانب الأطباء الأفارقة^(٢).

كوبا والتجاذبات القطبية في إفريقيا:

شكّلت أنجولا محور الوجود الكوبيّ في إفريقيا، ومنها امتدّ ليشمل كلّ إقليم جنوب إفريقيا، حيث ارتبط النزاع بمصير الأنظمة السياسية بالدول المجاورة، وبخاصّة نظام الفصل العنصريّ في جنوب إفريقيا الذي تدخل في دول الإقليم لإعاقة الحركة الاستقلالية فيه، وضمان استمراريته في مواجهة «مقاومة الحزب الوطني» التي اتخذت من تلك الدول قواعد خلفية في حريها معه.

ففي ناميبيا: قرّرت الأمم المتحدة في ١٩٦٦م إنهاء إدارة جنوب إفريقيا للإقليم، فرفضت الأخيرة القرار؛ ما أدى إلى تصعيد المقاومة التي قادتها المنظمة الشعبية لإفريقيا الجنوبية الغربية (سوابو)، وفي ديسمبر ١٩٨٨م انسحبت جنوب إفريقيا من ناميبيا؛ بعد أن حصلت على تعهدٍ بانسحاب القوات الكوبية من أنجولا^(٣)، فقد سبق أن استحضرت ناميبيا قوات كوبية، ساعدت قواتها على مقاومة «سافيمبي»

وجنوب إفريقيا^(٤).

وفي أنجولا: نشبت، فور انسحاب البرتغاليين في نوفمبر ١٩٧٥م، حربٌ أهليةٌ بين الحركة الشعبية لتحرير أنجولا mpla بقيادة أغوستينو نيتو، والجهة الوطنية لتحرير أنجولا fnla بقيادة روبرتو هولدن، والوحدة الوطنية للاستقلال الكامل لأنجولا unita بقيادة جوناثان سافيمبي، وبفضل تأييد منظمة الوحدة الإفريقية حظيت حكومة «الحركة الشعبية لتحرير أنجولا» بالاعتراف بها حكومةً شرعيةً لأنجولا.

وظلّ النزاع قائماً مع سيطرة قوى البيوتنا الثائرة بقيادة سافيمبي على أجزاء كبيرة من البلاد، إلى أن وقّع اتفاق وقف إطلاق النار في ٣١ ماي ١٩٩١م.

ولم يكن الاستعمار البرتغاليّ بمنأى عن تلك الصراعات، بل كان المحرك الأساسي لها، فقد تمثّلت المقاومة الحقيقية للاستعمار البرتغاليّ في الحركة الشعبية لتحرير أنجولا mpla، وعلى النقيض ظهر التحالف بين الإدارة الاستعمارية وبين قيادة جماعة أوفيمبونديو منذ بداية العمليات المسلحة لحركتيّ التحرير، لتشارك الجماعة بقوة في العمليات العسكرية بجانب القوات البرتغالية، ويرجع هذا التحالف للسنوات الأولى لدخول البرتغاليين لأنجولا، حيث كانت الجماعة أحد أهمّ الشركاء في تجارة الرقيق^(٥).

وفي السياق نفسه؛ بدأ التدخل الجنوب إفريقي قبل خروج الاستعمار البرتغالي من المنطقة؛ حيث وطدت الإدارة البرتغالية في المستعمرات الإفريقية تحالفها مع النظام العنصريّ في كلّ من جنوب إفريقيا وزيمبابوي (روديسيا الجنوبية آنذاك).

(٤) علي المزروعى وآخرون: إفريقيا منذ عام ١٩٣٥م، نيويورك: اليونيسكو، المجلد الثامن، ص ٣٠٤.

(٥) أحمد أمل محمد إمام: الإثنية والنظم الحزبية في إفريقيا، القاهرة: دار المكتب العربي للمعارف، ص ١٢٧.

(١) Sean Jacobs, Op.cit

(٢) Sean Jacobs, Op.cit

(٣) محمد سيد سليم، المرجع السابق، ص ٥٤٢.

وبذلك؛ كان الصراع مع جنوب إفريقيا امتداداً للصراع مع الاستعمار البرتغالي، فعشية استقلال أنجولا؛ انطلقت بعض القوَّات العنصريَّة من ناميبيا- المحتلة من قبل جنوب إفريقيا- مدعومة بدبابات خفيفة، واخترقت أكثر من ألف كم من ضواحي لواندا، لكنَّ كتيبة من كتائب القوات الخاصَّة الكوبية، تمَّ إرسالها جويًّا، وبعض تشكيلات من الدبابات السوفيتية، استطاعت احتواء الأمر^(١)، وبررت كوبا تدخلها بأنه كان ردًّا على جنوب إفريقيا.

وبدأ التدخل الكوبيّ في أنجولا، وتصارع عندما كانت المنظمة الشعبية mpla تكسب الأراضي، وكانت أول وفود الكوبيين تزيد عن ٢٠٠ مستشار، وصلوا قبل ظهور الجنوب إفريقيين، وكان هدفهم تدريب قوات المنظمة الماركسية على التكتيكات والتجهيزات السوفيتية.

واقترح كاسترو توسيعاً كبيراً للتدخل على بريجنيف، وعندما تردد الزعيم السوفييتي تابع كاسترو التدخل بمفرده، فبدأت تصل وحدات كوبية متتالية، بلغت في النهاية مستوى يزيد بمقدار عشرين مرة عن الانتشار الجنوب إفريقي^(٢).

وما عزَّز هذا الوضع الاصطفافات الدولية بين القوى المتصارعة لاحقاً، بوقوف الولايات المتحدة الأمريكية إلى جانب جنوب إفريقيا، وحشدتها دعم المستعمرين السابقين إلى جانبها.

القضاء على نظام التمييز العنصري: لم يبق الصراع «الكوبي-الجنوب إفريقي» محصوراً في

أنجولا وناميبيا، بل امتد حتى للنظام الجنوب إفريقي نفسه، فمع الحصار الدولي والمقاطعة السياسية والاقتصادية للنظام العنصري؛ ازدادت حدته، وأخذ يوغل في إجراءاته القمعية، وألقى في السجون بعدد كبير من رجال المقاومة، كان من بينهم نيلسون مانديلا، ما اضطر حركة المقاومة إلى حمل السلاح آخر الأمر.

وكانت كوبا رأس الحربة الأهم في القضاء على نظام التمييز العنصري، فكاسترو ورفاقه وأهل كوبا هم من كسروا عموده الفقري؛ حين حاربوه مباشرة لسنوات ودون يأس في أنجولا وناميبيا، حتى في جنوب إفريقيا نفسها، واستترفهوه^(٣)، وكانت أهم محطاته مشاركة الكوبيين في معركة كويتو كوانافالي المفصلية عام ١٩٨٨م.

وبعد انتصار الثورة، وإسقاط نظام التمييز العنصري (الأبارتهيد Apartheid) في ١٩٩١م، وخروج نيلسون مانديلا من السجن بعد ٢٧ عاماً من الحبس الانفرادي، وانتخابه رئيساً لبلاده، اختار الزعيم الإفريقي هافانا محطة أولى لجولته الخارجية، وقال مانديلا حينها: «صديقتنا كوبا، ساعدتنا على تدريب شعبنا، وزودتنا بسلاح مكثنا من المضي في نضالنا»، وأضاف: «خلال السنين التي أمضيتها في السجن كان فيدل كاسترو مصدراً للإلهام والصمود»^(٤)، وفي نهاية رحلته الكوبية أجاب مانديلا عن الانتقادات الأمريكية حول ولائه لكاسترو: «يجري نصحنا حول كوبا من قبل الذين دعموا نظام الفصل العنصري الـ ٤٠ سنة الأخيرة، لا رجل شريف أو امرأة على الإطلاق يمكن أن تقبل النصيحة من الذين لم يهتموا بنا في أصعب الأوقات»^(٥).

سبية ربيع: فيدل كاسترو يكتب عن الحدث في العلاقة بين كوبا وجنوب إفريقيا، أخبار الأدب، ٢٨/١٢/٢٠١٣م: <http://www.dar.akhbarelyom.com/issue/detailize.asp?mag=a&field=news&id=7480>

(١) سمية ربيع: فيدل كاسترو يكتب عن الحدث في العلاقة بين كوبا وجنوب إفريقيا، أخبار الأدب، ٢٨/١٢/٢٠١٣م: <http://www.dar.akhbarelyom.com/issue/detailize.asp?mag=a&field=news&id=7480>

(٢) هنري كيسنجر: سنوات التجديد، ترجمة هشام الدجاني، الرياض: مكتبة العبيكان، ط٢، ٢٠١٠م، ص ٧٣٤.

(٣) سيف دعنا، المرجع السابق.

(٤) عمر ناشبة، المرجع السابق.

(٥) Sean Jacobs, Op.cit

من الصومال إلى إثيوبيا.. فيدل كاسترو والأنظمة العسكرية في إفريقيا:

الدور الكوبي- مرة أخرى- في إثيوبيا:

برز الدور الكوبي في إثيوبيا مرة أخرى، ولكن في سياقٍ مختلفٍ بشكلٍ كبيرٍ عن الحالة الأنغولية، فالوضع الإثيوبي لم تكن فيه قوة استعمارية، باعتبار أن إثيوبيا من أوائل البلدان الإفريقية التي حصلت على استقلالها، لكنها خاضت غمار أكثر من حرب أهلية في الفترة من ١٩٦١م إلى ١٩٩١م^(١)، تمحور الصراع فيها حول انفصال الصومال وإريتريا عنها. كان الاتحاد السوفييتي ضد سياسات الإمبراطورية الإثيوبية في كبت حرية الصوماليين والإريتريين، وحرمانهم من حق تقرير مصيرهم، فساند حركة التحرر الإريتري والكفاح الصومالي المطالبة باستعادة أراضيها الواقعة تحت الاحتلال الإثيوبي.

لكن حدث انقلابٌ في موازين التحالفات والصداقات منذ ١٩٧٤م؛ عندما وقع الانقلاب العسكري ضد الإمبراطور هيلا سيلاسي، ورفع ضباط الثورة الإثيوبية شعارات اشتراكية، فتبدل الحلفاء، وأعلن السوفييت دعمهم للنظام الجديد في أديس أبابا، برغم أنه ظل متمسكاً بمطالب ومزاعم الإمبراطور المخلوع في ملكية أراضي الصومال وإريتريا^(٢)!

يمكن فهم السلوك السوفييتي أنه جاء متسقاً مع المصالح الجيوسياسية، والبحث عن مكاسب أكبر في إطار التنافس مع الولايات المتحدة.

ولكن السلوك الكوبي يتناقض مع القيم التي رفعها فيدل كاسترو وكان يدافع عنها في الوقت نفسه على الجبهة الجنوبية الغربية لإفريقيا، فقد تدفقت على إثيوبيا موجات كثيفة من الجنود الكوبيين

والخبراء العسكريين السوفييت وخبراء الأمن الألمان الشرقيين، وحسب التقديرات؛ فإن الكوبيين وصلوا إلى ٢٥ ألف جندي، وبلغ عدد السوفييت بين ١٥٠٠-٢٠٠٠ خبير، وكذلك جاء العدد نفسه تقريباً من ألمانيا الديمقراطية^(٣).

ومن أهم مظاهر نشاط السوفييت والكوبيين في إثيوبيا إعادة تكوين وتحديث وتطوير الجيش الإثيوبي الذي انهار في إريتريا مرات كثيرة، وفشل في الصومال الغربي أمام ثوار الأوغادين، وأيضاً تدريب مائتي ألف من الميليشيات الإثيوبية وتسليحهم، وذلك بهدف تدعيم النظام العسكري الاشتراكي الحاكم ليكون بالفعل نقطة ارتكاز مهمة، وبؤرة إشعاع تحقق المصالح الواسعة للمعسكر الشرقي في القرن الإفريقي خاصة، وإفريقيا كلها، ويشجع تيارات الثورة ضد النفوذ الأوروبي الأمريكي^(٤).

وما يؤكد تناقض الموقف الكوبي، وأنه عبّر عن المصالح السوفييتية فقط، دون أن تكون له أي رسالة نبيلة يدافع عنها، أن الجبهة الشعبية لتحرير إريتريا تحمل أيديولوجية «يسارية»، وكانت لها علاقات وطيدة مع موسكو وهافانا من قبل، وتحولت لاحقاً إلى أكثر المتشددين في اتهام العاصمتين بمساندة الإثيوبيين، وبمشاركتهم في القتال ضد ثوار إريتريا، مستدلة بأن طلائع الجبهة رصدت، بميدان القتال، جنرالات سوفييت وضباطاً وجنوداً كوبيين يقاتلون

جنباً إلى جنب مع الإثيوبيين^(٥)!

وعلى الجانب الصومالي:

كان سياد بري، الذي وصل إلى السلطة بانقلاب عسكري عقب اغتيال الرئيس الصومالي في ١٩٦٩م، حليفاً للاتحاد السوفييتي وكوبا، وصار يُطلق عليه: القمر الصناعي السوفييتي بالمنطقة، وبدأ يزور

(٣) المرجع نفسه، ص ١١٠.

(٤) المرجع نفسه، ص ١٢٧.

(٥) المرجع نفسه، ص ١٢٠.

(١) علي المزروعى وآخرون، المرجع السابق، ص ٤٩٥.

(٢) صلاح الدين حافظ، المرجع السابق، ص ٨٣.

الدول الإفريقية ليقنع رؤسائها بالانضمام للمعسكر الشرقي، كما أنّ الشعارات الشيوعية والماركسية ملأت شوارع مقديشو^(١).

غير أنّ كلّ ذلك لم يشفع لسياد بري عقب وصول «الرفاق الاشتراكيين العسكريين» للسلطة في إثيوبيا، وبرغم التحالف القوي بين سياد بري وفيدل كاسترو؛ في إطار الأيديولوجية التي جمعتهما.

وفيما بعد؛ فرَضَ المشروع القومي الصوماليّ على سياد بري الخلاف مع فيدل كاسترو والمنظومة التي انتمى إليها، فمَع إصرار بري على استعادة إقليم «أوغادين» من إثيوبيا؛ انحاز كاسترو إلى إثيوبيا لرفض مبادرته حول مشروع الكونفيدرالية بين عدة دول شملت: (الصومال، إثيوبيا، اليمن الجنوبي)، لخلق كتلٍ إقليميٍّ أيديولوجيٍّ يسيطر على البحر الأحمر، ودفَع رفض بري للمقترح فيدل كاسترو لتهديده، ورحل بعد زيارة قصيرة له بمقديشو^(٢)، وبعد شهرين؛ كانت الدبابات الصومالية تقصف مواقع الدفاع العسكرية الإثيوبية، وسيطرت القوات الصومالية على أوغادين، وانتقلت إلى وسط إثيوبيا، فأرسل الاتحاد السوفييتي مستشارين عسكريين، وقَدَّم المساعدة التقنية إلى إثيوبيا، وبعث كاسترو آلاف الجنود أيضاً إلى إثيوبيا، وبحلول مارس ١٩٧٨م عانت القوات الصومالية من هزائم ثقيلة، وطُردوا مرة أخرى - إلى حيث بدؤوا الهجوم ضدّ إثيوبيا^(٣).

يقود التعمّق في أبعاد السياسات الكوبية في القرن الإفريقيّ إلى ملاحظات مهمّة حول دورها في إفريقيا بشكل عامّ:

أولى تلك الملاحظات: تزامن التدخّل الكوبيّ في أنجولا وإثيوبيا برغم اختلاف السياقات؛ ما يدفع لإعادة النظر في حقيقة الدور الكوبي في إقليم جنوب غرب إفريقيا؛ إذا ما كان فعلاً بهدف القضاء على الاستعمار ونظام الفصل العنصري، أو السعي لنشر الماركسية في القارة؛ إذ أنّ الدعم الكوبي السوفييتي لإثيوبيا ضدّ الصومال وإريتريا ليس له أيّ مسوِّغ أخلاقي مماثل لذلك الذي تدثّر به ضدّ الاستعمار البرتغالي أو نظام الفصل العنصري، وبذلك يتأكد أنّ الأسباب الحقيقية ارتبطت بالمصالح الجيوسياسية للاتحاد السوفييتي فقط.

ويتأكد هذا الاستنتاج بالملاحظة الثانية؛ وهي أنّ جميع أطراف النزاع في القرن الإفريقي (إثيوبيا - إريتريا - الصومال) كانت كلها تحت المظلة الأيديولوجية الشيوعية، وبرغم ذلك فإنّ الكوبيين والسوفييت تدخلوا إلى جانب رفيق على حساب رفقاء آخرين يسبقونه في ولائهم للسوفييت.

والملاحظة الثالثة: التي ترحّج أكثر الاستنتاجات أعلاه: أنّ النظامين الإثيوبيّ والصوماليّ لم تكن ممارساتهما التسلطية تختلف عن سياسات نظام الفصل العنصري، ومن جهة أخرى؛ فإنها لم تكن تمتلك شرعية؛ بوصفها أنظمة عسكرية انقلابية، وهي الظاهرة التي طالما ادعى كاسترو محاربتها.

تفسير التناقض بين شعارات كاسترو

وممارساته في إفريقيا؛

يحتاج تفسير التناقض بين شعارات فيدل كاسترو وممارساته في إفريقيا إلى العودة إلى تلك الجزيرة الصغيرة مرة أخرى، إذ تفترض مواجهة فيدل كاسترو للنظام الانقلابي لباتيستا وخوض حرب عصابات حتى إسقاطه؛ رفضه للانقلابات العسكرية، ويصبح

(١) فهد ياسين: عودة العلاقات الصومالية-الروسية بعد عقود من القطيعة: أهدافها ومستقبلها، الدوحة: مركز الجزيرة للدراسات، ٢٩/٠٦/٢٠١٦م، ص ٠٣.

(٢) خالد حسن يوسف: شجاعة سياد بري وكونفيدرالية فيدل كاسترو، الحوار المتمدن، العدد ٥٣٥٤، ٢٧/١١/٢٠١٦م: <http://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=539377>

(٣) هارون معروف: فيدل كاسترو ودوره في تمزيق الصومال، ترجمة عبد الحكيم نجم الدين، مجلة قراءات إفريقية، ٢٠١٦-١١-٢٩م:

[/http://qiraatafrican.com/home/new](http://qiraatafrican.com/home/new)

يكفي حذف اسم «فيدل» في الفقرتين أعلاه واستبدال أي حاكم إفريقي آخر به (سياد بري في الصومال، أو منجستو هيلما ماريام في إثيوبيا) ممن وصل إلى السلطة عن طريق انقلاب عسكري، وما أكثرهم، فجعل الأنظمة الإفريقية بعد الاستقلال قام فيها العسكر بانقلابات رافعين شعارات العدالة والتنمية والتطور، ولتثبيت حكمهم الوليد، وشرعنة سلطتهم، وجدوا في الاشتراكية ومواجهة الإمبريالية أقرب المسالك إلى قلوب شعوبهم التي عانت لتعود طويلاً من الاستعمار، وانتظرت بعد استقلالها مرحلة أفضل ينعمون فيها بالاستقرار والرفاهية.

ففي الصومال: بعد استيلاء سياد بري على السلطة إثر انقلاب عسكري في ٢١/١٠/١٩٦٩م؛ قام مباشرة بتعليق الدستور وإلغاء البرلمان، وبدأ حكم البلاد حكماً مطلقاً، وألقى برموز السلطة السابقة في السجون، وعمل على التخلص من بعض الضباط البارزين في مجلس قيادة الثورة، وأعلن الاشتراكية العلمية منهجاً سياسياً وفكرياً للبلاد، وبدأت الحكومة الصومالية بتنفيذ ما وُصف بأنه أكبر حملة ماركسية لينينية في إفريقيا، وفي ١٩٩١م اضطر سياد بري إلى الهرب من البلاد، مخلفاً وراءه ٢٠ مليار دولار من الديون، وعشرات الآلاف من ضحايا الحرب الأهلية التي لا تزال مستمرة^(٢).

وفي إثيوبيا: قرّر النظام العسكري الذي أسقط نظام هيلما سيلاسي ١٩٧٤م تحويل إثيوبيا إلى دولة اشتراكية ذات نظام ماركسي لينيني، واتبع نظاماً أوتوقراطياً عسكرياً، الغلبة فيه للقومية الأمهرية، ما أدى إلى ازدياد نشاط المعارضة، وبخاصة جبهات تحرير إريتريا وتغري وأرومو، وتكررت الهزيمة في إريتريا التي نالت استقلالها عام ١٩٩٣م، كما سقط

ذلك ركيزة أيديولوجية ومبدأ لا يقل أهمية عن المبادئ الماركسية التي آمن بها، غير أن الممارسة السياسية للزعيم الثوري تختلف عن ذلك كلياً، بداية من كوبا التي حكمها حكماً عسكرياً مطلقاً لا يختلف عن أي نظام عسكري آخر.

فقد حوّل كاسترو بلده إلى بلدين: بلد الفقر للكوبيين، وبلد الجنّات السياحية المقصورة على الأجانب والممنوعة على المواطنين، تماماً مثلما كان الحال في وجود عملتين، واحدة للمواطنين، والثانية لأثرياء السياحة.

ولم يكن كاسترو قديساً: فقد ساهم في «تطهير» صفوف «الثورة» من كل رجال العهود السالفة، تحديداً عهد الرئيس السابق فولخانسيو باتيستنا، مقتنعاً بنصيحة غيفارا، الذي أسرّ له أن: «خطأ جاكوبو أربينز في غواتيمالا؛ حين لم يقم بتطهير صفوفه قبل الانقلاب العسكري عليه، عبر الإعدامات، لو فعلها لما قام عليه أحد»، فحسم موقفه، فوافق على تنفيذ الإعدامات «باسم الشعب الكوبي».

أما الديمقراطية: فلما سأل الرفاق فيدل عن الانتخابات التي خطّطوا لها، في الأيام الأولى للثورة، تمسك برفضها؛ بحجة أنها قد تهدد الثورة، فالإمبرياليون والأعداء يتربصون بها من كل حذب وصوب.

كانت القرارات عسكرية وحاسمة، علّقت المشانق لـ«العملاء» في الشوارع، كانت تلك أيضاً مطالب الشعب الكوبي، وأبعد رفاق الثورة الذين وقفوا عقبة أمام «إصلاحات وقوانين» فيدل، الذي توجّهت زعيماً حمامةً بيضاء حطت على كتفه أثناء إلقاء خطابه الأول إلى الجماهير، في مباركة من «الآلهة»! (بحسب ديانا سانتيريا) للقائد الشيوعي^(١).

(٢) أنور قاسم الخضري: أوضاع الصومال في القرن الإفريقي وأثرها على الأمن في إقليم البحر الأحمر، مجلة قراءات إفريقية، العدد ٢، سبتمبر ٢٠٠٥م، ص (٧٩-٨٠).

(١) شهرة سلوم، كوكب فيدل.. حكاية الحلم الأحمر (٠٩/٠١)، العربي الجديد، ١٠/٠٥/٢٠١٦م؛ [10/5/https://www.alaraby.co.uk/politics/2016](https://www.alaraby.co.uk/politics/2016/10/5/)

الحكم الشيوعي فيها وحكم منغستو هايله مريام، وصدر حكم استئنافي بالإعدام عليه مع ثمانية من كبار مسؤولي نظامه، وأقر بذنبه في ١٢ ديسمبر ٢٠٠٦م بالتطهير العرقي في الفترة المعروفة باسم: «الربيع الأحمر» (١٩٧٧-١٩٧٨)^(١).

الخاتمة:

لا يمكن جحد الدور الكوبي في إفريقيا، وأحسن من عبّر عنه مانديلا حين قال: «هذه أول مرة يأتي فيها بلدٌ من قارة أخرى، ليس ليأخذ منا أمراً ما، بل ليساعد الأفارقة في نيل حريتهم»^(٢). وفعلاً دعم كاسترو البلدان الإفريقية بالسلاح والرجال، حيث قاتل آلاف الكوبيين إلى جانب الأفارقة، فضلاً عن الدعم اللوجستي؛ إذ أرسل عشرات الآلاف من الكوبيين في مختلف المجالات أطباء ومعلمين ومهندسين وغيرهم، وحين غادرها فإنه حمل توابيت جنوده وليس معها أي برميل نفط.

وأهم ما قام به الكوبيون في القارة السمراء كان في إقليم جنوب إفريقيا بشكل عام، حيث شاركوا في دحر الاستعمار البرتغالي، والقضاء على نظام الفصل العنصري، ووقفوا سداً منيعاً دون التغلغل الأمريكي لملء الفراغ الاستراتيجي الذي تركه الاستعمار الأوروبي.

تداعيات هذا الدور في إفريقيا دفع ثمنها الشعب الكوبي، فقد أدى إلى تعميق التوتر في العلاقات الأمريكية الكوبية، وهو ما كانت له آثارٌ سلبيةٌ كبيرةٌ سياسياً واقتصادياً، ويبقى الجدل في الموازنة بين قيم العزة والكرامة في مجابهة الهيمنة الأمريكية التي

يتدثر بها النظام في كوبا، وبين ممارسته التسلط والاستبداد على شعبه.

هذه الجدلية على المستوى الكوبي الداخلي؛ تتسحب على دور كوبا في إفريقيا أيضاً، فبينما وقف كاسترو ضد النظام الانقلابي في بلده، وعارض الأنظمة الانقلابية التي دعمتها المخابرات الأمريكية في أمريكا الجنوبية؛ فإنه وقف إلى جانب الأنظمة الانقلابية الإفريقية لكونها تشترك معه في الأيديولوجية الاشتراكية، ومنحازة للاتحاد السوفييتي، ومعارضة للولايات المتحدة، وهذا البعد شكّل المحدد الأساسي لسياسات فيدل كاسترو في إفريقيا، فشعار معارضة الإمبريالية كافٍ لأن يصطف كاسترو إلى جانبه، ويدفع بالآلاف الكوبيين للقتال في ساحاته، وليس من المهم طريقة وصول هذا النظام إلى السلطة، ولا ممارساته بحق شعبه، أو الأقليات والأمم الأخرى التي تريد إنشاء دولة خاصة بها؛ على غرار الحاليتين الإريترية والصومالية مع إثيوبيا.

ومن جانب آخر؛ كرّس وشرعن فيدل كاسترو نظرياً وعملياً أنظمة «الحزب الواحد» الاشتراكية في إفريقيا، فعلى مستوى الخطاب السياسي؛ استثمرت تلك الأنظمة في شعارات مواجهة الإمبريالية التي رفعها الزعماء الثوريون حينها، على غرار: الكفاح ضد نظام التمييز العنصري في جنوب إفريقيا، وبرغم قيمة نيلسون منديلا بوصفه زعيماً عالمياً، وإشادته المستمرة بفيدل كاسترو، فإن سلوك الرجلين في الحكم يختلف جذرياً، فالأول لم يبق أكثر من فترة واحدة في السلطة، بينما استمر فيها الثاني حتى عجزه صحياً، ليخلفه أخوه في توريث السلطة لا يختلف كثيراً عن الأنظمة الوراثية التي طالما ادعت الأحزاب الاشتراكية الثورة عليها، كما حصل في إثيوبيا، ودعمت هذا الخطاب عملياً؛ بالمشاركة الفعلية في تلك الحروب، ولفترة زمنية تجاوزت ثلاثة عقود، راح ضحيتها عشرات الآلاف من الكوبيين وغيرهم ■

(١) الحكم بالإعدام على الديكتاتور الإثيوبي السابق منغستو مع ٨ من مسؤولي نظامه، الشرق الأوسط، العدد ١٠٧٧٢، ٢٦/٥/٢٠٠٨م: <http://archive.aawsat.com/details.asp?section=59&article=472369&issue=10772#WFPQ07kcYqE>





نحو تفعيل دور الشباب الإفريقي

الشباب.. رأس مال الأمم، ومعقد آمالها، ومحلّ نظرها واهتمامها، الحديث عنهم ولهم؛ يبدأ ولا ينتهي، متنوّع ومتجدّد، وهذه إحدى الصعوبات التي واجهتها في إعداد الملف؛ الموضوعات مهمّة وكثيرة... بماذا نبدأ؟! وماذا نؤجل؟! وما لا يُدرك كلّهُ لا يُترك جُلّه، ومن أجل ذلك جاء هذا الملف.. إشارة سريعة، وحلقة موجزة؛ من حلقات هذا الموضوع الكبير، لعلّه يتبعها حلقات أكثر تركيزاً.

إنّ التذكير بالشباب.. دَوْرهم وتأثيرهم، وتسييل الأضواء عليه، من أجل استثمارٍ إيجابيٍّ لقدراتهم، وتوظيفٍ أمثلٍ لطاقتهم، وتوجيهٍ نافعٍ لعواطفهم وحماسهم؛ هو ما قصدناه ابتداءً.

ومن أجل الجمع بين القول والتطبيق؛ رأينا بعد إعداد خطّة الملف أنّ نُسند إنجازها-استكتاباً ومراجعةً وتحكيمياً- إلى أحد مراكز البحث الإفريقية؛ ليحمل نبضاً حياً؛ ويعبّر عن الواقع بصورةٍ أقرب، ووقع الاختيار على مركز الدراسات والبحوث الإفريقية (مبدأ) ومقره بدولة مالي، والذي يقوده نخبة من الشباب المتألق في اعتزازه بهويّة أمّته، وفي همّته العالية، وتكوينه العلمي والفكريّ المتين والمتنوّع، وتعامله الراقى.

إنّ أقلام هذا الملف ومحتواه تقدّم نموذجاً إيجابياً للجيل الجديد من الشباب الإفريقي؛ الذي يملك روحاً وثابةً، وطموحاً عالياً، وعطاءً جميلاً، ويحتاج إلى أن يُفسح له المجال، ويُمنح الثقة؛ ليبنى مجد أمّته، إنهم أملُ القارة، ومستقبلها الواعد، وبهم تفخر، زادهم الله توفيقاً ونجاحاً ■



استقصاء مفهوم «الشباب» في الثقافات الإفريقية

د. آدم بهبا

أكاديمي وباحث من كوت ديفوار، أكاديمية
الدراسات الإسلامية، جامعة مالايا، ماليزيا



إنَّ ما يُصطلح عليه في العربيَّة بكلمة «شباب»، أو بالإنجليزية «youth»، أو في غيرهما من اللُّغات، يمثِّل مصطلحاً نسبياً متنازعا حول مفهومه وحدوده، ذلك أنَّ مفهوم الشَّباب يتعدَّد ويتبايُن بتعدُّد الثقافات واختلافها، وتنوع المجالات العلميَّة والفكريَّة؛ من علم نفس، وفلسفة، وتاريخ، واجتماع... كما يتعدَّد بفعل الزَّمن والظُّروف المتقلِّبة.

وقد حدَّدت هيئة الأمم المتَّحدة مرحلة الشَّباب بما بين: (١٥ - ٢٤) عاماً، وهي عند منظمة الكمنولث: (١٥ - ٢٩)، وفي الأتِّحاد الإفريقيِّ والميثاق الإفريقيِّ للشَّباب: (١٥ - ٢٥)، ولكلِّ دولةٍ بإفريقيا- تقريباً- تحديداتها الخاصَّة للفترة الزَّمنية لسنِّ الشَّباب، كما أنَّ لبعض الهيئات السياسيَّة أو المنظمات الأهليَّة المختلفة تحديداتها الخاصَّة بها حتى داخل الدولة الواحدة^(١). يُضاف إلى ذلك: أنَّ اعتراف الدولة بالحقوق المدنيَّة للفرد: يتمُّ في معظم الدُّول بعد بلوغه سنِّ الحادية والعشرين^(٢).

وفي الجدول الآتي بيانٌ بالأعمار المحدَّدة للشَّباب في عدَّة دُول إفريقيَّة:

الدولة	العمر والمدى الزماني
سيراليون، غانا، غينيا، ليبيريا	١٥ - ٢٥ (٢٠ عاماً)
مالي	١٥ - ٤٠ (٢٥ عاماً)
النيجر	١٤ - ٢٠ (٢٦ عاماً)
نيجيريا	١٨ - ٢٥ (١٧ عاماً)

فترة الشَّباب في بعض الدُّول الإفريقيَّة.
المصدر: (Ismail et al. ٢٥: ٢٠٠٦)^(٣).

يتبيَّن مما سبق، وفي الجدول أعلاه، أنَّ تحديد تعريف دقيق للشَّباب لا يزال يمثِّل تحدياً قائماً للدُّول الإفريقيَّة، وذلك في ظلِّ الواقع الاجتماعيِّ الاقتصاديِّ والسياسيِّ الذي تتمُّ فيه محاولة وضع وصفٍ للشَّباب، ولعلَّ ذلك ما انتهى بالدُّول الإفريقيَّة إلى اعتماد «المحدِّد الزَّمنيِّ» معياراً لمفهوم الشَّباب، غير أنَّ هذا المحدِّد ليس ثابتاً بين الدُّول، ولا يخفي أنَّ اعتماد «المحدِّد الزَّمنيِّ» (السَّن) له تبعات عميقة في حياة الملايين من الأفراد؛ لعلاقته المباشرة باتخاذ القرارات حول مفاهيم وممارسات ومشاريع كثيرة في الدولة الحديثة، مثل: حقوق المواطنة، والانتخاب، وحياسة الأملاك، وفترة التَّعليم الإلزامي، والخدمة العسكريَّة، والمسؤوليَّة الجنائيَّة، والتَّوظيف في القطاع العامِّ، والإحالة على التَّقاعد.

والملاحظ في هذا السياق: أنَّ الدُّول الإفريقيَّة، وإنَّ تبنَّت سنَّ «الخامسة عشرة» بدايةً لفترة الشَّباب، فإنَّها قد وسَّعت المدى إلى الثلاثين أو ما فوقها، ويرجع هذا التَّوسُّع إلى مشكلات البطالة في الدُّول الإفريقيَّة، وطول اعتماد الشَّباب على والديهم مادياً^(٤)، ويقوِّي هذا التفسير تدنِّي المدى المحدِّد لفترة الشَّباب في الدُّول الصَّناعيَّة، ففي أمريكا مثلاً: (١٢ - ٢٤) عاماً، أمَّا في اليابان فإنَّه: (١٥ - ٢٠) عاماً.

وحثَّى نمسك العصا من وسطها في هذه القضية؛ ينبغي أن يُنظر في الاستخدَام اللُّغويِّ، فالظاهر أنَّ الإشكال الأوَّل في مفهوم «الشَّباب» ناشئ عن ضبابيَّة المفردات المستخدمة في هذا المجال الدَّلاليِّ، فهناك مفرداتٌ عدَّة متقاربة في اللُّغات الأوروبيَّة تُستخدَم في هذا السُّيق، مثل: teenagers, youth, young person, adolewcent,

.Theory", p.94

Mwenda, Ntarangwi. Children and Youth in (٤)
.Africa

Odianose, Dominic. Practical Perspectives on (١)
.Youth, p.3

Paul, Ugor L. African Youth Cultures in a (٢)
.Globalize World, 2015

Matha, Mutisi. "Interrogating Traditional Youth (٣)

هذا، ومن أجل استجلاء مفهوم «الشباب» بإفريقيا في سياقه الصحيح؛ فسيتمُّ الوقوف عنده في خمسة محاور رئيسية، هي: الاعتبار العمري، ونظام الفئات العمرية، والرؤى الفلسفية المؤثرة في مفهوم الشباب، والموروث الشعبي الإفريقي، والمؤثرات الحديثة في مفهوم «الشباب».

١ - مفهوم «الشباب» والاعتبار الزمني /

العُمري:

يعود أصل التصنيف الاجتماعي طبقاً للأعمار إلى عصر سحيق من الاجتماع البشري بإفريقيا، وتفيد الدراسات الأنثروبولوجية أن هذا النظام قد ظهر أول ما ظهر بين قدماء المصريين، وأن له ارتباطاً عضوياً بالنظام التربوي التعليمي في المجتمع القديم، ويُعتقد أن هذا النظام الذي ظهر بمصر القديمة قد انتشر منها إلى سائر أرجاء العالم، وأثر في النظام التربوي الاجتماعي عند الإغريق، وبلاد الرافدين، وسائر ثقافات الشرق الآسيوي من هوند وصينييين.. وغيرهم^(٦).

عليه؛ لا يخفى أن مفهوم «الصغر والكبر» مفهوم صارم في معظم ثقافات إفريقيا، وأن له ارتباطاً مباشراً بكثير من الأنظمة والأعراف الاجتماعية، فهو موجودٌ على سبيل المثال بين الإخوة الأشقاء، وبين الزوجات (الضرات)، ويتمُّ الاعتماد عليه في استخلاف الوالد أو عميد الأسرة أو الملك بعد وفاته، إن جميع هذه الأنظمة الاجتماعية تقوم على الأولوية في الولادة، وحتى بين التوأمين، فإن بينهما: أكبر وأصغر، وفي هذه الحالة الخاصة يتبع الترتيب العكسي، فيعدُّ الأول خروجاً الأصغر^(٧)، ويفسر هذا

juvenile...، وينشأ الغموض حين تترادف هذه المفردات في الاستعمال، وتتمُّ ترجمتها إلى اللغات الأخرى بالرغم من اختلاف المدارك.

فكلمة «adolescent» (مراهق) مثلاً، المأخوذة من الأصل اللاتيني (adolescentia)، ومن الفعل (adolesco)، وتعني: النماء^(٨)، يذهب مجموعة من الباحثين، منهم الباحث الأنثروبولوجي آريس (Aries)، إلى التشكيك في أصلتها، وفي وجود مفهوم «مراهقة» في أوروبا القديمة^(٩)، وحجَّتهم أن لفظة «مراهق» مُستحدثة، فرضتها ظروف عصر الصناعة، والتعليم، والحياة الحضريّة، وغيرها من الظروف التي تسببت في توسيع الفجوة بين فترة الطفولة والرشد^(١٠).

عليه؛ فإنَّ الإشكال يتعمق حين يتمُّ إسقاط تلك المصطلحات المتنازع حولها على وقائع وبيئات اجتماعية مختلفة، وذلك ما أشار إليه الباحث «أغيا» في معرض مناقشته لمفهوم مماثل هو «الطفولة»، حيث قال إنَّ «كلَّ محاولة لعولمة مفهوم الطفل لا يؤدي إلى سوء الفهم لطبيعة الطفولة فحسب، وإنما تُعرض هذا المفهوم للمحاولات المغرضة والاستخدامات النفعيّة^(١١)»، أو كما يوضحه الباحث «سميث»، فإنَّ محاولة تعريف مرحلة الشباب أو الرشد تفضي بالضرورة إلى رؤية تجزيئية لظاهرة مركبة، فالشباب أو الرشد هو شخصٌ مركَّب من خصائص بيولوجية، ونفسية، واجتماعية^(١٢).

(١) W. Hyde. The Etymological Encyclopaedia of Technical Words, p.11

(٢) Deborah, Durham. Youth and the Social, p.116

(٣) Andrew, Burton, Helen., Generations Past: Youth in East African History, p.237

(٤) Agya, Boakye-Boaten. "Changes in the concept of Childhood", p.105

(٥) Fredrick Nafukho. Foundation of Adult Education in Africa, p.6

(٦) Tradition, Culture and Development in African History, p.60

(٧) قد يُعتقد أن هذا النظام مأخوذ من الكتاب المقدس في قصة نبي الله يعقوب عليه السّلام (المزمير / إصحاح ٩:١١٦)، والواقع أن هذا النظام معمولٌ به في كثير من المجتمعات المنعزلة نسبياً قبل احتكاكها بالمسيحية.



المجتمعات الإفريقيّة القديمة تستقي رؤيتها عن مرحلة «الشباب» من خلال فلسفتها الخاصّة ورؤيتها عن الكون والإنسان والحياة

وكذلك مجموعات تريكي (Tiriki) - في كينيا-: نظاماً سباعياً في هذا المجال؛ أي أنّ حياة الإنسان مقسّمة على سبع مراحل، تتكوّن كل مرحلة منها من خمس عشرة سنة (10XV)، وتعدّ المرحلة الثالثة في هذا التقسيم: مرحلة الشباب، ويُطلق على أفرادها: «محاربون صغار»، وإليهم تعود مهمّة الحفاظ على «الأمن العامّ» في المجموعة: من حماية للمواشي، ودفاع عن الأراضي.

أمّا المرحلة الرابعة فيُطلق عليها: «محاربون كبار»، ومهمّتها الأولى نقل خبراتها الحربيّة والإداريّة إلى الفئة الثالّثة، كما تقوم بوظيفة «الوساطة والسّفارة» بين المجموعة الثالّثة، ومن فوقها من المجموعات من كبار السنّ. وهذا النّظام الدقيق واردٌ عند مجموعات رعويّة أخرى، مثل: الماسائي، وسامبورو^(٣).

أمّا مجموعات «بوران»- من الأرومو جنوبيّ إثيوبيا-: فتعرّف عندها عشر مراتب «غادا» (gada)، كلُّ مرتبة بثماني سنوات، وأولها: «دبالي» (daballe)، أي: طفولة، وآخرها: (yuba) الشّيخوخة. ولهذا التقسيم تأثيرٌ دقيقٌ في التّظيم السياسيّ والاجتماعيّ عند بوران، يُعرّف في

التّرتيب العكسي بعلاقة الرّعاية بين الكبير والصّغير؛ حيث يُعتقد أنّ الأخير خرجاً قد دفع بأخيه/أخته إلى الحياة، ولم يتركه خلفه.

هذا، وعلى الرّغم من صرامة حقّ الأولويّة في الولادة في الثقافات الإفريقيّة؛ فإنّ ذلك يكون في حال مقارنة الفرد بغيره حين يستلزم الموقف ذلك، وما عداه، فإنّ سنّ الفرد لا اعتبار كبيراً له بوصفه فرداً، وإنّما يكتسب اعتباره ضمن مجموعة من الأفراد، وذلك ما يُعرف بـ«الفئة العمريّة».

٢ - نظام الفئات العمريّة:

في المجتمعات الإفريقيّة: يتمّ تصنيف الأفراد إلى مجموعات عمريّة متدرّجة، ويتمّ انضمام الفرد إلى المجموعة العمريّة الخاصّة به، أو انتقاله من فئة عمريّة إلى أخرى، عبر طقوس تاهيليّة محدّدة rites de passage.

هنا يفرّق الباحثون بين مصطلح «الفئة العمريّة» (age set)، وبين «المراتب العمريّة» (age grades)، فالأوّل: يُشار به إلى الأفراد الذين وُلدوا في فترة متقاربة (١ - ٤ سنوات)، يمكن وضعهم في مجموعة واحدة^(١)، بينما الآخر: يُشار به إلى المراحل العمريّة الثابّنة التي يمرُّ عبرها الفرد في المجتمع، ولها مواصفاتها الجسديّة والنفسية والأخلاقيّة، وواجباتها وحقوقها المحدّدة عند كلِّ مجتمع^(٢)، ونجد في المجتمعات الإفريقيّة- عامّة- ثلاث مراتب عمريّة: الطفولة، والشباب، والكبر أو الشّيخوخة).

في هذا السّياق؛ فإنّ تقسيم الحياة البشريّة إلى مراتب عمريّة نظامٌ أكثر دقّة وصرامة في المجتمعات الرعويّة منها في المجتمعات الزراعيّة، على سبيل المثال: نجد عند مجموعات ناندي (Nandi)،

(١) Toyin, Falola. Facts, Fiction and African Creative, p.130

(٢) Alan, Bernard. Encyclopedia of Social and Cultural Anthropology, p.21

(٣) William, a. Haviland, Cultural Anthropology, p.264

البحوث الاجتماعية بـ «the Boran version of governance by committees»، وصفه الباحث برنارد بـ «أكثر النماذج تعقيداً في إفريقيا»^(١).
وكما سبق؛ فإن المجموعات الزراعية أقل تعقيداً في التصنيف الاجتماعي، كما الحال عند مجموعات (Karimojong) في الشمال الشرقي من يوغندا؛ حيث يُصنّف المجتمع إلى فئتين كبيرتين فحسب، هما: الرّاشدون وغير الرّاشدين. ومثل ذلك عند «النوير» جنوبي السودان. أمّا مجموعات «أروشا» في شمال تنزانيا؛ فيتمّ تقسيم الرّاشدين تقسيماً داخلياً إلى فئتين: الصغار والكبار.

الخصائص الاجتماعية في هذا النظام:

في ظلّ نظام الفئات العمرية هذا؛ يمكن النظر بوضوح في مفهوم «الشباب» في المجتمعات الإفريقية، وذلك باستعراض بعض الخصائص الاجتماعية في هذا النظام، وأثره في تشكيل الرؤية الإفريقية عن مرحلة الشباب، منها: التأهيلية، والتضامنية، والوظيفية.

أ - التأهيلية: يعني ذلك أن الانتقال لمرحلة الشباب، أو غيرها، تصاحبه طقوسٌ روحيةٌ وماديةٌ محدّدة (rites of passage)، وهذا يقوّي نظر الفرد إلى المرحلة العمرية التي انتقل إليها؛ ما دام دخوله إليها قد تمّ عبر طقوس روحية، وتمّ إعداده لها نفسياً وعملياً بمهارات محدّدة.

وتحديداً؛ فإنّ مرحلة «الشباب» تبدأ بالختان، ولا يزال ذلك يعدّ لازمةً اجتماعيةً ضروريةً في معظم مجتمعات إفريقيا جنوب الصحراء؛ حتى يُعترف بالفرد بأنّه «راشد»، ويُسمح له بممارسة بعض الطقوس والوظائف والعادات الاجتماعية. وليس الختان - في حدّ ذاته - الأمر المهمّ في هذا المقام، وإنما الأهمّ ما يمرُّ به الفرد من تربية اجتماعية ثقافية مكثّمة: في التاريخ القومي، والعادات والتقاليد، وتربية حُلقية،

واختبارات عضلية في التّحمّل والصّبر^(٢).
ب - التّضامنية: تُعدّ طقوس التّاهيل للشباب عاملاً لتقوية الوعي بالتّضامن بين أفراد الفئة العمرية الواحدة؛ فتغدو المجموعة جسماً واحداً، تعمل وتتصرّف باعتبارها كتلة واحدة. وفي المجموعات الأكثر وثنية؛ يتمّ استحلاف أفراد المجموعة على النّصرة فيما بينهم، وعلى الالتزام بأخلاق وأعراف محدّدة لا يمكن انتهاكها بأيّ حال، وتقوى الرّابطة التّضامنية بينهم حتى تتجاوز الرّابطة الأسرية وعلاقات الدّم والقرابة^(٣).

ج - الوظيفة والتكاملية: يوضّح التّقسيم العمريّ بجلاء مهامّ كلّ فئة عمرية في المجتمع، ويُسهّل تسيير نظام الحكم بالمجتمع التقليدي، ويؤمّن توزيعاً عادلاً للسلطات، وشفافيةً عاليةً للنسبة في اتّخاذ القرارات السياسيّة التي تهّم المجتمع. وكما أوضحت الباحثة بينيت (Bennett, 1998): فإنّ كلّ فئة عمرية ضرورية في الهيكلة الاجتماعية؛ لأنّ مهامها وامتيازاتها فريدة بالنسبة للفئات الأخرى، ويتمّ دعم مهامّ كلّ فئة وواجباتها وحقوقها عبر وضع حزمة من القيم والتصرّفات والحدود الخاصّة بها.

بالإجمال؛ إنّ الخصائص المذكورة لنظام الفئات العمرية، تجعل من مرحلة الشباب، ومن الفرد، عنصراً مندمجاً بقوة وبعمق في النسيج الاجتماعي، ولا يُعرف في ظلّ هذا النظام أيّ انفصام أو صراع بين «الشباب» وبين أيّ عنصر في المجتمع.

٣ - القيم والاعتبارات المؤثرة في مفهوم

«الشباب»:

يقوم المجتمع الإفريقي، مثل غيره، على ركائز فلسفية تشكّل رؤيته في الكون والحياة والإنسان، وتؤثّر بقوة في نظرة المجتمع إلى المؤسسة

(٢) Isaac, Schapera. Picturing a Colonial Past, p.131.

(٣) Olugbenga, Adesida. African Voices, p.10

(١) Alan, Bernard. Encyclopedia, Op. Cit., p.22

الاجتماعية أو غيرها، وهنا استعراضاً لبعض تلك الركائز الفلسفية التي تؤثر في مفهوم الشباب، مثل: الجماعة، والإنتاجية، والمسؤولية، والانضباطية، وكل هذه الركائز تميز مفهوم الشباب بإفريقيا عنه في المفهوم الغربي.

أ - الجماعة: يُشار إلى مبدأ الجماعة في الفلسفة الإفريقية بـ«ubuntu»، ويُترجم إلى (communalism)، ويشير إلى: أن الفرد تتحدّد هويته بانتمائه إلى مجموعة، ويبدأ هذا الانتماء بعلاقة وثيقة داخل الأسرة الموسّعة، فالعشيرة، فالمجتمع الواسع. ومن مظاهر هذا الانتماء: أن اسم المولود في بعض المجتمعات الإفريقية يُحدّد بناءً على ترتيبه في الأسرة، والفرد في هذا النظام هو ملك الجميع، ووجوده متوقّف على وجود الآخرين وانتمائه إليهم في شبكة علاقات متداخلة في المجتمع.

ويعبّر عن هذه الفلسفة بالتعبير الشهير: «umuntu ngumuntu ngabantu» أي: «أنا موجود؛ لأننا موجودون»^(١)، عليه؛ فإنّ الفرد قبل أن يصل إلى مرحلة «الشباب»: فإنّ مبدأ الجماعة يكون قد ربّاه على أنّه ملك للجميع، وأنّ تربيته هي شغل الجميع، وفي المثل عند مجموعات بانيورو: omwana takulia nju emoi : «لا يشبّ الطفل تحت كوخ واحد»، وعند مجموعة كيهايا (Kihaya): omwana taba womoi : «ليس الطفل ملكاً لدار واحدة»^(٢).

في ظلّ هذه الفلسفة؛ فإنّ مفهوم «الشباب» بإفريقيا التقليدية يتحدّد أيضاً بمدى انخراط الفرد في مجموعته وفي فنته العمرية؛ من أجل الوفاء بالمتطلبات الاجتماعية المنوطة بمن بلغ هذه المرحلة، ويبلغ هذا الانخراط مداً، على سبيل

المثال، في مجتمع «زولو»؛ حيث لا يُحاسب الفرد إذا قام بانتهاك محظور اجتماعي، وإنما تُحاسب الفئة العمرية التي ينتمي إليها؛ فيتحمل الجميع المسؤولية والعقاب.

هذا، ولا يخفى أن هذه الرؤية الفلسفية الاجتماعية على عكس الرؤية الغربية التي تولي الاهتمام بالفرد فرداً؛ بمصالحه الفردية، وباستقلاله عن غيره، حتى إنّ كثيراً من تعريفات «الشباب» تُصرّح بهذه الرؤية، وترى أنّ مرحلة الشباب هي مرحلة الاستقلال الشامل: جسدياً، وفكرياً، وعقلياً، واقتصادياً^(٣).

ب - الإنتاجية: لمرحلة الشباب في المفهوم التقليدي علاقة واضحة بالإنتاج، أي أنّ الفرد لا يخرج من الاعتبار الطفولي حتى يُحسن القيام بوظائف اجتماعية معيّنة، وذلك ضمن الإطار الاجتماعي والتوزيع الداخلي للمهن والوظائف والحرف والأعمال الخاصة بالمجموعة التي ينتمي إليها، وبالتعبير الحديث: أن يقوم بأداء «الخدمة العسكرية / الاجتماعية».

ويتوسّع هذا المعيار إلى مطالبة الفرد بالقيام بأعمال بطولية تثبت فتوته وأحقّيته بوصف «شاب»، على سبيل المثال: في مجتمع «ماساي» الرعوي؛ يُطالب الفرد بمبارزة أسد وقتله، وحينئذ يُعترف برجلته^(٤)، وعند «الفولاني» مبارزة قتالية تُعرف برقصة: (soro/sawro/sharo)^(٥)، وفي المجتمعات الزراعية تتلخّص تلك المهام العضلية في بناء البيوت، والصّيد، وفلاحة الأراضي، وحفر الآبار، وما إلى ذلك من الخدمات التي تؤمّن البنية التحتية

(٢) Deon, Filmer. Youth Employment in Sub-Saharan Africa, p.49

(٤) R. A. Brown. The Tree or the Panzaiic Plea, p.401

(٥) Zartman, I. Traditional cures for Modern Conflicts, p.62

(١) Derek, Hook. Critical Philosophy, p.76

(٢) Richard, S. Gilbert. Growing up Absorbed, ch: .14

الرّاشدين.. «بل إنّ الحالة والوظيفة الاجتماعيّة هي التي تحدّد السنّ»، وهذه الحالة الاجتماعيّة يكتسبها الفرد عبر المرور بمتواليّة من المهامّ والواجبات والطّقوس الاجتماعيّة، لذلك، فإنّ الفرد إذا تجاوز الفترة البيولوجيّة النسيبيّة للرشد، ولم يخضع لطقوس التّأهيل، كالختان ومصاحباته، فإنّه لا يعدّ راشداً، ولا يعترف له المجتمع بحقوق اجتماعيّة معيّنة، ولا يخوّلّه القيام بوظائف محدّدة مما هو من اختصاص الرّاشدين^(٤).

هذا، وتحفظ كلّ لغة بألفاظ سلبية للإشارة إلى غير المختون، وهي ألفاظ وتعبيرات عميقة في الدلالة على السباب والازدراء بالشخص، منها: (bilakoro) عند مادينغ، و (kivisi) عند أكامبا، و (munyolo) عند ليو (Luo)، ويعني ذلك كله أنّ الشخص غير راشد، وأنّه لم يتلقّ التربيّة الكافية، والتّهذيب الصّحيح.

في هذا السّياق؛ يشير «الهوسا» إلى الشّباب في العشريّين والثلاثيّات «يارا»، ومقابلته: «داتيجو، ج. داتيجاي» (dattijo, pl: dattjai)، لمن جاوزوا الأربعينيّات، وهو مفهوم بيولوجيّ واجتماعي في الوقت نفسه، فقد يوصف الفرد الشّاب بوصف «داتيجو» إذا اتّصف برجاحة العقل والتّصرّف الاجتماعي والأخلاقي اللّبق، والعكس بالعكس. كما يُطلق «يارا» على ذوي المرتبة الاجتماعيّة الدّنيا كالعبيد؛ وإنّ كان كبيراً بيولوجياً.

بالمثل؛ فإنّ «الفولاني» تربط السنّ برجاحة العقل والرّشد، فيؤكّدون أنّ المسنّ ليس من عاش طويلاً، ولكنّه من يعرف كثيراً. وتعبير المؤرّخ الأنثروبولوجيّ أحمد هامباته باه: «فقد يُعدّ الفرد مسنّاً وهو في العشرين من عمره، أو حدّاً وهو في

الاجتماعيّة^(١)، أمّا الرّعاة: فتكون أدوار الشّباب في: رعي المواشي، وحماية المجموعة، وكلّما تقدّم الفرد في السنّ؛ فإنّ المهام تغدو أكثر اجتماعياً وسياسياً. ج - المسؤوليّة: من الفروق بين الرّؤية الإفريقيّة عن الشّباب وبين الرّؤية الغربيّة لهذه المرحلة: أنّ الغرب يراها مرحلة انفصاميّة بين الماضي والحاضر، حسياً ومعنوياً، أي أنّها مرحلة صراع، ويطلقون على ذلك: (puberty-conflict)؛ أي: مرحلة تمرّد على القيم وأعراف المجتمع، ويعرف بـ «youth culture» (ثقافة الشّباب)^(٢)، بالعكس؛ فإنّ الثقافة الإفريقيّة تنظر إلى هذه المرحلة نظرة إيجابيّة بوصفها مرحلة مهمّات اجتماعيّة، وتطوّراً في مسؤوليّة الفرد نحو المجتمع، وتوسيعاً لأوجه مشاركته وفاعليّته في الشّأن العامّ، واكتساباً لخبرات جديدة، وتعمّقاً في الثقافة التّقليديّة.

من الأمثلة هنا: ما نجدّه في الثقافة الهوساويّة: حيث إنّ من محدّدات الرّشد عند «هوسا»: أن يكون الفرد مسؤولاً عن غيره، كافلاً لآخرين: من زوج أو إخوة صغار أو أبناء... ويطلق على من تقدّم في السنّ ولم يتزوّج لأيّ سبب من الأسباب، وليس هو مسؤولاً عن غيره، قائماً بشؤونهم، يطلق عليه: (tsoho)، وتعني حرفياً: «قديم»، أي أنّها كلمة لا تحمل ظلالاً اجتماعيّة، وإنّما مادّيّة بحتة، يُشار بها إلى السنّ البيولوجيّ فحسب^(٣).

د - الانضباطيّة الخلقية: يُعدّ التّصرّف اللّبق بحسب الأعراف والقيم الخلقية في المجتمع معياراً أساسياً في تحديد الشّباب، وتعبير الباحث ماك ني «McNee»: فإنّ المجتمعات الإفريقيّة التّقليديّة لا تستخدم العمر محدّداً لتمييز الأطفال من

(١) Olugbenga, African voices, Op. Cit

(٢) Ulrich, Oberdiek. Anthropological Abstracts, p. 70

(٣) Murray, Last. Toward a Political History, p.40

(٤) McNee, L., "The languages of childhood", (٤) 32-African Studies Quarterly, 7 (4): 20

nea apanyin) المناسبة للمشكلة، ويقولون أيضاً: «tena ase a oho no, abofra gyina gua so kora o hu»^(٥)؛ أي: «إنَّ ما يراه المسنُّ وهو قاعد على الأرض؛ لا يراه الحدُّثُ وهو فوق شجرة».

وعن الإدماج الحقيقي للشباب في الحياة تقول مجموعة بوغندا: «miti gyamayuni, basimba bayegekere, bwe gikula negyezimba»^(٦)، ومعناه: «القبول الشابة تحتاج إلى دعامة، وليست المسنة». ويقولون في الاعتراف بالمقدرة الإنتاجية للشباب: «keezimbira tekaba kato»^(٧)، ومعناه: «لم يعد طفلاً الطفل الذي يبني نفسه كوخاً». وعند «مادينغ» في ضرورة إشراك الشباب في اتخاذ القرارات: «dugu jε tε»؛ أي: «لا يتجاوز الإصباحُ بلدةً لصغيرها».

ب - قصص وأساطير: في كثير من القصص والأساطير الإفريقية، نجد الصغار الذين يتميِّزون بخصائص عقلية أو خلقية عالية يُعاملون معاملة الرُشدين، ويحظون بالحقوق التي يحظى بها الكبار، وربما كان ذلك معياراً للتفاضل، خصوصاً في ظروف استخلاف الأبناء لوالدهم الملك، حيث يتجاوز عن حق الأولوية في الولادة، وذلك حال البطل القومي «صونجاتا» بين المادينغ، و «كاكاما» (الملك الصغير، موكاما = ملك) الجد الأسطوري لمجموعات بانيورو (Bunoro)، وذلك بعد تفوقه على إخوته الكبار في اختبارات الذكاء وقوة الشخصية^(٨). من أمثلة الأساطير أيضاً في دور الشباب في

سنُّ الثانية والسبعين»^(١)، كما يشيرون إلى الشاب (sukanaaku)، وهو لفظٌ يحمل ظلالاً قيمية إسلامية مكملة لمفهوم الإنسان المثالي (Pulaaku) عند «الفولاني».

٤ - الموروث الشعبي ومفهوم «الشباب»:

يُعدُّ الموروث الشعبي بإفريقيا، أو غيرها، المصدر الأوثق لفهم المجتمع وحضارته، وفي موضوع «الشباب» خاصة نجد مادةً واسعة من المفردات اللغوية، والحكم والأمثال، والقصص والأساطير، والأغاني... التي تعطينا رؤيةً صحيحة عن هذا المفهوم.

وتكفي الإشارة هنا إلى بعض تلك الجوانب:

أ - حُكمٌ وأمثال: هناك أمثال كثيرة تأتي توضيحاً للكثير مما سبق الإشارة إليه من مفاهيم حول «الشباب»، فمن الأمثال في الدلالة على العلاقة الحميمة بين الشباب وكبار السن، مثل لمجموعة (Builsa): «ba kan kali dai yenga nak) peesa a sue yui ya»^(٢)؛ أي: «ليس بالجلوس يوماً واحداً يتعلم الإنسان كيف يملأ جعبةً بالقبول الحلوة، لا بدَّ من التعليم المتواصل، ومصاحبة كبار السن». مثل آخر في حثَّ الشباب على التعلم: «الشباب الذي لا يستمع إلى كبار السن يسير طويلاً»^(٣)؛ أي: لا يصل بسهولة إلى الهدف. قريبٌ منه قول مجموعة أكان: «opayin tiri muna wohuani akuma»^(٤)؛ أي: «من رأس المسنِّ تؤخذ الفأس»؛ أي أن من يستتير بالحكماء يحصل على الوسيلة

Hampate B. "Ahmadou Hampate ba Education (١) et Traditions", fondation AFRIKHEPRI, 2013

Walter, J. Moon. Using Proverbs to (٢) Contextualize Christianity, p.16

Dorothy, Proverbs and the African tree of life, (٣) p. 97, footnote 21

Jane, Apiah. Akan Proverbs As Indigenous (٤) Knowledge, p.53

Jadie, McDonnell. RE-Theorizing the Integral (٥) Link between Culture and Development, p.48

Khalid, Lubega., Understanding Social in (٦) Buganda, 109

.Ibid., p. 74 (٧)

John, Beattie. Bunyoro: An African Kingdom, (٨) .12-p.11

التعليم الغربي أحد تلك الأنظمة المنافرة للحياة الإفريقية، ولهذا التنافر آثار واضحة في الشباب الإفريقي المعاصر، منها الانفصام عن الواقع، والبطالة، وتأخير الزواج... ولكل ذلك آثار مباشرة في تغيير الرؤية عن الشباب.

ب - الأديان والمعتقدات الوافدة: للأديان الوافدة بإفريقيا علاقة مباشرة بالتغيرات الطارئة في مفهوم «الشباب»، سواء كانت إيجابية أو سلبية، وقد أدت المسيحية هنا دوراً سلبياً في إحداث الانفصام والقطيعة بين الفرد الإفريقي وبين معتقداته وقيمه وموروثه، وكانت تلك سياسة مكملة للمشروع الإمبريالي. وإذا كان الإسلام - بعقيدته وقيمه - قد ساهم بإيجابية في هذا المجال؛ فإننا نجد دعاءً، من العرب والأفارقة أنفسهم، ممن تضيق نفوسهم بسعة الإسلام، قد ساهموا بسلبية كبيرة في تحطيم القيم الإنسانية النبيلة بإفريقيا؛ حيث رموا كل مظهر ثقافي بالضلال والوثنية دون أن يجهدوا أنفسهم بالنظر فيه ودراسته.

ج - الحروب الأهلية والأمراض: للحروب الأهلية آثار مباشرة في التغيير الجذري لمفهوم «الشباب»، فظاهرة الأطفال المجندين (Children Soldiers) مثلاً، قد غيرت ديموغرافية الحياة ومفهوم «الشباب»، وتفيد الإحصاءات أن: (٢٠٠,٠٠٠) من أطفال إفريقيا، حتى عام ٢٠١٤م، مجنّدون، ويمثّل ذلك نسبة (١٤,٥٧٪) من المجموع العالمي (٣٥٠,٠٠٠)^(٣)، ونسبة كبيرة من أولئك تحت سنّ العاشرة^(٤).

أمّا الأمراض والأوبئة؛ فهي نتيجة طبيعية للحروب الأهلية، ويأتي على رأسها «مرض الإيدز» الذي يمثّل مقوضاً للكثير من قواعد البناء

تحقيق الوثام الاجتماعي: ما يُعرف عند مجموعة خويّ خويّ (KhoiKhoi) بجنوب إفريقيا، بـ«إله المطر»، واسمه (Tsui'Goab)، ويزعمون أنه هو الشّاب الذي صار ملك الموت (Gaubab)، ودافع عن القرية حين أتى الملك في فترة جفاف حادة لقبض مجموعة من الأرواح^(١).

كذلك؛ في مجتمع «دينكا» الرعوي بالسودان قصّة الفتى (Aiwei Longar)، ويُعتقد أنه جدّ مجموعات بورّ (Bor) من الدينكا، وتُضفى عليه قوّة خارقة، ونجاحه في حماية الشعب من جفاف هالك^(٢).

فالنون السّعيبة، بأشكالها المتعدّدة، أداة دقيقة في الكشف عن الرؤية الإفريقية لمفهوم «الشباب» أو غيره من الظواهر الاجتماعية.

هذا، وعلى الرّغم من أهميّة كل ما سبق ذكره من ركائز واعتبارات في الثقافة الإفريقية التقليدية؛ فلا سبيل إلى إنكار المؤثرات الحديثة المسؤولة عن التغير المفهومي لمرحلة «الشباب»، ولا بدّ من الأخذ بتلك الظواهر؛ إذا ما أريد الخروج بمفهوم حقيقي عن «الشباب» منسجم مع الظرف التاريخي الرّاهن.

ه - المؤثرات الحديثة في مفهوم «الشباب»

بإفريقيا:

هناك ظواهر وعوامل كثيرة قد رشّحت لإحداث تغيير في مفهوم «الشباب» الأصيل بإفريقيا، منها: سياسيّة، واجتماعيّة، واقتصاديّة، وثقافيّة، ولعلّ الاكتفاء هنا بعامل الثقافة والاستعمار، والتعليم الغربي، والعولمة؛ يُدلّل على هذا التأثير.

أ - الاستعمار والثّقافة الغربيّة: لقد مثّل الاستعمار منعطفاً حاداً في الحياة الإفريقية؛ حيث تمّ الرّجُ بأنظمة الحياة الغربيّة في المجتمع الإفريقيّ دون اعتبارٍ لملاءمة ذلك لتلك، وقد كان

(٢) African Policies and Economics Development, p.11.

(١) Patricia Ann, L., African Mythology A to Z, p.48.

(٤) Momvana, Children soldiers in Africa, p.17.

(٢) Patricia Ann. Op. Cit., p.5.

هنا له درجاتٌ محدّدة واضحة بخلاف الحال في القوانين الغربية التي تعامل - تقريباً - من بلغ الثامنة عشرة معاملة من في الثمانين من العمر: في الحقوق والواجبات المدنيّة.

وكما ألمح إليه الباحث مزروعى: فإنّ اللغات الإفريقيّة «تضع فاصلاً بين الرّاشدين الشّباب، وبين الشّباب ذوي القدرات الحربيّة في حماية المواشي والأراضي، وبين من فوق أولئك من كبار السن»^(١). أيضاً؛ وُجد أنّ المجتمعات الإفريقيّة القديمة تستقي رؤيتها عن مرحلة «الشّباب» من خلال فلسفتها الخاصّة ورؤيتها عن الكون والإنسان والحياة، ومفهوم «الشّباب» في ظلّ هذه الفلسفة شموليٌّ موسّع: جسمي، نفسي، اجتماعي، ثقافي.. إلخ.

هذا، ولا شكّ بأنّ نظرةً كليّةً جامعةً بين الأصيل والحديث في مفهوم «الشّباب»؛ هي المخرج الأسلم من الإشكالات التي تجلبها النظرة الأحاديّة المسوّّدة في هذا السّياق، وقد تمّ تعداد بعض المؤثّرات الحديثة التي لا بدّ من الاعتراف بها من أجل وضع مفهوم الشّباب في سياقه الصّحيح، ولا يخفى أنّ التّحديد الدّقيق لمفهوم «الشّباب» له تأثيرٌ مباشرٌ في حسن إدارة الدّولة وتسيير شؤونها واتّخاذ قراراتها؛ لأنّ تصنيف المجتمع إلى فئات دقيقة خطوةٌ ضروريّة لكلّ برنامج إنمائيّ بالدّولة الإفريقيّة الحديثة^(٢). وهذا التّحديد الدّقيق لا يتمّ إلاّ بالاعتراف بالسّياق التّاريخيّ الذي نعيش فيه؛ بجميع مظاهره السّياسيّة والثّقافيّة والاجتماعيّة^(٣) ■

الاجتماعيّ بإفريقيا، وأوّل مظاهر هذا التّقويض لمرحلة الشّباب: هَلْهَلَة الأسرة، وذلك بموت الآباء في فترة مبكّرة من حياة الطّفل، فلا يصل الطّفل إلى مرحلة الشّباب الافتراضيّة وصولاً طبيعيّاً، بل قد يكون الطّفل، وهو في مرحلة مبكّرة من عمره، مسؤولاً عن إخوته الصّغار، دون أدنى تأهيل لهذه المسؤوليّة، وحينئذٍ لا وجه للحديث عن مرحلة شباب حقيقيّة لمثل أولئك الذين يعيشون في مجتمع مهلّهل. هذا بالإضافة إلى أنّ الشّباب أنفسهم هم أكثر الفئات العمريّة موتاً بمرض الإيدز.

د - العولمة: يبرز تأثير العولمة في جميع مناحي الحياة الإفريقيّة؛ في كون إفريقيا الطرف الهدف في العولمة: في النّجارة، والثّقافة.. وغيرهما، ومن تأثيرات هذا النّظام في إحداث التّغيير في مفهوم «الشّباب»: ما نشهده من إملءات المؤسّسات الإمبرياليّة على الدّول، مثل صندوق النّقد الدّولي، ومنظّمة يونيسف، وإجبارها الحكومات على سياسات اقتصاديّة واجتماعيّة تؤثّر مباشرةً وسلباً على حياة الملايين من الأفارقة، وتؤدّي إلى مسخ المفهوم الحقيقيّ لمرحلة «الشّباب».

خاتمة:

لقد كانت الفقرات السّابقة محاولةً لاستكشاف مفهوم «الشّباب» بإفريقيا التقليديّة، وما طرأ على هذا المفهوم من تطوّر وتغيير، في هذا الإطار: وُجد أنّ اعتماد «المعيار الرّمزي» وحدّه في تحديد «الشّباب»، كما المعمول به في الدّول الإفريقيّة وفي العالم، يفضي إلى إشكالات كثيرة، كما أنّ اعتماد المعايير الأجنبيّة في هذا التّحديد يوسّع نطاق الإشكال، فتحديد «الشّاب» بمن بلغ الثامنة عشرة من العمر، كما الحال في معظم البلاد الإفريقيّة، معيارٌ مسوّّردٌ من القوانين الغربيّة، والحال أنّ معظم المجتمعات الإفريقيّة التقليديّة تجعل البلوغ (puberty) فاصلاً بين الطّفولة والرّشد، والرّشد

(١) Mazrui, Ali al-Amin, The Warrior Tradition in Modern Africa, p.75

(٢) Deborah, Durham. Youth and the Social, p.114

(٣) Paul, Ugor L., African Youth Cultures, Op. Cit



الشباب والتحوّل الديمقراطي في إفريقيا: دراسة حالي السنغال وبوركينا فاسو

أ. مصطفى أنجاي

باحث في التاريخ الإسلامي جامعة مرمرة - تركيا، مدير
مركز البحوث والدراسات الإفريقية (مبدأ) - مالي



شهدت هيمنة نظام «الحزب الواحد» (حزب الدولة)، في كتابه: (ظهور نظام الحزب الواحد في إفريقيا السوداء: تجربة الدول الناطقة باللغة الفرنسية): يقدّم القانوني الجزائري أحمد ماحيو شبكة من المبررات دفعت السلطات السياسية الإفريقية، في أعقاب الاستقلال، إلى تبني نظام «الحزب الواحد»، هذه

المحور الأول: التحوّل الديمقراطي في إفريقيا: الخلفية، والمسار:

أ - الخلفية:

لئن عرفت الحياة السياسية الإفريقية في ظلّ الإدارة الاستعمارية نوعاً من التعددية الحزبية؛ فإنّ الفترة من الاستقلال إلى غاية تسعينيات القرن الماضي

المبررات تعود لثلاث قضايا أساسية، هي: تحقيق

الوحدة الوطنية، بناء الدولة، والتنمية الاقتصادية^(١).

وبغض النظر عن صحّة تلك المبررات؛ فإنّ حصيلة أداء هذه الأنظمة الأحادية غير مرضية، حيث أدّت في كلّ الدول التي قامت على نظام «الحزب الواحد» إلى نقيض المقصود.

وتختلف رؤى الباحثين حول العوامل المؤدّية إلى نشوء الديمقراطية والعودة إلى التعددية السياسية في إفريقيا، ولا يهمنّا في هذا المقام الترجيح بينها، ولكن من المؤكّد أنّ القارة مع بدايات تسعينيات القرن المنصرم قد شهدت موجة كبيرة من الانتقال الديمقراطي، حيث لم يكد عقد التسعينيات ينتصف حتّى أصبحت الدول الإفريقية كلّها - حقاً أو زوراً - تتسبب إلى النظام الديمقراطي، ما عدا ليبيا القذافي الذي عارضه صراحةً في (الكتاب الأخضر).

هذا الانفتاح الديمقراطي؛ عرفته القارة الإفريقية بالتزامن مع مناطق أخرى في العالم؛ في أعقاب نهاية الحرب الباردة وسقوط جدار برلين^(٢).

ب - المسار:

اتخذ التحوّل الديمقراطي في إفريقيا مسارات عدة؛ تبعاً لاختلاف التجارب السياسية للأنظمة السلطوية القائمة، بالإضافة إلى تعدّد الديناميات المحليّة للدول المعنية، واختلافها على صعيد قوّة الأحزاب الأحادية وتجذّرها، وحجم التحالفات الموجودة بينها وبين البنى السياسية والاجتماعية والاقتصادية، أو على صعيد قوّة الأحزاب والقوى المعارضة، ونضجها، وقدرتها على الحشد والتعبئة

(١) Ahmed Mahiou, L'avenement du parti unique en Afrique noire: l'expérience des états d'expression française, coll. Bibliothèque africaine et malgache Droit et Sociologie, Librairie général de droit et de jurisprudence, 1969, 421 pages.

(٢) هناك عدد من الدول الإفريقية عرفت الانفتاح السياسي والتعددية الحزبية قبل تسعينيات القرن الماضي.

الاجتماعية.

يمكن التمييز بين ثلاثة أنواع من مسارات التحوّل الديمقراطي في المنطقة، مع ملاحظة أنّ الحالة الواحدة قد تأخذ بأكثر من مسار:

١ - التحوّل المتوازي: وهو ما يُعرف لدى البعض بالتحوّل المفاوضة *transition négociée*، ويعني: اتفاق قيادات الحزب الأحاديّ والقوى السياسية والمدنية المعارضة على أرضية مشتركة؛ للانتقال إلى الديمقراطية والانفتاح السياسي والتعددية الحزبية، وتعدّ «المؤتمرات الوطنية» من أهمّ الصيغ الإجرائية التي تبنتها الدول الإفريقية، خصوصاً الفرنكفونية منها، وتعدّ بنين والغابون وكونغو برازافيل والنيجر وتوغو والكونغو الديمقراطية؛ من أهمّ الدول الإفريقية التي جرّبت هذا المسار.

٢ - التحوّل من الأعلى: تكون فيه مبادرة التحوّل الديمقراطي من الحزب الأحادي؛ كإجراء استباقيّ للتصدّي للضغوط الداخلية والخارجية، إمّا عن طريق دعوة القوى الحيّة إلى مؤتمرات وطنية لتبني سياسات مصمّمة مسبقاً من الحزب الحاكم، وإمّا عن طريق إجراء تعديلات دستورية تراعي بعض مطالب المعارضة، وقد نسجّل في هذا المسار كثيراً من الدول الإفريقية، منها: كوت ديفوار، بوركينا فاسو، الكاميرون، مدغشقر، تنزانيا، أوغندا، نيجيريا، غانا.

٣ - التحوّل من الأسفل: يكون نتيجة المطالب والضغوط الشعبية لإحداث التغييرات والإصلاحات اللازمة للتحوّل الديمقراطي، هذا المسار غالباً ما يكون مصاحباً بنوع من العنف عبر احتجاجات ومسيرات القوى السياسيّة والمدنية، ولعلّ حالة الانتقال الديمقراطي في مالي من أهمّ نماذج هذا المسار، حيث دفعت الضغوط الشعبية بعض الجيش بقيادة أمادو تمانى توري إلى الانقلاب على نظام الرئيس موسى تروري الديكتاتوري، كما يمكن إلحاق حالة جنوب إفريقيا بهذا المسار.

المحور الثاني: الشباب والتحوّل الديمقراطي في إفريقيا:

أولاً: السنغال:

١ - الشباب وثورة مايو ١٩٦٨م: بداية المسار نحو التعددية السياسية:

تتميّز الحياة السياسية السنغالية مقارنةً بغيرها من الدول الإفريقية بشيئين: أولهما: السّلم الاجتماعي والاستقرار السياسي النسبي، وثانيهما: الانفتاح المبكّر للتعددية الحزبية، ما يجعل من هذه الدولة أحد أهمّ نماذج التحوّل الديمقراطي الناجح في إفريقيا.

وقد أدى الشباب السنغاليّ عبر الحركة الطلابية دوراً مهمّاً جداً في المعارضة السياسية في عهد ليوبول سيدار سنغور الرئيس الأوّل للسنغال المستقلّة، وليس من المبالغة القول بأنّ شباب الحركة الطلابية كانوا من أهمّ الفاعلين الاجتماعيين الذين ناضلوا ضدّ سلطة «الحزب الواحد»؛ في وقتٍ كان فيه الحقل السياسيّ السنغاليّ المنغلق لا يسمح بالخروج عن الخطّ السياسي للنظام السلطوي.

منذ نجاح سنغور في القضاء على مبادو دياه-زميله ومنافسه السياسيّ ورئيس المجلس الحكومي- في أعقاب الأزمة السياسية التي اندلعت بينهما سنة ١٩٦٢م، أصبح هو الحاكم الوحيد للدولة دون معارضة سياسية حقيقية، في هذا السياق قادت الحركة الطلابية في مايو ١٩٦٨م ثورة نضال كبيرة وشاملة؛ للتديد بسياسات الحزب الواحد والمطالبة برحيل سنغور.

شكّلت الجامعة السنغالية منذ الفترة الاستعمارية بؤرة للمعارضة السياسية للسلطات القائمة، وعليه؛ فإنّه من الصعب تحديد نقطة البداية الحقيقية لانطلاق ثورة مايو ١٩٦٨م، لأنّها كانت عبارة عن انتفاضات متفرّقة، تراكت رويداً رويداً، لتنفجر في مايو ١٩٦٨م، وتصل إلى كلّ المناطق الحضرية.

أمام الأزمة الاقتصادية المتفاقمة عجزت ميزانية الدولة السنغالية عن تغطية نفقات التعليم العالي،

فأخذ سنغور قراراً بإلغاء نسبة ٥٠٪ من المنح الطلابية، وفي ١٨ مارس ١٩٦٨م انتفضت الجموع الطلابية، ونظمت مسيرات احتجاجية ضدّ القرار، استهانت السلطات بالحركة وتجاهلت المطالب الطلابية، فتصاعدت وتيرة الاحتجاج، ففي ١٢ مايو نظّم اتحاد الطلبة السنغاليين يوماً دراسياً حول الأزمة، تمخّض عن الدعوة إلى إسقاط النظام، وتبعه دخول الطلبة في إضراب عمّ غير محدود في ٢٧ مايو، وفي ٢٨ مايو تضامنت نقابة الأساتذة والتلاميذ والعمّال مع الطلّاب وأعلنوا الإضراب، وفي ٢٩ مايو اقتحمت قوآت الأمن الجامعة واعتقلت أعداداً كبيرة من الطلّاب والنقائيين، وفي ٣٠ مايو امتلأت شوارع دكار بالشعب بشرائحه المختلفة، وامتدّت الاحتجاجات إلى الأقاليم والمدن الكبيرة، وفي اليوم نفسه اضطر الرئيس سنغور إلى مخاطبة الشعب في الإذاعة وإعلان حالة الطوارئ، وطلب المعونة من الجيش الفرنسي، ثمّ أخذت الأمور تهدأ في شهر يونيو، وأطلق سراح المعتقلين، وبدأت المفاوضات بين جميع الأطراف المعنية.

كانت هناك عوامل أخرى لثورة مايو ١٩٦٨م غير تخفيض منحة الطلبة، نجدها في البيان الاحتجاجي لاتحاد الطلبة السنغاليين، حيث ندّد بالسياسة التعليمية للدولة، وقلّة النسبة المخصّصة من الميزانية للتعليم مقارنة بميزانية التسيير الحكومي، وبالهيمنة الفرنسية على الجامعة السنغالية.

ونعتقد بأنّه لا يمكن فهم سبب هذه الثورة الشبابية، وانضمام الحركة النقابية وغيرها من الشرائح المجتمعية إليها، إلا بموضعها في سياق «الحزب الواحد»، فكانّ الشعب بأطيافه المختلفة أراد انتهاز هذه الثورة الطلابية ليعبّر عن معارضته لاحتكار نظام «الحزب الواحد» للحقل السياسي، وسدّه لكلّ إمكانات المعارضة والاحتجاج.

كان من النتائج المباشرة لهذه الثورة الشبابية: أنّ شرع سنغور في الإصلاح الدستوري، وإنشاء منصب رئيس الوزراء الذي شغله لأول مرّة عبود ديوف سنة



الديناميات المحليّة هي التي سيكون لها الكلمة الأخيرة في تهيئة مشاركة الشباب في تسيير دولهم نحو الأفضل

الذات، والتعبير عن عدم الرضا بالأوضاع الاجتماعية والاقتصادية الناتجة عن الفساد الإداري، فإنّها كانت ذات أبعاد سياسية، حيث أدت الحركة دوراً كبيراً في انتقال الحكم من حزب عبدو ديوف الاشتراكي الذي حكم البلاد أربعين سنة، إلى حزب عبد الله واد الليبرالي، ليس للخلفية الأيديولوجية لهذا أو ذلك، بل لإرادة التغيير السياسي.

كان عبد الله واد مدركاً لاستياء الشريحة الشبابية من سياسات عبدو ديوف وتطلّعها إلى التغيير، فاستغل ذلك في حملته الانتخابية ضدّ الحزب الاشتراكي، وكان من عاداته في الحملة أن يقول للجموع الشبابية: «ليرفع الشباب الذين ليس لديهم عمل أيديهم»، فيرفع الجميع أيديهم- طبعاً- للبطالة المستشرية بين الشباب، وقد زاد هذا الصنيع من شعبيته؛ لأنّه نجح في أن يقدم نفسه مجسداً للتغيير، مهموم بالشباب على مستوى التأهيل والتوظيف، وقد ولدت هذه الوعود الانتخابية الأمل لدى الشباب.

نشط شباب حركة «بول فالي» في الحشد الشعبي؛ من أجل التغيير ووضع حدّ لإدارة الحزب الاشتراكي، فنظّموا قوافل وحملات في دكار والحواضر الكبيرة، بل توغّلوا إلى القرى والأرياف من أجل توعية القرويين وتشجيعهم على التصويت ضدّ السلطة القائمة، وقد نجحت الحركة، حيث شكّل الشباب نسبة كبيرة من المسجّلين في اللوائح الانتخابية، فمن مجموع

١٩٧٠م، ثم توالى الإصلاحات الدستورية لصالح الانفتاح الديمقراطي والتعددية الحزبية. حيث اعتمد سنغور في ١٩٧٤م التعددية الحزبية المحدودة؛ قبل أن يحرّر الرئيس عبدو ديوف الحقل السياسي، ويؤسس للتعددية الحزبية المطلقة سنة ١٩٨١م، وذلك باعتماده قانون رقم ٨١-١٧ المتعلّق بالأحزاب السياسية، لتكون السنغال بذلك سابقة لجاراتها الإفريقية في التحوّل إلى الديمقراطية.

٢ - حركة «بول فالي» والانتقال الديمقراطي

للسلطة:

مع تحرير الحقل السياسي في عهد عبدو ديوف؛ رأى عددٌ كبيرٌ من الحركات النفاية والأحزاب السياسية النور، إلا أنّ الانفتاح السياسي لم يكن كافياً لوضع حدّ لحالة الاحتقان الاجتماعي والتدهور الاقتصادي، وتفاقمت الأزمة باندلاع التمرد في كازاماس ٢٦ نوفمبر ١٩٨٢م، وبداية ظهور الآثار الاجتماعية الخطيرة لبرامج «التكيّف الهيكلي» التي بدأ تنفيذها سنة ١٩٨٠م، وأخيراً: مع تخفيض قيمة فرنك سيفا سنة ١٩٩٤م وصلت حالة الهشاشة الاقتصادية للقواعد الشعبية أقصاها، وفي هذا السياق ظهرت حركة «بول فالي» Bul faale في الأوساط الشبابية تعبيراً عن الاستياء، ورفض السياسات الاجتماعية والاقتصادية للحكومة.

يمكن أن نترجم عبارة: «بول فالي» في لغة الولوف إلى العربية بـ «لا تشغل بالك»، وهي عبارة رأت النور بوصفها ظاهرة سياسية احتجاجية في مستهلّ تسعينيات القرن الماضي، ثم انتشرت عبر قنوات نشر الثقافات الشعبية، كالموسيقى من خلال فريق الهيب هوب Positive Black Soul الذي أصدر ألبوماً باسم: «بول فالي»، والمصارعة التقليدية؛ من خلال المصارع الأسطوري محمد انداو المعروف باسم «تايزون» الذي افتتح حلبة صراع بالاسم نفسه.

لم تكن «بول فالي»- بالمعنى السياسي الصارم- حركةً سياسية، ولكنّها بوصفها ثقافة شبابية لإثبات

jotna (حان الوقت)، bés du ñàkk (سيأتي يوم)، fekkee mooma maci boole (لأنني شاهد)... وغيرها من التشكيلات السياسية والمدنية التي عبّرت عن رغبتها في مقاطعة السلطة القائمة^(١).

وتعدّ حركة Y en a marre (كفاية) أهمّ الحركات الشبابية التي رأت النور في سياق السخط الجماهيريّ تجاه تنامي حالة الهشاشة الاقتصادية، وفي بيانه لسبب إنشاء حركة «كفاية» قال منسّقها وناطقها الرسمي فاضل بارو Fadel Barro: «في فترة إنشاء الحركة كانت الحياة في السنغال مطبوعة بانقطاعات الكهرباء المستمرة، بالفضائح المالية التي تُقدّر بالمليارات، بظلم اجتماعيّ غير عادي، وبغطرسة نظام عبد الله واد الذي لا يلقى بالألمعانة الشعب.. في تلك الفترة؛ كنا نشعر كمواطنين سنغاليين بتخلّي النخبة السياسية والنقابية والدينية عنا... ففي سياق التفكير والحوار حول هذه القضايا قرّرنا في ليلة من الليالي إنشاء حركة تسمّى بـ (كفاية)^(٢).

إذا كان تردّي الوضع الاقتصادي والاجتماعي هو السبب الرئيس في إنشاء حركة «كفاية»؛ فإنّ تطورات الوضع السياسي بالسنغال هي التي أدت دوراً كبيراً في تشكّل هوية الحركة، وتحديد مسارها النضالي ضدّ سلطة عبد الله واد.

في ٢٠٠٩م خسّر كريم واد ابن الرئيس عبد الله واد الانتخابات البلدية ممثلاً لحزب والده (الحزب الديمقراطي السنغالي)، عقب ذلك تمّ تعيينه وزيراً للتعاون الدولي والنقل الجويّ والبنية التحتية والطاقة؛ بميزانية تقرب من ٥٠٪ من ميزانية الحكومة، منذ ذلك الوقت بدأ الخوف من شخصنة الحكم يتنامى

(١) Moda Dieng, Une jeunesse, deux alternances : De Bul Fale à Y en a marre http://www.leral.net/Une-jeunesse-deux-alternances-De-Bul-Fale-a-Y-en-a-marre_a70723.html

(٢) حوار فاضل بارو مع صحيفة Le faso، على الرابط: <http://efaso.net/spip.php?article48994>

٢,٦١٨,١٧٦ مسجلاً؛ كان ١,١٢٧,١٠٠ منهم شباباً بين ١٨ و ٢٥ سنة؛ أي بنسبة ٤٢٪، وبفضل التعبئة الاجتماعية التي قادها شباب حركة «بول فالي» استطاع المرشّح عبد الله واد الفوز على غريمه السياسيّ الرئيس عبدو ديوف.

لم يكن اصطفاف الحركة الشبابية بجانب حزب عبد الله واد العامل الوحيد في خسارة الحزب الاشتراكي، ولكن من المؤكّد أنّ دور الشباب كان حاسماً جدّاً في الموضوع، وبذلك يكون الشباب من أهمّ الفاعلين الذين أدوا دوراً كبيراً في إحداث التداول السلمي للسلطة للمرّة الأولى في السنغال، ومعلوم بأنّ عملية التداول السلمي للسلطة من أهمّ شرائط التحول الديمقراطي.

٣ - الرئيس واد وحركة «كفاية»: التاريخ يعيد نفسه:

اتخذ الرئيس الجديد عبد الله واد تدابير وآليات لتحسين أوضاع الشباب، منها مثلاً: اعتمادُهُ لاستراتيجيات وخطط عمل لتوظيف الفئة الشبابية، كخطة العمل الوطنية لشغل الشباب Panej، وإنشاء عدد كبير من المؤسسات العاملة في مجال الشباب، من أهمّها: الصندوق الوطني لتمكين الشباب FNPJ، ومكتب توظيف شباب الضواحي OFEJBAN، والوكالة الوطنية لتوظيف الشباب ANEJ، والمجلس الأعلى للتوظيف والتكوين... وغيرها، وبرغم هذه الجهود فإنّ «واد» لم يتمكّن من تخفيض نسبة البطالة بشكل ملاحظ؛ أمام تزايد الخريجين الذين يصل تعدادهم سنوياً قرابة ١٠٠,٠٠٠ شاب وشابة.

برغم إخفاق نظام عبد الله واد في الاستجابة لتطلعات الشعب عامّة، وتطلعات الفئة الشبابية خاصّة، فإنّ المشهد السياسي والاجتماعي السنغالي بقي في العموم مستقرّاً وهادئاً لعشر سنوات، وإن كان يمكن قراءة الغضب الشعبي في عناوين الكثير من الحركات السياسية ومنظمات المجتمع المدني التي نشأت في تلك الفترة، منها مثلاً: dafa doy (حسبنا)، luy jot

في الشارع السنغالي، وفي ٢٠١١م زدادت المخاوف، وتعززت بعد سعي الرئيس واد لتغيير دستوري يسمح له بإنشاء منصب نائب الرئيس، ودلت المؤشرات كلها على أن المنصب أنشئ ليتقلده ابن الرئيس كريم واد؛ تمهيداً لتوريثه الحكم بعد والده.

في هذا السياق؛ انتفضت حركة «كفاية» ضد مشروع القانون، ودعت الشعب للنزول في الشوارع؛ مستخدمة تكنولوجيا التواصل الحديثة كالإنترنت والهواتف المحمولة؛ بموازاة الوسائل التقليدية كالإذاعات والصحف، وقد لبى الشعب بشرائحه المختلفة النداء، فكانت في ٢١ و ٢٢ يونيو مظاهرات ضخمة في كل من العاصمة دكار وكولاك وزينغشور، وغيرها من المدن الكبرى، وفي ٢٣ يونيو يوم التصويت على مشروع القانون تركزت المظاهرات في وسط مدينة دكار، وبالأخص أمام مقر البرلمان الذي شهد أعمال عنف ومواجهات خطيرة بين الشعب وقوات حفظ النظام، أمام هذه المقاومة الشعبية الشرسة اضطر وزير العدل في اليوم نفسه إلى سحب القانون والتنازل لإرادة الشارع.

بعد النجاح في إلزام الحكومة بسحب مشروع القانون تامت شعبية حركة «كفاية» وموثوقيتها في الداخل والخارج، يضاف لذلك أن هذه الأزمة السياسية حدثت في سياق دولي موات لنجاح مثل هذه المبادرات الشعبية التي يؤدي فيها الشباب الثائر دوراً محورياً، فقد شهدت سنة ٢٠١١م اندلاع ثورات الربيع العربي في تونس قبل أن تنتقل إلى مصر، ويصل صداها بشكل أو آخر إلى كل العالم العربي^(١).

وانتهزت حركة «كفاية» فرصة الاصطفاف الشعبي حولها لخوض معارك سياسية أخرى، تركت أثراً كبيراً

في المسار الديمقراطي للدولة السنغالية. كان الرئيس واد في ولايته الأولى (٢٠٠٠م - ٢٠٠٧م) قد قام بإصلاحات دستورية، قلص فيها فترة الرئاسة من سبع إلى خمس سنوات قابلة للتجديد مرة واحدة، وبعد انتخابه رئيساً للدولة في الولاية الثانية كان «واد» قد أشار في غير موقف إلى أنه لن يترشح لولاية جديدة، إلا أنه -متجاهلاً وعوده- ترشح لولاية ثالثة، وأثار بذلك جدلاً كبيراً حول المشروعية القانونية والسياسية والأخلاقية لهذا الصنيع، وفي يناير ٢٠١٣م تدخل المجلس الدستوري وقطع الجدل القانوني بتمريره لملف ترشح «واد»؛ اعتماداً على مبدأ: عدم رجعية القانون.

كان شباب حركة «كفاية»، بعد معركة قانون الانتخابات، قد كرسوا غالبية جهدهم لمعارضة الولاية الثالثة للرئيس واد، وبعد تدخل المجلس الدستوري وانسداد الأفق القانوني للحيلولة دون الولاية الثالثة للرئيس واد، كثف شباب «كفاية» الجهود عبر سلسلة كبيرة من الإجراءات، شملت المظاهرات والمسيرات الاحتجاجية، بالإضافة إلى عمليات التوعية الشعبية من أجل التسجيل في اللوائح الانتخابية، والتصويت ضد حزب الرئيس واد.

تمكّن المرشح «ماكي سال» من الفوز على الرئيس واد في الجولة الثانية من الانتخابات الرئاسية، بنسبة ٦٥,٨٠٪ صوتاً ضد ٣٤,٢٠٪. بفضل الحشد الشعبي لحركة «كفاية» وغيرها من القوى المجتمعية.

هذا الحدث يؤكد -بالإضافة إلى ثورة الطلاب في مايو ١٩٦٨م في عهد الرئيس سنغور، وحركة «بول فالي» ضد الرئيس عبدو ديوف في العقدين الأخيرين من القرن الماضي- دور الشباب التاريخي في مسار الديمقراطية، والانتقال السلمي للحكم في السنغال.

فهل كانت السنغال حالة استثنائية في المنطقة؟ أو أن هناك دولاً أخرى أدت فيها الشريحة الشبابية دوراً مماثلاً في التحول الديمقراطي؟ هذا ما سننقف عليه في الفقرة التالية.

(١) للوقوف على علاقات التأثير والتأثير بين الربيع العربي وحركة «كفاية» انظر: «تداعيات الثورة العربية على الحراك السنغالي»، د. هارون باه، مجلة البحثية للعلوم الإنسانية والاجتماعية، م ١، ٢٠١٤م، منشورات مؤسسة خالد الحسن، مركز الدراسات والأبحاث.

ثانياً: بوركينافاسو:

مكتوب عليها: «الخبز، الماء، والديمقراطية»، وسرعان ما التحقت أطراف المجتمع بالشباب والنقائبيين، ووصل عدد المتظاهرين إلى أكثر من ١٠٠,٠٠٠ شخص في العاصمة واغادوغو فقط، وأمام هذا الضغط أعلن الرئيس تنازله عن سياسات التقشف التي اتخذها، إلا أن هذا التنازل لم يكف لتهدئة غضب الشارع الذي رفع سقف المطالب إلى تحيّي الرئيس، في النهاية أدرك الرئيس أنه لن يستطيع فعل شيء لكسب ثقة الشعب من جديد؛ فاضطرّ إلى التنازل عن السلطة لصالح أبي بكر سنغولي لاميزانا الذي كان المفاوض الوسيط بين المتظاهرين والرئيس.

٢ - بوركينافاسو في وحلّ الحكم العسكري:

استمرّ سنغولي في السلطة ١٤ عاماً، وفي ١٩٨٠م نظمت نقابات الأساتذة مظاهرات ضدّه، وتصاعدت وتيرة المظاهرات، حتّى عمّت جميع الشرائح الاجتماعية، فقام وزير خارجيته الأسبق سي زيبو بالانقلاب عليه، وتقلّد منصب رئاسة الدولة، ثمّ لم يتمكّن الانقلابي الجديد من التحكّم بالوضع، حيث وُوجه هو الآخر بمظاهرات عنيفة من النقائبيين، ما دفع جان باتست ويدراغو إلى الانقلاب عليه سنة ١٩٨٢م، وفي ١٩٨٢م بعد خلافات سياسية بين ويدراغو والانقلابي الجديد ورئيس وزرائه توماس سنكارا؛ عزل الرئيس وزيره الأول، فقام سنكارا بتنظيم انقلاب ضدّه سنة ١٩٨٤م.

في عهد الرئيس سنكارا عاشت فولتا العليا (بوركينافاسو) في فترة من الهدوء والاستقرار بسبب الدعم الشعبي الذي تمتّع به الرجل، بالإضافة إلى بوادر الإقلاع الاقتصادي التي بدأت تلوح في الأفق؛ بفضل الإصلاحات الجذرية التي اتخذها في مجال الزراعة والتعليم ومحاربة الفساد، كان الرئيس سنكارا داعياً إلى القطيعة مع الغرب^(٢)، معارضاً

١ - ثورة ١٩٦٦م: انتفاضة شعب من أجل الخبز والماء والديمقراطية:

بعد الاستقلال، رغبة في القطيعة مع النظام الاستعماري، وتعزيز السيادة الوطنية، اعتمدت فولتا العليا (بوركينافاسو) دستوراً جديداً في ديسمبر ١٩٦٠م، ولكن النظام الدستوري للدولة الجديدة انهار بعد انتفاضة شعبية سنة ١٩٦٦م ضدّ سلطة الرئيس موريس ياميفو.

بعد تحقيق فوز كبير في الانتخابات الرئاسية سنة ١٩٦٥م، بنسبة تتجاوز ٩٩٪ من مجموع الأصوات، واجه الرئيس الأوّل لفولتا العليا (بوركينافاسو) المستقلة موريس ياميفو أزمة اقتصادية كبيرة؛ ناتجة عن الفساد الإداري والتدبير السيء للموارد الوطنية، وفي ١٩٦٦م اتخذ الرئيس تدابير إصلاحية، ممثلة في سياسات التقشف التي من ضمنها: تخفيض نسبة ٢٠٪ من أجور العاملين، ووقف ترفيتهم لمدة سنتين، ووضع حدّ للعلاوات الأسرية والدعم الحكومي للمدارس الأهلية، هذا في حين كان الرئيس وأعضاء حكومته ينفقون المبالغ الضخمة في رفاهيتهم، حيث كان الرئيس في هذه الأثناء يحتفل بزفافه مع زوجته الثانية- ملكة جمال كوت ديفوار- في برازليا^(١).

إزاء سياسات التقشف، التي تمسّ بالدرجة الأولى العاملين في الوظائف العمومية، بدأت الحركات النقابية النزول إلى الشوارع مطالبة بحقوقها، فقام الرئيس بمنع الاجتماعات النقابية وحجر الحق في التظاهر، اخترق النقابيون الحجر ودعوا الشعب للتظاهر يوم ٢ يناير ١٩٦٦م، كان الشباب في واجهة الملبّين للدعوة، فقد كان طلاب الجامعات وتلاميذ المدارس أوّل النازلين إلى الشارع حاملين لافتات

(١) <http://lemessengerdafrique.mondoblog.org/2013-3-janvier-1966-le-premier-02/01/org/2013-soulevement-populaire-contre-un-regime-en-afrique>

(٢) توماس سنكارا: هو من غير اسم الدولة من «فولتا العليا» إلى «بوركينافاسو» سنة ١٩٨٤م، لأنّ الاسم الأوّل كان

للإمبريالية وسياسات الاستعمار الجديد التي تتبعها القوى العالمية تجاه إفريقيا، وبرغم تحسُّن الأوضاع الاقتصادية للبلد في عهده؛ فإنَّ الرجل راح ضحيَّة توجُّهه السياسيِّ المعادي للغرب، حيث قام زميله ورفيق دربه بليز كومباوري بالانقلاب عليه سنة ١٩٨٧م، بعد أربع سنوات من حكمه الرشيد.

٣ - بوركينافاسو في عهد الديمقراطية الشكلية: في عهد الرئيس بليز عرفت الدولة للمرة الأولى انفتاحاً سياسياً، وانتقالاً إلى التعددية الحزبية، استجابةً للضغوط الداخلية، وانسجاماً مع السياق الإقليمي الذي أصبح فيه التحول الديمقراطي ظاهرة عامَّة، ففي ١٩٩١م اعتمدت الدولة- بعد استفتاء شعبيٍّ للمرة الأولى من تاريخها- دستوراً جديداً يفتح الحقل السياسي، ويتقبَّل المعارضة والتعددية الحزبية. التحول الديمقراطي في بوركينافاسو كان على خلاف بنين وتوغو والنيجر، وغيرها من دول المنطقة التي كانت فيها عملية الديمقراطية صريحاً وعادل بين القوى والمكونات السياسية والاجتماعية، كان الأمر في بوركينافاسو إجراءً استباقياً من نظام بليز لتكميم أفواه المعارضين والتخلُّص من الضغوط الخارجية.

كان الدستور المعتمد ١٩٩١م في مادته الـ ٣٧ يحدِّد مدة الرئاسة بسبع سنوات قابلة للتجديد مرَّة واحدة، وقبل سنة من انتخابات ١٩٩٨م قام بليز بتعديل الدستور وحذف بند تحديد الولاية الرئاسية بفترتين، ثمَّ شارك في الانتخابات وفاز برغم النسبة الضئيلة جداً للمشاركة في الانتخابات، التي لم تتجاوز ٢٥٪ من المسجلين، وفي ٢٠٠٠م، في سياق الانتفاضة الشعبية بسبب مقتل الإعلامي نوبر زنجو- الذي كان يقوم بتحقيقات تمسُّ الرئيس والمقرَّبين إليه، قام بليز

استعماريًّا، و «بوركينافاسو»: عبارة عن كلمتين مركبتين من لغة موري وجولا المحليتين، ويمكن ترجمتها بالعربية بـ «بلد الرجال الكحل».

بتعديل الدستور مجدِّداً وتحديد فترة الرئاسة بخمس سنوات قابلة للتجديد مرَّة واحدة، رغبةً منه في تسكين غليان الشارع، ولكن تمسكاً بمبدأ «عدم رجعية القانون» قام بليز بالترشُّح مرَّة أخرى في ٢٠٠٥م و ٢٠١٠م، وحقَّق فيهما فوزاً كبيراً.

بعد انتخابه رئيساً للبلاد للمرة الرابعة في ٢٠١٠م، رجع بليز إلى عادته، وشرع في اتخاذ إجراءات لتعديل الدستور منذ ٢٠١١م، ليتمكَّن من الترشُّح مرَّة أخرى في انتخابات ٢٠١٥م، هذا الأمر أحدث جدلاً كبيراً في المسرح السياسيِّ البوركيني، حتَّى في صفوف الحزب الحاكم وحلفائه التقليديين، فضلاً عن الأحزاب السياسية المعارضة ومنظمات المجتمع المدني.

٤ - «المكنسة الوطنية» وانهايار نظام بليز:

كانت الحركة الشبابية المعروفة بـ «المكنسة الوطنية» على رأس منظمات المجتمع المدني التي ناضلت ضدَّ تعديل المادة ٣٧ من الدستور البوركيني، تأسست الحركة عام ٢٠١٢م من قِبَل فنائين شائِئين؛ من أجل التعبير عن الاستياء حيال الفساد المالي، وانتهاكات حقوق الإنسان، وانغلاق الحقل السياسي الذي احتكره رجلٌ واحدٌ منذ ما يقرب من ٢٧ سنة.

انضمَّ الشباب إلى الحركة بشكل كبير، وهم في غالبيتهم لم يعرفوا نظاماً آخر غير نظام بليز، حيث وُلدوا وعاشوا في ظلِّ حكمه الطويل، لم يكتف الشباب بإبداء معارضتهم لسياسة بليز، بل اتخذوا مبادرات مدنية تعبَّر عن وطنيتهم العالية، وتعدُّ عمليات تطهير وتطهير الطرقات والشوارع والمستشفيات وغيرها؛ من أهمِّ هذه المبادرات التي ساهمت مساهمةً كبيرةً في منح الثقة بالحركة، ودفعت الشباب إلى الانخراط فيها بشكل كبير.

وعلى غرار حركة «كفاية» بالسَّنغال؛ فإنَّ انقطاع الكهرباء، وقذارة الشوارع والأماكن العمومية، والبطالة، والهشاشة الاقتصادية... وغيرها من الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية المتردية، هي العوامل الأساسية لميلاد حركة «المكنسة الوطنية»، وبعيداً

وبيوت بعض القيادات السياسية المؤيدة للرئيس بليز، ثم توجهت الجموع الغاضبة إلى القصر الرئاسي بحي وغا ٢٠٠٠ الفاخر، فاضطرَّ الرئيس بليز إلى التخلي عن مشروع التعديل الدستوري، وحاول أن يقنع الشعب بالرجوع إلى المنازل دون جدوى، حيث لم تعد المسألة مسألة مادّة دستورية واحدة، فقد انقطعت عرى الثقة بين القمة والقاعدة، ووصل الأمر إلى حدّ لم تعد فيه الجموع الثائرة تتحمّل النخبة الحاكمة، وبعد محاولات عدّة لاستيعاب الأزمة؛ أيقن الرئيس بليز أنّ لا منجى له إلا بالاستقالة والهروب خارج البلاد.

٥ - الفترة الانتقالية ومواجهة «المكنسة الوطنية» للدولة العميقة وقلول النظام السابق:
بعد سقوط نظام بليز نشأ فراغ تشريعي، فقام إسحاق زيدا- قائد كتيبة الحرس الرئاسي- بتعطيل الدستور ومؤسسات الدولة وإعلان نفسه رئيساً جديداً لبوركينا فاسو، فقامت المجموعة الاقتصادية لدول غرب إفريقيا (إيكواس) بإدانة بوركينا وتعليق عضويتها وفق «الميثاق الإفريقي للديمقراطية والانتخابات والحوكمة الرشيدة»، فاضطرَّ العسكر تحت الضغوط الداخلية والخارجية إلى التّحّي واختيار رئيسٍ مدنيّ (ميشيل كافاندو)، والعودة إلى الشرعية الدستورية.

لم تنته مهمة حركة «المكنسة الوطنية» برحيل بليز كومباوري، بل أدت بالإضافة إلى القوى المجتمعية الأخرى دوراً كبيراً في حراسة الديمقراطية، ومحاربة قلول نظام بليز في الفترة الانتقالية، يمكن تلمّس دور الحركة في هذه الفترة في مساعيها من أجل استقالة أحد وزراء الفترة الانتقالية المُتهمين بالفساد المالي، وفي جهودها في حلّ كتيبة الحرس الرئاسي التي كانت آلة عسكرية يديرها الرئيس بليز عن بُعد.

لا شكّ بأنّه لم يكن لشباب حركة «المكنسة الوطنية» أن يحققوا كلّ هذه النجاحات بمفردهم لو لم يحظوا بدعم القوى المجتمعية الأخرى، ولكن مع ذلك تبقى الحركة هنا من أهمّ الفاعلين المدنيين الذين قاموا بدورٍ محوريّ في إسقاط أنظمة تتسبب إلى

عن المعترك السياسيّ فقد كانت المظاهرات الأولى التي نظمتها الحركة داخلة في الإطار الاجتماعي، كالاتصام الذي نظّمته لاستتكار انقطاع الكهرباء المتكررة في العاصمة وغاندوغو، والاعتصام الذي نظّمته أمام أحد المستشفيات العمومية لإجبار إدارتها على الاعتذار عن سوء الخدمات والتعهد بتحسينها.

وفي خضمّ النقاش الوطنيّ حول تعديل المادّة ٢٧؛ تدخلت الحركة خطّ المعارضة السياسية ضدّ مشروع الرئيس بليز كومباوري، صحيح أنّ الأحزاب السياسية أبدت معارضتها للمشروع منذ ٢٠١١م، إلا أنّ دخول حركة «المكنسة الوطنية» في الخطّ أعطى زخماً كبيراً، حيث نقل معارضة المشروع من المعارك السياسية الضيقة إلى قضية وطنية مصيرية للدولة والأمة.

في ٢٨ أكتوبر، قبل يومين من تاريخ التصويت على مشروع مراجعة الدستور في البرلمان، نظّمت الحركة بالتنسيق مع تحالف الأحزاب السياسية المعارضة ومنظمات المجتمع المدني مسيرة مليونية في «ميدان الثورة» بالعاصمة وغاندوغو؛ لإقناع الرئيس بالتخلي عن رغبته في تعديل الدستور والترشّح لولاية أخرى، ولكن هذا الحشد الشعبي الذي لم يشهد البلد مثله لم يكن كافياً لجعل الرئيس بليز يتراجع عن مشروعه، فزاد ذلك من تصميم الحركة الشبابية وعزمها، فنزلت في الميدان تتجوّل في الطرقات والشوارع لحشد الناس ودعوتهم إلى المشاركة في المسيرة التي تعتزم الحركة تنظيمها في ٣٠ أكتوبر يوم التصويت على المشروع في البرلمان. وتمكّنت الحركة من كسب تجاوب القاعدة الشعبية، حيث استجاب الناس للدعوة، ونزلوا إلى الشوارع زرافات وفرادى يوم ٣٠ أكتوبر للحيلولة دون تمرير البرلمان للتعديل الدستوري، وعمّت المظاهرات كلّ الحواضر الكبرى للدولة، وبعد ساعات من المواجهات مع قوات الأمن استطاع الثوّار في العاصمة وغاندوغو الوصول إلى مبنى البرلمان وإضرام النار عليه، كما أضرموا النار على مبنى التلفزيون الوطني،

الديمقراطية شكلاً، وترفض كلَّ تغييرٍ سلميٍّ للسلطة عن طريق صناديق الاقتراع.

المحور الثالث: الشباب وآفاق الديمقراطية في إفريقيا:

لم يكن اختيارنا لهاتين الدولتين (السنغال، وبوركينا فاسو) لتفردهما بالمشاركة الشبابية في تعزيز العملية الديمقراطية والانتقال السلمي للسلطة فقط، بل لاعتبارات أخرى، من أهمها: حداثة التجربة ونجاحها الباهر في الدولتين، بالإضافة إلى الزخم الإعلامي الذي صاحبهما، في تزامن مع ما كان يجري في العالم العربي من ثورات شعبية قادتها الشريحة الشبابية ضد الديكتاتورية في تونس ومصر وليبيا واليمن وسوريا...، وبرغم أن الديناميات الداخلية الخاصة بالدول المعنية هي التي تفسر هذه الانتفاضات الشعبية؛ فإنَّ علاقات التأثير والتأثير غير مستبعدة في عالم تتنقل فيه الأخبار بسرعة الضوء.

في ظلِّ ما سبق: أيُّ مستقبل للمشاركة الشبابية في العملية الديمقراطية تأسيساً وتعزيزاً في دول إفريقيا جنوب الصحراء؟

في الإجابة عن هذا السؤال، نزعم بأنَّ دور الشباب في تثبيت دعائم الديمقراطية سيتنامى بشكل كبير، وذلك للمعطيات الواقعية الآتية:

١ - المعطى الديموغرافي: تُقدَّر الدراسات السكانية بأنَّ ما لا يقلُّ عن ثلثي سكان القارة من الشباب، ما يجعل من هذه الشريحة رهاناً سياسياً في المستقبل القريب والمتوسَّط، وإن كانت بحاجة إلى التوعية والتأهيل لتتمكَّن من القيام بمسؤوليتها تجاه دولها وأمتها بكفاءة ومهنية.

٢ - المعطى العولمي: برغم أن الديناميات المحليَّة هي التي سيكون لها الكلمة الأخيرة في تهيئة مشاركة الشباب في تسيير دولهم نحو الأفضل؛ فإنَّ تعولم قضية الشباب والسياسات الإقليمية والدولية؛ تسمح بالتنبؤ بأنَّ القارة الإفريقية ستشهد، على غرار

القارات الأخرى، مزيداً من مشاركة الشباب في تعزيز الديمقراطية في بلدانهم.

٢ - معطى الاندماج الإقليمي: تتجه القارة الإفريقية إلى الاندماج السياسي والاقتصادي في إطار اتحاديات وكتل إقليمية، كالمجموعة الاقتصادية لدول غرب إفريقيا، وقارية كالاتحاد الإفريقي، هذا الاندماج سيؤدِّي في النهاية- ليس فقط إلى تقريب المعايير والحقائق السياسية والاقتصادية؛ بل أكثر من ذلك- إلى التقريب بين الشعوب، والانتقال السريع لتجارب سياسية ومدنية من دولة إلى أخرى، وفي هذا الإطار نشير إلى ما أكده كثيرٌ من الباحثين والمحللين بخصوص استفادة حركة «المكنسة الوطنية» ببوركينا فاسو من تجربة حركة «كفاية» بالسنغال على مستوى التنظيم واستراتيجيات التواصل والحشد الشعبي، ومعلوم أنَّه كانت هناك زيارات ثنائية الجانب بين قيادات الحركتين لتبادل الخبرات^(١).

هذا، ويربط كثيرٌ من الباحثين كذلك بين نجاح الحركتين وظاهرة نشوء أشكال جديدة من التشكيلات الشبابية في كثير من الدول الإفريقية، تنشأ في الغالب بشكل عفويٍّ كحركات غير سياسية؛ مطالبةً بتحسين الأوضاع الاجتماعية، ومنددةً بسوء الإدارة والفساد المالي والاستبداد السياسي.

ويمكن أن نذكر من هذه الحركات التي نشأت في السنوات الخمس الماضية في الدول الإفريقية: حركة Filimbi في الكونغو الديمقراطية، وتعني: «الصفارة» بالسواحلية، وفي الغابون حركة Çà suffit comme ça، وتعني: «يكفي هكذا» بالفرنسية، وفي بورندي حركة Tournons la Page، وتعني: «لنقلب الصفحة» بالفرنسية ■

(١) Benjamin Roger, Y'en a marre », « Balai citoyen », « Filimbi... : l'essor des sentinelles de la démocratie, Jeune Afrique, <http://www.jeuneafrique.com/228193/politique/y-en-a-marre-balai-citoyen-filimbi-l-essor-des-sentinelles-de-la-d-mocratie>



الشباب الإفريقي وتكنولوجيا المعلومات

والتواصل: أي تأثير في البنية المجتمعية؟

أ. سعيد دوغونا

باحث دكتوراه في القانون العام، جامعة ليل،
فرنسا



حسب

توقعات المتخصصين؛ في أقل من جيلين سيبلغ عدد الشباب في إفريقيا ٣٤٠ مليون فرد، وفي الوقت نفسه سيكون هناك نقص في عدد الشباب بكل من القارة الأوروبية والآسيوية وأمريكا الجنوبية، وبذلك ستمثل القارة الإفريقية في عام ٢٠٣٥ أكبر موطن يتجمع فيه أكبر تعداد من فئات القوة الدافعة والمحركة؛ أي القوة العاملة.

هذه التوقعات تمثل بالنسبة لإفريقيا بشارات يجب التنويه بها، ولكنها في الوقت نفسه تمثل تحدياً كبيراً بالنسبة لها في إيجاد أرضية مناسبة تلبي احتياجات الشباب من حيث التربية والصحة والعمل.

في الوقت الراهن، وبفعل الانفجار المعرفي والثورة التكنولوجية، أصبح الشباب في إفريقيا يطلع- بكل سهولة- على المتغيرات السياسية والاجتماعية لمحيطه، وذلك عبر الوسائل المعلوماتية المعاصرة التي أصبحت من المستحيل أن تكون تحت سيطرة أي واحد من الساسة أو أي نظام سياسي قائم.

ولئن تميّز القرن التاسع عشر بما سُمّي بالثورة الصناعية؛ فإن هذا القرن الذي نعيش فيه يتميز بما يمكن أن يُسمّى: «الثورة التكنولوجية والمعلوماتية»، ولئن تخلّفت إفريقيا عن موعد الثورة الصناعية؛ فإنه ينبغي أن تنتهز فرصة هذه الثورة المعلوماتية والتكنولوجية لتكون في مصاف الدول القوية، وهذه المسؤولية إنما تقع أساساً على عاتق الشباب؛ بوصفهم الركيزة الأساسية لعملية الإقلاع النوعي نحو المستقبل، ولأنّ مشكلات الشباب في إفريقيا أصبحت معادلة يصعب حلّها بمعزل عن الشباب أنفسهم.

منذ السنوات الأولى من حركات الاستقلال؛ هناك محاولات عدّة لاحتواء فئة الشباب، وضمان حياة كريمة لهم، ولكن نتائج هذه المحاولات بقيت ضعيفة أو دون

جدوى تريبياً واجتماعياً واقتصادياً. وعليه فهناك حاجة ملحّة لإيجاد الأجوبة المناسبة لمشكلات الشباب في جميع المستويات؛ وطنية أو إقليمية.

وتلعب تكنولوجيا المعلومات والاتصالات (TIC) دوراً مهماً وامتزاجاً في زيادة الإنتاجية من خلال الاقتصاد الرقمي، وتحسين الخدمات العامة والخاصة، وتنفيذ الأهداف الاجتماعية والاقتصادية العامة؛ في مجالات التعليم والصحة والعمل والتنمية الاجتماعية، لهذا السبب؛ فإنّ البلدان تعمل على تطوير سياسات تكنولوجيا المعلومات والاتصالات لدعم النمو (La croissance) في مختلف القطاعات الاقتصادية والاجتماعية، وتعزيز القدرة على المنافسة وتحويل الفرص.

وفي السياق نفسه؛ تعدّ تكنولوجيا المعلومات والتواصل في الوقت الراهن وسيلة للشباب في إفريقيا لإنشاء المؤسسات المبتكرة، والاستثمار في مجال المقاولاتية/ريادة الأعمال، بعيداً عن الاستخدام الشخصي القائم على استهلاك واستخدام ما هو جاهز أو نصف جاهز من صفحات التواصل الاجتماعي أو المواقع أو حتى الأفكار، فقد بدأت آفاق الإنتاج المهنيّ المبدع فكرياً في هذا المجال في إفريقيا، حيث ظهرت مهنٌ جديدة على الساحة الاقتصادية المحلية، كما ينشط حالياً عددٌ كبيرٌ من المؤسسات المستقلة المتخصصة- تماماً أو جزئياً- في تكنولوجيا الإعلام والاتصال، وهي ذات خدمة عامة.

نحاول في هذه الورقة تسليط الضوء على استخدام الشباب في إفريقيا لوسائل تكنولوجيا المعلومات والتواصل، وتأثير ذلك في المجتمع والسياسة وإنشاء فرص العمل، وذلك من خلال محاولة الإجابة عن مجموعة إشكالات تتعلق بواقع استخدام تكنولوجيا المعلومات والتواصل في إفريقيا، ومجالات توظيفها التعليمية والتثقيفية والتوعوية، وآفاقها الاجتماعية والسياسية والمهنية والاستثمارية.

تكنولوجيا المعلومات والتواصل في إفريقيا: أرقام وإحصائيات؛

بالإنترنت، بحيث يمثل هذا النمو نسبة ٢١٧٪ من مجموع أعداد المستخدمين للإنترنت في القارة.

وفي قطاع الاتصالات الخلوية المتقلة (الهواتف النقالة)؛ يقدر التقرير نفسه وجود سبعة مليارات مشترك بالاتصالات المتقلة حتى نهاية ٢٠١٤م، وهو رقم يكاد يعادل مجموع سكان العالم، ولكن لا يُستتج من ذلك أن كل العالم موصول بالتكنولوجيا الخلوية النقالة، لأن العديد من المستخدمين يمتلكون اشتراكات متعددة، ولهذا السبب؛ فإن أرقام النمو العالمي من حيث التغطية الشبكية تُترجم أحياناً إلى نزر يسير من التحسن الحقيقي في مستوى توصيلية من هم في أسفل الهرم، وفي التسلسل الفكري نفسه، تجدر الإشارة إلى أنه يعيش ما يقدر بـ ٤٥٠ مليون شخص في العالم في أماكن لا تزال بعيدة عن تغطية الخدمة الخلوية المتقلة. وبرغم هذه الصعوبة في البلدان النامية؛ تأتي إفريقيا في المرتبة الثانية من حيث عدد المتصلين بالاتصالات الخلوية المتقلة بعد منطقة آسيا الباسيفيك (آسيا - المحيط الهادئ)^(٣)، فحسب الدراسة التي أجرتها أفروباروميتر (afrobaromètre)، بين عامي ٢٠١١م - ٢٠١٢م؛ فإن ٩٢٪ من سكان القارة الإفريقية لديهم هاتف نقال.

وعلى نحو مشجع؛ يشير التقرير نفسه إلى تحسينات كبيرة في النفاذ إلى عرض النطاق الدولي في البلدان الأكثر فقراً، حيث إن حصة البلدان النامية من الإجمالي العالمي لعرض النطاق الدولي ارتفعت من ٩٪ فقط في عام ٢٠٠٤م إلى أكثر من ٢٠٪ في عام ٢٠١٤م، ولكن الافتقار إلى ما يكفي من عرض نطاق الإنترنت الدولي في أقل البلدان توصيلاً لا يزال يشكل عائقاً كبيراً أمام الإقبال على تكنولوجيا المعلومات والتواصل في هذه البلدان.

في الوقت الحاضر؛ أصبحت تكنولوجيا المعلومات والتواصل، حتى في الدول النامية، ضرورة من ضرورات الحياة الإنسانية، فهي بمثابة الغذاء، على مستوى المؤسسات أو الأفراد، لذا؛ عاماً بعد عام تزداد أعداد المستخدمين لها بالملايين، يفيد التقرير السنوي للاتحاد الدولي للاتصالات عام ٢٠١٤م^(١) بوجود أكثر من ثلاثة مليارات شخص على شبكة الإنترنت، وبأن نمو تكنولوجيا المعلومات والتواصل يظل مزدهراً في كل بلد من بلدان العالم تقريباً.

وتشير أحدث هذه البيانات إلى أن استخدام الإنترنت لا يزال ينمو بأطراد بنسبة ٦,٦٪ على مستوى العالم في عام ٢٠١٤م، ويمثل هذا النمو في الدول المتقدمة نسبة ٢,٢٪، وفي الدول النامية ٨,٧٪، وتفيد البيانات نفسها بأن هناك تضاعفاً في عدد مستخدمي الإنترنت في الدول النامية ما بين عامي ٢٠٠٩م - ٢٠١٤م، بحيث أصبحوا يمثلون ثلثي مستهلكي الإنترنت في العالم.

وبرغم هذه الإحصائية التي تبدو في الوهلة الأولى إيجابية من حيث التقدم التكنولوجي للدول النامية بما فيها إفريقيا بتعداد كبير، فإنها تخفي حقائق عميقة، حيث تشير الدراسة نفسها إلى وجود ٤,٢ مليارات شخص لم يستخدموا الإنترنت قط في حياتهم، وإلى أن ٩٠٪ منهم يعيش في بلدان العالم النامي.

بخصوص إفريقيا؛ تشير الأرقام التي نشرتها بينغدوم (Pingdom)^(٢) إلى أن أعداد المستخدمين للإنترنت في إفريقيا انتقلت من ٢٤ مليون إلى ١٤٠ مليون بين ٢٠٠٧م و ٢٠١٢م، وبذلك تكون إفريقيا أكبر منطقة تسجل أكبر نسبة نمو من حيث الاتصال

(١) http://www.itu.int/net/pressoffice/press_68-fr.aspx#.WDLp0rLhDIU/releases/2014

(٢) <http://royal.pingdom.com/2012/04/19/world-internet-population-has-doubled-in-the-last-5-years>

(٣) منطقة (آسيا - المحيط الهادئ): هي جزء من العالم يقع غرب المحيط الهادئ، وتختلف في الحجم حسب السياق الذي يعتبر ضمنها، ولكن بشكل أساسي؛ تشمل معظم شرق آسيا، جنوب آسيا، جنوب شرق آسيا، وأوقيانوسيا.

واقع تكنولوجيا المعلومات والتواصل في إفريقيا وعلاقتها بالتنمية؛

إيجابياً في تخفيض التكاليف في القطاعات الأخرى، وبالخصوص في قطاع الخدمات.

إنَّ التنمية في مجال تكنولوجيا المعلومات والاتصالات لا تخصُّ فقط استخدام وسائل المعلومات المتعددة من أجل المردود الاقتصادي؛ بل تَمَسُّ بشكلٍ أوسع جوانب كبيرة من سياسات واستراتيجيات التنمية التي تتعلق بالتنمية السياسية والاجتماعية وغيرها، وقد تتعلق كذلك بالجانب الإعلامي لتوعية المواطن في المشاركة في المبادرات أو الفعاليات والأنشطة المتعلقة بالتغييرات المجتمعية.

تأخذ تكنولوجيا الاتصالات والإنترنت اليوم مركزية كبيرة في تحقيق التنمية، لذا فإنَّ المؤسسات الإقليمية العاملة في الاندماج الاقتصادي للدول الإفريقية تدعم الحكومات في الحصول على تقنية الألياف البصرية، فقد قام الاتحاد الاقتصادي والنقدي لغرب إفريقيا (UEMOA) بالتعاون مع البنك الإفريقي للتنمية مع مستثمرين آخرين بدعم مشروع؛ يهدف إلى توفير الإنترنت عن طريق تقنية الألياف البصرية^(١) (كابل أوبتيك) في منطقة غرب إفريقيا.

وفي منطقة الشرق-الوسطي الإفريقي يتم العمل في مشروع (EASSY) Eastern African Submarine Cable System، وهو مشروعٌ يستخدم تقنية الألياف البصرية نفسها، يمتدُّ من جنوب إفريقيا مروراً بالسودان إلى جمهورية مدغشقر.

أصبحت تكنولوجيا المعلومات والتواصل اليوم مقياساً لتقدُّم الدول ومصدراً للتنمية ورافعةً اقتصادية كبيرة، وقد أدرك كثيرٌ من الدول الإفريقية هذه الحقيقة؛ لذا تتناوب الشركات العالمية في إفريقيا من أجل الاستثمار في هذا القطاع.

وقد أكد- في لقاءه مع وفدٍ من مفوضية الاتحاد الإفريقي- الدكتور غونغ يون شينغ ممثل شركة

من حيث تحقيق التنمية المستدامة عن طريق تكنولوجيا المعلومات والاتصالات؛ فإنَّ هناك عائقين يحولان دون هذا التحقيق في إفريقيا: العائق الأول: هو النظرة التقليدية لبعض الساسة الذين يرون الاستثمار في هذا المجال نوعاً من إسراف المال العام، فالأولوية عندهم هي أن تُصرف هذه الأموال في القطاعات التقليدية، والعائق الثاني: هو الصعوبة البالغة في تحديد الوزن الاقتصادي والاجتماعي الحقيقي لتكنولوجيا المعلومات والاتصالات في التنمية.

إذا لم يكن بإمكاننا إنكار أولوية الاستثمار في القطاعات التقليدية، وإنكار أنَّ معدومية البنية التحتية الأساسية في منطقة معينة يشكّل مشكلة تنموية كبيرة، فإنه يجب الإشارة إلى أنه في المجتمع والاقتصاد الذي نعيش فيهما اليوم أصبحت وسائل تكنولوجيا المعلومات والاتصالات هي العامل الجديد للإنتاجية، وجذب الاستثمار، فتطوّر هذا القطاع وتنميته يؤثّر بشكل عميق في بقية القطاعات، ويقدم لها يد العون لتتقدم بسرعة فائقة، لسنا مضطرين أن نمرّ بالضرورة بالمراحل التي مرّت بها بقية الدول لنحقق التنمية؛ لأنَّ التطور الرقمي الذي نعيش فيه يقدم لنا خيارات متعددة لنقل بفاعلية نحو التطور والازدهار.

يشير ريني كهولن إلى هذه الحقيقة من خلال دراسته لتأثيرات القيمة المضافة للسوق المعلوماتية؛ إذ يقول: «على مستوى الاقتصاد الكلي؛ فإنَّ تطوير قطاع المعلومات يؤدي إلى تغييرات هيكلية في الاقتصاد بأكمله، هذا النمو يؤثّر في وضع مقاييس الدخل والإنتاج القومي، ويشير الآمال في النمو الاقتصادي العام»^(١)، فكلما كان استخدام تكنولوجيا المعلومات والاتصالات بشكلٍ مكثّف كان تأثيرها أوضح؛ بحيث تؤثر بشكلٍ

KUHLEN R., 1997. «Les effets de la valeur ajoutée des marchés d'information» in: La société informationnelle, Paris : L'Harmattan, p. 177

<http://www.afrik.com/article20533.html> (٢)

إطلاقات الدول المختلفة، بإنشاء بوابة إلكترونية لعرض الإجراءات الإدارية عبر ما يُسمى: «شباك موحد»، يعني إمكانية القيام بكل الإجراءات الإدارية في فضاء واحد.

تكنولوجيا المعلومات والتواصل والمشاركة الشبابية في إفريقيا؛

المشاركة في استخدام تكنولوجيا المعلومات والاتصالات لا تتحدد فقط في إنتاج المعلومات؛ لكن تتحدد أيضاً في: نوع المعلومات التي ينبغي أن تُنتج، وفي مضمونها، فالمشاركة الشبابية في توظيف تكنولوجيا المعلومات والاتصالات تتنوع مجالاتها في إفريقيا حسب الاهتمامات المختلفة.

وفيما يأتي ذكر لأهم هذه المجالات:

1 - توظيف تكنولوجيا المعلومات والتواصل في المشاركة السياسية والاجتماعية؛

في الوقت الحاضر؛ تفرض تكنولوجيا المعلومات والاتصالات نفسها كحلٍ حتميٍّ لفك الحصار عن الشباب في إفريقيا للمشاركة في العملية السياسية، وقد أدى ذلك إلى أن أصبح دعم الحريات وتحقيق العدالة الاجتماعية والديمقراطية هو الخيار الوحيد أمام الدول الإفريقية لتحقيق الأمن والاستقرار السياسي.

وتعدّ البنية التحتية للمعلومات والاتصالات هي الأرضية الصلبة التي تنمو عليها الديمقراطية الحقيقية، باعتبار هذه البنية الرؤية أو الفلسفة التي تتيح للشعب آليات مهمة لممارسة حقوقه السياسية، والتي من أهمها: آليات التخاطب والحوار والتعبير عن الرأي، والتصويت في الانتخابات التشريعية والاستفتاءات، واستطلاع الرأي العام، والتنظيم السياسي الميداني.. وغيرها.

تعدّ مواقع التواصل الاجتماعي الظاهرة المعلوماتية الأبرز في عالمنا التكنولوجي، لكونها تستقطب شريحة كبيرة من شرائح المجتمع، وبخاصة شريحة الشباب، بوصفهم الفئات الأكثر تأثيراً بما يمثلونه من طاقة وقابلية لتغيير أيّ ظاهرة، وقد خلصت دراسة حول «فيس بوك أفريك»، نشرها موقع جين أفريك ٢٠١٥ إلى: أنّ

هواوي^(١): أنّ تكنولوجيا المعلومات والاتصالات أصبحت القوة الدافعة التي يمكن أن تعزّز بشكل كبير من النمو الاجتماعي والاقتصادي في القارة الإفريقية، وتلتزم شركة هواوي بزيادة دعمها نحو خطط التنمية في هذا القطاع في إفريقيا، ودفع عجلة التصنيع للأمام، بالإضافة إلى التزامها بتنمية المواهب الشابة في مجال تكنولوجيا المعلومات والاتصال داخل القارة الإفريقية من خلال برامج متخصصة على غرار Huawei Seeds for the Future.

في عام ٢٠٠٨م، في أعقاب المنتدى الثاني حول أفضل ممارسات تكنولوجيا المعلومات والاتصالات في إفريقيا، الذي نظّم برعاية مايكروسوفت والاتحاد الأوروبي، تم تصميم خارطة طريق للحكومة الإلكترونية (E-governance) في إفريقيا، فمصطلح «الحكومة الإلكترونية» أو «الإدارة الإلكترونية» يعني: استخدام تكنولوجيا المعلومات والاتصالات في الإدارة العمومية لتوفير الخدمات العامّة، وتهدف إلى تحويل العمل الإداري العادي من إدارة يدوية إلى إدارة إلكترونية باستخدام نظم معلوماتية قوية، تساعد في اتخاذ القرارات بشكل سريع وفعال، والهدف الأساسي منها هو تبسيط الإجراءات الإدارية للمواطن في شكلها ومدتها. بعيداً من أن يكون مجرد شعار أو موضة؛ تعمل بعض الحكومات الإفريقية بشكلٍ جديٍّ في تطبيق تكنولوجيا المعلومات والاتصالات في إدارتها العمومية، تتمثل هذه الإدارة في توفير أغلب هذه الدول لمواطنيها مواقع وشبكات أو نوافذ إلكترونية؛ من خلالها يتعرف المواطن على كلّ الإجراءات دون أن يتحرك من مكانه.

في السياق نفسه، وفي مجال الاستثمار وريادة الأعمال/المقاولاتية، تقوم وزارات الاقتصاد أو الاستثمار أو الشركات الصغيرة والمتوسطة، حسب

(١) توجد هواوي بقوة في إفريقيا من خلال ٢٤ مكتباً في جميع أنحاء القارة، بالإضافة إلى وجودها في جميع الدول الأعضاء الـ ٥٤، كما تساهم في توفير فرص عمل لأكثر من ٧ آلاف شخص، ٧٠٪ من القوى العاملة من العمالة المحلية.

هناك ١٥١ مليون مستخدم لفييس بوك في إفريقيا جنوب الصحراء^(١)، وأن عدد المستخدمين في جنوب إفريقيا ونيجيريا وكينيا يمثل ربع مجموع المستخدمين الأفارقة. وأشارت الدراسة كذلك إلى أن عدد المستخدمين للفييس بوك في إفريقيا جنوب الصحراء نما بنسبة ٢٠٪ ما بين عامي ٢٠١٤م و ٢٠١٥م.

لم يكتف الشباب الإفريقيّ باستخدام مواقع التواصل الاجتماعي المستوردة كفييس بوك وتويتر وغيرهما، بل لجأ الشباب إلى اختراع مواقع تواصلية إفريقية، نذكر منها:

- موقع اشهاهيدي Ushahidi: اخترعه الشاب أوري أوكولو Ory Okolloh، وهو مصمّم باللغتين الإنجليزية والسواحلية، وقد أدى هذا الموقع دوراً كبيراً خلال انتخابات ٢٠٠٨م بكينيا، حيث سمح لآلاف الكينيين بالتواصل من أجل الحدّ من عملية التزوير التي كانت معلّماً لتلك الانتخابات، ويسمح هذا الموقع كذلك بإنشاء مدوّنة خاصّة، وامتلاك بريد إلكترونيّ خاص، وخدمات إرسال رسائل نصية قصيرة.

- موقع أفريغاتور Afrigator: وهو موقعٌ متخصصّ في إنشاء المدونات.

- موقع زوبي zoopy: اخترعه شابٌ بجنوب إفريقيا، على شاكلة يوتيوب، لتبادل الفيديوهات.

وهناك أيضاً مواقع متخصصة في مجالات معينة: كموقع جوكولابس Jokkolabs الذي اخترعه الشاب السنغالي كاريم سي Karim Sy، وهو موقعٌ اجتماعيٌّ متخصصّ في المبادرات الإبداعية والمواهب الشابة في إفريقيا.

ولأهمية المشاركة الإفريقية في مواقع التواصل الاجتماعي؛ فقد اقترح فييس بوك نسخاً باللغات السواحلية والهوساوية ولغة زولو، واقترح موقع غوغل

(١) <http://www.jeuneafrique.com/263587/societe/>
facebook-limmense-majorite-utilisateurs-
/africains-privilegie-mobile

كذلك- منذ أكتوبر ٢٠١٠م- خدمة أسماها: بارازا Baraza، تعني بالسواحلية: «موقع التواصل»، وتهدف هذه الخدمة إلى تبادل الآراء، وطرح أسئلة تمسّ الشأن المحليّ والإجابة عنها.

وقد ساهم هذا الانفجار لمواقع التواصل الاجتماعي في إتاحة الفرصة لجميع الشباب في إفريقيا، سياسيين أو باحثين أو أكاديميين، لنقل أفكارهم ومناقشة قضاياهم السياسية والاجتماعية؛ متجاوزين الحدود المادية والطبيعية إلى فضاءات جديدة لا حدود لها.

في هذا الطرف؛ أدى كثيرٌ من الشباب في إفريقيا دوراً كبيراً في توعية المجتمع أمام قضايا تتعلق بالسياسة والديمقراطية والشفافية والحكمة الرشيدة للشأن العام، ونذكر نماذج لهذا الدور فيما يأتي:

في السنغال: مشروع «سونو ٢٠١٢» SUNU الذي يعني: «نحن» باللغة الولوفية، أبدعه الشاب السنغالي «الشيخ فال» بمشاركة شبكة المدونين السنغاليين، وهو مشروع شبكة إلكترونية على شكل مدوّنة، مصمّمة على أساس مبادرة وطنية وتطوعية من أجل المشاركة في الشفافية الديمقراطية، هذا المشروع الذي أطلق في يونيو ٢٠١١م بقيادة نشطاء سنغاليين؛ أحرز نجاحاً كبيراً في الانتخابات الرئاسية في السنغال عام ٢٠١٢م، فقد استطاع الكشف عن نتائج الانتخابات بشكل مباشر قبل النتائج الرسمية، وذلك عن طريق عديدٍ من المراقبين الإلكترونيين المحليين الذين يرفعون المعلومات من مراكز صناديق الاقتراع عن طريق الهواتف الذكية؛ للحيلولة دون أن يقع أيّ عبث بالنتائج الانتخابية.

وفي كوت ديفوار: خلال ما سمّي: «بأزمة ما بعد الانتخاب»؛ ظهر بتاريخ ٥ أبريل ٢٠١١م في ساحة شبكات التواصل الاجتماعي؛ وسم «هاشتاغ» CIVsocial# لتبادل المعلومات، وتقديم المساعدة للمواطنين الذين كانوا حبيسي الحرب، وسيتم استخدام الهاشتاغ نفسه بشكل كبير خلال الفيضانات التي ضربت مدينة أبيدجان (العاصمة الإفوارية)؛ لجذب انتباه السلطات

العمومية، وإنشاء نظام معلوماتي عن طريقه، يتمّ عبره بشكل مباشر الإعلام عن حالات الضحايا .
غينياً كوناكري: وفي السياق نفسه؛ تمّ إطلاق مبادرة GuinéeVote في غينيا كوناكري بمبادرة

شبكة المدونين الغينيين؛ تعبيراً عن رفضهم لسلسلة الانقلابات وتغيير الأنظمة السياسية بقوة السلاح، فهم يسعون لتسليح المواطن عن طريق «صوته الانتخابي»، وإغراقه في صميم العملية الديمقراطية؛ من خلال المشاركة في العملية الانتخابية.

وبهذا الخصوص؛ لم يبق الشباب الإفريقيّ الدارسين باللغة العربية خلف الركب، فقد قاموا بإنشاء صفحة على موقع التواصل الاجتماعي الفيس بوك (ملتقى دارسي اللغة العربية من إفريقيا)، هذه الصفحة تضمّ ما يقرب من ٢٠ ألف شخص، وقد أدت هذه المنصة دوراً كبيراً في تقريب الرؤى السياسية والاجتماعية لهذه الفئة، وفي تقديم الصورة الحقيقية لإفريقيا، سواء السياسية منها أو الاجتماعية للقراء العرب.

وفي مالي: تمّت مراقبة الانتخابات الرئاسية في يوليو ٢٠١٢م، بعد الأزمة التي بدأت في عام ٢٠١٢م، بالتعاون بين قوات منظمات المجتمع المدنيّ والمدونين والناشطين على شبكة الإنترنت، وقبل ذلك رأينا مجموعة كبيرة من الصفحات على مواقع التواصل الاجتماعي لبيان المواقع المختلفة حول الأزمة السياسية - العسكرية التي نشبت عام ٢٠١٢م.

٢ - الاستخدامات التعليمية والثقافية لتكنولوجيا المعلومات:

في قطاع التربية والتعليم؛ يعترف الكثير من الساسة والفاعلين السياسيين في إفريقيا بشكلٍ أوسع بأن الوصول إلى تكنولوجيا المعلومات والاتصالات سيساعد الأفراد لمواجهة المنافسة في ظلّ اقتصادٍ معولم، فهي وسيلة لتكوين أيدٍ عاملة مؤهلة لتلبية الاحتياجات التعليمية، ويعترفون كذلك بأنّ نفوذ تكنولوجيا المعلومات والاتصالات في مجال التعليم والتثقيف سيؤثر تأثيراً إيجابياً على المنتج التعليمي والتربوي؛ بحيث يسمح برفع مستوى الأداء التدريبي؛ بتوفير كفاءات أو قدرات جديدة لدى المتعلمين، ويساهم كذلك من تخفيض الرسوم المتعلقة بالتعليم التقليدي.

وفي نيجيريا: في عام ٢٠١١م؛ شهدنا حملة انتخابية جدّ نشطة على الشبكات الاجتماعية، وليس هذا فقط، فقد رأينا أيضاً وجود نظام رقابيّ قويّ من قبل مراقبي الانتخابات الذين كانوا يستخدمون الشبكات الاجتماعية كوسائط خاصة لتأمين العملية الانتخابية، يشير تقرير اثنين من الباحثين في الانتخابات الرئاسية في نيجيريا في عام ٢٠١١م إلى أنّ: «وسائل الإعلام الاجتماعية قد سمحت بملاحظة أكثر كفاءة للانتخابات عن طريق زيادة عدد المراقبين والتقارير مع التقليل من التكاليف (...)، بحيث تمكّن المواطنون من الوصول مباشرة إلى معلومات أكثر دقة»^(١).

فقبل أشهر^(٢) فقط؛ افتُتح في العاصمة المصرية مؤتمر ومعرض حول التعليم الإلكتروني في إفريقيا، في نسخته الحادية عشرة، تحت شعار: «حيث تصبح الرؤى حقيقة»، وقد قالت خلالها النيجيرية تويوسي أكيريل عبارة ألققتها بنبرة يملؤها التأثر بخصوص التعليم عن بُعد: «أحلم بيوم يصبح فيه التعليم في إفريقيا متقللاً،

وفي بوركينافاسو: استطاعت قوة وسم (هاشتاغ) #Lwili الذي يعني: «الطير» بلغة موشي، منع محاولات لتغيير الدستور والتلاعب به، هذا التلاعب الذي كان من شأنه أن يسمح للرئيس بليز كومباوري بالبقاء في

(١) <http://www.un.org/fr/africarenewal/vol25no2/3-africa-wired.html>

(٢) ٢٤ - ٢٦ مايو ٢٠١٦م.

١ - المقاولاتية^(٢) والريادة عن طريق تكنولوجيا المعلومات والاتصالات في إفريقيا:

تحتوي إفريقيا على أكثر الفئات الشابة في العالم، حيث يبلغ عدد أفراد الفئات العمرية ما بين ١٥-٢٤ عاماً (٢٠٠) مليون فرد، أي ما يشكل ٢٠٪ من مجموع السكان، و ٤٠٪ من الأفراد البالغين سن العمل، ومع ذلك تشكل هذه الفئة أيضاً ٦٠٪ من السكان العاطلين!

وتعد مشكلة بطالة الشباب عويصة في إفريقيا أكثر من بقية الأماكن في العالم، وذلك لأن تباطؤ نمو الاقتصاد في تلك المنطقة لا يشجع على خلق فرص عمل كافية لعدد الخريجين الذين يصلون سوق العمل سنوياً، ففي كل سنة يلج سوق العمل ما بين ٧ إلى ١٠ ملايين فرد؛ ورغم أن السوق لا ينمو بالسرعة التي يستطيع بها استيعابهم، يشير ملخص بعض الدراسات إلى أن ١٠٪ فقط من هذا العدد هم الذين يجدون شغلاً كفوئاً لهم، والكثير منهم لا يزالون يعانون من البطالة أو يحاولون العمل في مجالات أخرى لا يحملون التجربة الكافية للخوض فيها، يزداد على ذلك أن الأجور في بعض البلدان منخفضة للغاية.

وفي كل سنة تزداد أعداد حاملي الشهادات الذين يدخلون سوق العمل ولا يجدون شغلاً، حيث نما هذا العدد ثلاثة أضعاف تقريباً بين عامي ١٩٩٩م - ٢٠٠٩م، من ١,٦ مليون إلى ٤,٩ ملايين شخص، ويتوقع أن ينمو هذا العدد للضعف في ٢٠٢٠م؛ أي أنه سيصل إلى ٩,٦ ملايين شاب.

أمام هذا الوضع الذي تعجز فيه الدول والحكومات الإفريقية عن توفير العمل للشباب، وخصوصاً أن العمل

ومتاحاً ليستطيع كل فرد أن يتعلم ذاتياً دون الحاجة إلى مبنى أو مؤسسة تكفله^(١).

لقد أدى الاهتمام بالجانب التعليمي والتثقيفي لتكنولوجيا المعلومات والاتصالات إلى خلق منصات إلكترونية، وتم في إفريقيا تطوير ما بات يعرف بالموك (MOOC) الذي يعني: «Massive Open Online Course» بالإنجليزية: أي ما يُعرف بالعربية بـ «المساق الهائل المفتوح عبر الإنترنت»، وهو مساق تعليمي حديث وناشئ في مجال التعلم عن بعد، ويستخدم الإنترنت كأسلوب تعليمي، ومن أساسياته السماح بمشاركة عدد ضخم من المتعلمين، وخلق ميدان نقاش وتخطب تعليمي بين المشاركين من طلاب ومدرسين ومساعدتي المدرسين.

فمن طريق الوكالة الجامعية الفرنكفونية (AUF): يشارك كثير من طلبة الجامعات الإفريقية، وبخاصة جامعات غرب إفريقيا الفرنكفونية في الموك فون الفرنسية الذي أطلقته الوزارة الفرنسية للتربية الوطنية والتعليم العالي والبحث العلمي، وفي مجال الصحافة والبرمجيات هناك: الموك أفريك انوفاسيون (Afriqueinnovation)، نجد عليها مجموعة من الدروس في الصحافة التحريرية، والصحافة السمعية-البصرية، ونجد عليها كذلك دروساً كثيرة في البرمجيات وتطوير الويب.

تعد منصات «الموك» وسيلة غنية لكثير من الشباب في إفريقيا، حيث تعتبر نوعاً من ديمقراطية المعرفة، تمكنهم من تجاوز كثير من المشكلات المتعلقة بالتكنولوجيا في سلك التعليم العالي، ورفع قيمتهم التشغيلية، والمبادرة في إنشاء المقاولات الخاصة.

آفاق الإنتاج المهني والمقاولاتي لتكنولوجيا المعلومات والتواصل في إفريقيا:

(١) مؤسسة شبكة ريز التعليمية:

<http://www.scidev.net/mena/education/scidev-net-at-large/ELearning-Africa-development-pillar.html>

(٢) المقاولاتية: مصطلح جديد نسبياً في عالمنا الإسلامي، بعيداً عن الخوض في التوجهات المتعددة للمقاولاتية: يمكن تعريف المقاول: بأنه هو الشخص الذي يحرض خياله وشعوره في الحاجة المجتمعية، ليبعد أفكاراً تقوده لأخذ زمام المبادرة بالبحث عن حل جديد لتلبية حاجة ما في المجتمع بشكل مبسط، خصوصية هذا النوع من المشروع تتم في عنصر الإبداع والاختراع والثقة في النفس وتحمل المخاطر.

٢ - نماذج ناجحة من المشاريع والتطبيقات ذات

الصبغة التكنولوجية في إفريقيا:

في مجال المؤسسات الصغيرة المتعلقة بتكنولوجيا المعلومات والاتصالات (Startup): قامت مجموعة كبيرة من الشباب في إفريقيا بمبادرات كبيرة في اختراع تطبيقات من أجل المشاركة في تسهيل الحياة اليومية للمواطنين، وذلك في كل المجالات: الزراعية، والبيئية، والاجتماعية.. وغيرها.

ونجد من أهم هذه التطبيقات:

- تطبيق فيرمير لين (FarmerLine) في خدمة المزارعين:

في غانا، وفي غيرها من بلدان إفريقيا جنوب الصحراء، تشكل المشكلات المتعلقة بالاتصالات، بالإضافة إلى سوء حالة الطرق، عوائق كبيرة في الوصول إلى المعلومات للقطاع الزراعي، وخصوصاً لدى صغار المزارعين، ما يجعل إدارة القطاع الزراعي صعبة، ويؤدي إلى خسائر كبيرة في المحاصيل الزراعية.

وللحد من هذا العائق؛ قام الشابان ألويسوس أتاه و ايمونيل Alloysius Attah et Emmanuel Addai باختراع: فارمر لاين FarmerLine، وهو تطبيق يهدف إلى تبادل المعلومات بين صغار المزارعين، ودعمهم في تدبير إنتاجاتهم، من خلال التطبيق يتلقى المزارعون رسائل نصية قصيرة، تحتوي على معلومات عن حالات الطقس، وأسعار السوق، والسياسات الزراعية، والمشورات الفنية الحديثة لتحسين المستوى الأدائي والكفائي للعملية الزراعية.

كما يتيح FarmerLine للتسويقيات الزراعية (coopératives agricoles) إجراء تحقيقات وإحصاءات من أجل توفير أفضل التوصيات لأصحاب المزارع الصغيرة، ويُمكّن التطبيق أيضاً أي مزارع من تسجيل رسالة صوتية في بعض اللغات المحلية (١٢ لغة محلية)، وذلك ليستطيع المزارعون الأميون الاستفادة من الخدمة.

في القطاع العمومي محدّد رقمياً، لم يبق أمام الشباب إلا الخيار المقاولاتي، هذا الخيار الذي يعوّل فيه الشاب على نفسه وعلى قدراته الإبداعية لخلق فكرة مشروع يتسم بالواقعية والريادة.

هذا، وقد تزايد مؤخراً اهتمام الباحثين بمجال المقولة وإنشاء المؤسسات في إفريقيا، وهذا نظراً للأهمية المتنامية التي تدّوها على اقتصاديات البلدان في مختلف الجوانب، ونظراً لما يوفره المقاولون والمؤسسات الجديدة (PME) من مناصب عمل، ولكن الحقيقة أنّ نسبة الشباب الذين ينحون هذا المنحى ضئيلة جداً، لإصرار الغالب منهم على العمل في المجال الذي يحملون الشهادة فيه؛ برغم أنّ الغالب من هذه المجالات ذات صبغة أدبية، وذات طبيعة لا توفر الكثير من المناصب في المؤسسات الخصوصية.

ولحلّ هذه المشكلة؛ لا بد أن تعمل الدول والمؤسسات التربوية والتعليمية على غرس الروح والثقافة المقاولاتية بين الشباب، والثقافة المقاولاتية هي: مجمل المهارات والمعلومات المكتسبة من فرد أو مجموعة من الأفراد ومحاولة استغلالها، وذلك بتطبيقها في الاستثمار في رؤوس الأموال بيجاد أفكار مبتكرة. لا شك بأنّ إفريقيا تعيش في الوقت الحاضر تحولاً رقمياً في كل المجالات الاقتصادية والاجتماعية، وهذا ناتج عن تطوّر المشاريع الصغيرة المتعلقة بتكنولوجيا المعلومات والاتصالات (Startup)، ويأتي في صدارة هذه الدينامية الرقمية والتكنولوجية ثلاث دول؛ هي: جنوب إفريقيا، ونيجيريا، وكينيا.

وقد مكّن هذا التطور الكبير للمستارت أب Startup إلى زيادة عدد المليونيترات، ففي ٢٠١٣م نشرت الصحيفة الأمريكية فورب قائمة بـ ١٠ مليونيرات أفارقة في مجال تكنولوجيا المعلومات والاتصالات، أولهم الشاب أباسيما إداريسيت Abasiana Idaresit من نيجيريا، المؤسس والمدير التنفيذي لولد فيوزيون Wild Fusion، وهي الشركة المتخصصة في التسويق الرقمي، وتصل إيراداتها إلى ٦ ملايين دولار.

إلى مجالات أخرى، كمستحضرات التجميل، وأغذية الأطفال، والبذور الزراعية، والعقاقير البيطرية، أو الكيماويات الزراعية.. وغيرها.

وبخصوص الشركات: فهي كثيرة لا يمكن حصرها، ونكتفي هنا بأهمها:

- شركة وايلد فيوزن (Wild Fusion): أسسها الشاب أباسيما إداريسيت إداريسيت Abasima Idaresit من نيجيريا، عام ٢٠١٠م، وهي شركة رائدة في مجال وكالات التسويق الرقمي في إفريقيا، وموجودة في نيجيريا وغانا وكينيا، وسجلت الشركة إيرادات قدرها ٦ ملايين دولار \$ في عام ٢٠١٢م.

- شركة ووت تهيم (woothemes): للشباب أدي بينار (Adii Pienaar) من جنوب إفريقيا، وهي متخصصة في إنتاج قوالب المواقع، والبرامج المساعدة، والإضافات البرمجية المتعلقة لمواقع ومنصات وورد بريس وتيمبليير، وهي تحقق عوائد تزيد على ٢ ملايين دولار سنوياً.

- شركة أفريقيا أون لاين (Africa Online): أسسها الشاب أيسي ماكاتاني (Ayisi Makatiani)، وهي شركة رائدة في تقديم خدمات الإنترنت في القارة؛ منذ عام ١٩٩٤م.

خاتمة:

أمام القوة الشبابية الإفريقية الضخمة، وأمام التحدي الكبير في تلبية حاجات هذا الشباب الاجتماعية والاقتصادية، يصبح الاستثمار، سواء من قبل الحكومات، أو الشركاء الداعمين لها أو المتبرعين، في مجال المقاولات الصغيرة والمتوسطة، وتشجيع المواهب الشابة في مجال تكنولوجيا المعلومات والتواصل، جزءاً من الحلول القادرة على انتشال الشباب من مستنقعات الفقر والامية والبطالة والهشاشة الاقتصادية، ليكونوا فاعلين اجتماعيين، ومساهمين في تنمية أوطانهم، وتأمين غدٍ أفضل لشعوب القارة الإفريقية ■

على المدى البعيد؛ يهدف هذا التطبيق إلى تعزيز الازدهار الاقتصادي وزيادة الإنتاج الزراعي؛ لأن القطاع الزراعي يمثل نحو ٢٠٪ من الناتج المحلي الإجمالي في غانا، وأكثر من ٥٠٪ من فرص العمل.

- مشروع كيلاسي Qelasy، تطبيق رقمي في خدمة التعليم:

وضع الشاب تييرى اندوفو (Thierry N'Doufou) مشروع كيلاسي Qelasy، ويتكوّن من ثلاث لوحات إلكترونية (Tablette) تعليمية مقاومة للظروف الجوية في القارة الإفريقية: حرارة عالية (تصل إلى ٥٥ درجة)، والغبار، وهي مقاومة حتى للمطر، يستفيد من هذا المشروع التلاميذ والطلبة من المرحلة الابتدائية حتى الجامعية، وتشتمل هذه اللوحات الإلكترونية على: مجموعة كتب دراسية، وتطبيقات، وأشربة فيديو، وتمارين تدريبية، وباختصار تشتمل على جميع العناصر الأساسية للنجاح الدراسي.

وبخصوص المعلمين؛ يسمح لهم مشروع Qelasy بإعداد الدروس والتمارين التدريبية، وتوزيعها على لوحات طلابهم، وبهذا يستطيع الطلاب مواصلة تعليمهم في المنزل من خلال التعلم عن بُعد، وهذا الإعداد القبلي للدروس يمنع إهدار الوقت، فلا حاجة لإملاء الدروس على الطلبة في الفصول الدراسية.

- تطبيق M-Pedigree لمكافحة الأدوية المزيفة: تقود مشكلة غلاء الأدوية ملايين الأشخاص في إفريقيا إلى استخدام أدوية مغشوشة ذات خطورة على حياتهم الصحية، ما قاد الشاب الغاني Bright Simons لوضع تطبيق إلكتروني، يهدف إلى استخدام تكنولوجيا للتمييز بين الأدوية الجيدة والأدوية المزيفة، حيث يقوم المستخدم بإرسال أرقام (١٢ رقماً)، يجدها مكتوبة على علب الدواء عبر التطبيق عن طريق الهواتف الذكية؛ ليتلقى الجواب على الفور: إيجابي (نعم) أو سلبي (لا)، ويُمكن التطبيق المستخدمين كذلك من فحص صحّة أيّ دواء عبر موقع Goldkeys.

ولا يتعلق هذا التطبيق بالأدوية فقط، بل تعدى ذلك



مسؤولية الدولة في تمكين الشباب.. دولة مالي نموذجاً: قراءة في السياسات والاستراتيجيات العمومية

أ. دمبي أنجاي

باحث من دولة مالي، وحاصل على الإجازة المهنية في التسويق من المدرسة العليا للإدارة والمعلوماتية بجوهانسبورغ



- العدد المتزايد للشباب الإفريقي، حيث يمثلون في أغلب دول القارة نصف السكّان أو أكثر.
- الوعي المتنامي لدى الشباب الإفريقيّ بحقوقه السياسية، وتزايد روح النضال والعمل النقابي لدى جمعيات واتحادات الشباب.
- الخوف من العواقب الوخيمة التي يمكن أن تنتج

تنمية قدرات الشباب وتكوينهم المهنيّ؛ ليكونوا قادرين على الانخراط الوظيفي، وضمان حياة كريمة لأنفسهم وأسرهم، من أهمّ القضايا الأساسية التي تشغل السلطات العمومية في إفريقيا جنوب الصحراء، وهذا الهمّ المتزايد يمكن أن يفسّر بـ:

من بطالة الشباب، من انفجارات سياسية واجتماعية، كالميل إلى العنف، والانخراط في الحركات الإرهابية وعصابات تهريب المخدرات...

- السياق الدولي والإقليمي، كثورات الربيع العربي التي اندلعت منذ ٢٠١١م، والانتفاضة الشبابية في السنغال التي تسببت في سقوط نظام عبد الله واد عام ٢٠١٢م، والثورة الشعبية التي قادها الشباب ضد حكم بليز كومباوري في بوركينا فاسو ٢٠١٣م.

مالي والإصلاحات المؤسساتية :

بعد الثورة الديمقراطية التي عرفتها دولة مالي، في بداية التسعينيات من القرن المنصرم، دخلت الدولة في مسار ديناميٍّ للإصلاحات المؤسساتية، وذلك من أجل تجاوز دولة الأشخاص- التي تحكمت في البلاد، خصوصاً في فترة حكم الرئيس موسى تروري- إلى دولة قانون ومؤسسات، وفي هذا الإطار: تم اعتماد دستور جديد، وخلق بنية مؤسساتية رصينة، بالإضافة إلى اعتماد سياسات وخطط كفيلة بالإقلاع الاقتصادي للدولة.

تركزت برامج التكيف الهيكلي التي جريتها الدولة المالية في ثمانينيات القرن الماضي آثاراً اجتماعية خطيرة: جزاء تخفيض الإنفاق الحكومي للقطاعات الاجتماعية، كالصحة والتعليم والتشغيل، ولتجاوز هذه الآثار الاجتماعية المدمرة تبنت السلطات الجديدة سياسات تنمية كثيرة، في مختلف القطاعات: (الصحة، التعليم، العدالة الاجتماعية، الزراعة وتربية المواشي، التنمية الريفية...)، في انسجام وتساوق مع النسخة الأولى والثانية من وثيقة الإطار الاستراتيجي للتنمية وتخفيض الفقر.

في نهاية سنوات ٢٠٠٠م، بعد أكثر من عقد ونصف العقد من تجربة السياسات المضمنة ضمن الوثيقة الاستراتيجية الوطنية لمحاربة الفقر (١٩٩٨م - ٢٠٠٠م)، والنسخة الأولى (٢٠٠٠م - ٢٠٠٢م)، والثانية (٢٠٠٢م - ٢٠٠٦م)، من وثيقة الإطار الاستراتيجي لمحاربة الفقر، كتشرف السلطات بعد عملية تقييم

لحصولها السياسات المذكورة: أن الأهداف المعلن عنها في مجال محاربة الفقر لم تتحقق؛ بسبب ضعف العناية بفئة الشباب تكويناً وتمكيناً وتوظيفاً، وعليه؛ فقد اعتمدت الدولة استراتيجيات جديدة، تضمنتها وثيقة الإطار الاستراتيجي للتنمية وتخفيض الفقر (٢٠٠٧م - ٢٠١١م)، لتأخذ بالاعتبار هذا البعد المهم لمحاربة الفقر وتحقيق التنمية المستدامة.

وفي سنة ٢٠١٢م؛ تعيش مالي أصعب لحظة في وجودها، بسبب الأزمة الأمنية والسياسية التي اجتاحت الدولة جراء سيطرة الحركات المسلحة على الأقاليم الشمالية، التي تشكل في مجموعها ما لا يقل عن ثلثي مساحة التراب الوطني، وبرغم استعادة الحكومة المركزية اليوم كامل أراضيها، والاستقرار السياسي والاجتماعي النسبي، والعودة إلى المشروعية الدستورية، فإن الأزمة التي ضربت البلاد أظهرت بجلاء ضعف مؤسسات الدولة وهشاشتها، ما دفع السلطات الجديدة إلى التفكير في مراجعة بنية الدولة، والعمل على إحداث إصلاحات هيكلية؛ درءاً لتكرار مثل هذه التجربة الأليمة في المستقبل. في سياق ذلك؛ فإن هناك وعياً متزايداً لدى السلطات العمومية بأهمية تمكين الشباب وتأهيلهم المهني والوظيفي في تحقيق السلم الاجتماعي واستقرار الدولة، يتجسد هذا الوعي على مستوى السياسات الوطنية للخروج من الأزمة، واستراتيجيات تحقيق التنمية الاقتصادية والاجتماعية؛ كما في النسخة الثانية من وثيقة الإطار الاستراتيجي للتنمية والتخفيف من الفقر (٢٠١٢م - ٢٠١٧م).

معطيات عامة عن الوضع السياسي الراهن

لدولة مالي^(١) :

انطبع الواقع السياسي والاجتماعي للدولة بالاستقرار العام برغم الأزمة الأمنية المزمنة في

(١) مالي: دولة ساحلية غير مطلة على البحر، تقع غرب إفريقيا، عاصمتها؛ باماكو، يبلغ عدد سكانها ١٦ مليون نسمة، ٩٥٪ منهم مسلمون.

الشباب في الوعي السياسي «المالي»:

الاهتمام بقضية الشباب، ودمجها ضمن أولويات الفعل السياسي، ليس بأمرٍ مستحدثٍ في المسرح السياسي «المالي»، هذا الموضوع له جذوره الضاربة في عمق الثقافة الإفريقية التي تضع للشبيبة مساحةً واسعةً من الاهتمام، بوصفهم رجال الغد ومستقبل القبيلة والأمة، وعليه؛ فقد كانت هناك مجموعةٌ كبيرةٌ من العادات والتقاليد والمؤسسات التقليدية التي تسمح للشباب بتحقيق ذواتهم، بالإضافة إلى أنها تسمح بتأهيلهم وتهيئتهم الروحية والجسدية لتحمل مسؤوليات الحياة عندما يتقدم بهم العمر^(١).

كان للشباب حضورٌ كبيرٌ في سياسات السلطات الاستعمارية في منطقة إفريقيا جنوب الصحراء، ذلك لأنهم يمثلون اليد العاملة التي تستطيع الإدارة الاستعمارية توظيفها في الأعمال العمومية الكبرى، في مجال الزراعة والتعدين وبناء الطرق والسكك الحديدية... وغير ذلك من الأشغال العمومية التي تشكل أهميةً كبيرةً للمشروع الاستعماري، نذكر منها مثلاً- بخصوص دولة مالي-: توظيف الاستعمار للشباب في الأعمال اللازمة لتحقيق أحد أهم المشاريع الزراعية للسلطة الاستعمارية في المنطقة، وهو مشروع الاستصلاح الزراعي لأراضي «أوفيس دي نيجر»، كان هذا المشروع يستلزم عدداً من الأعمال الإنشائية، كبناء السدود والقنوات المائية، وفي هذا الإطار كانت السلطات الاستعمارية تشغل قرابة ٢٠٠٠ إلى ٢٥٠٠ شاب قهراً يومياً، في ظل ظروف غير إنسانية قاسية، لبناء سدّ سانساندينغ Sansanding بمنطقة سيغو^(٢).

(١) Saloum CISSE, VALEURS MORALES ET STRUCTURES TRADITIONNELLES DE JEUNESSE, Ethiopiques numéro 31 revue socialiste de culture négro-africaine, 3e trimestre 1982.

(٢) انظر: https://fr.wikipedia.org/wiki/Office_du_Niger#Conditions_d.E2.80.99existence_et_de_travail_des_colons_de_l.E2.80.99Office

الشمال، ومع العملية الديمقراطية التي شهدتها الدولة في بداية التسعينيات تعززت مكانتها الإقليمية، حيث اشتهرت بالسلم الاجتماعي وسط بؤرٍ ملتهبةٍ هنا وهناك في المنطقة.

ومنذ ٢٠١٢م؛ بذلت بالتوازي مع الجهود العسكرية جهوداً سياسيةً كبيرةً من أجل احتواء الأزمة الشمالية، والعودة إلى الشرعية الدستورية، وطرحَت أسس بناء دولة القانون، وفي هذا الإطار تمّ تنظيم الانتخابات الرئاسية ثم البرلمانية في أواخر ٢٠١٢م، تلا ذلك توقيع اتفاقية السلام بين الحكومة المالية والحركات المسلحة بالشمال سنة ٢٠١٥م؛ تجسيدا للخروج من الأزمة والعودة إلى المؤسسات الشرعية.

أطلقت الدولة منذ ٢٠١٢م مشاورات وطنية للتفكير في أسباب الأزمة التي ضربت البلد، والبحث عن سبل إعادة صياغة الأزمة المالية على أسس جديدة كفيلة بوضع حدٍّ نهائيٍّ للتمرد المسلح في الشمال الذي عانت منه الشعوب منذ الاستقلال إلى الوقت الراهن، وفي هذا الإطار؛ تمّ تنظيم جلسات رصد واقع النظام اللامركزي في أكتوبر ٢٠١٢م، والجلسات الوطنية حول الشمال في نوفمبر ٢٠١٢م، كما تمّ تنظيم مؤتمرات محلية ووطنية مختلفة، ومراجعة السياسات الوطنية على المستوى العام، أو على المستوى القطاعي، لتحديثها وجعلها متلائمة مع المتغيرات السياسية والاجتماعية التي نتجت عن أزمة الشمال.

ولعلّ من أهمّ التوصيات التي تمخّضت عنها هذه المشاورات والمراجعات المختلفة: ضرورة الاعتناء بتمكين الشباب، وتيسير سبل اندماجهم المهني، ليس فقط بوصفه شرطاً أساسياً لتحقيق التنمية الاقتصادية، بل لأنّ إهمال هذه الفئة- التي تشكل أكثر من ٦٠٪ من الشعب- سيُمرّض الدولة لمزيد من الأزمات وانعدام الأمن، إذ يمثّل الشباب العاقل أهمّ مصدرٍ تستقي منه الحركات المسلحة مواردها البشرية.

(البوركيني) «ويزن كوليبالي» Ouezzin Coulibaly .

أدرك «مديبو كيتا»، الذي بدأ مساره السياسي بصفته مناضلاً في الحركة الشبابية، أهمية استثمار الشباب في نجاح مشروعه السياسي الاشتراكي، وتجسّد هذا الوعي السياسي بأهمية الشباب في الهيئات والمؤسسات الحكومية التي أنشأها الرئيس كيتا للعناية بالشعبية، وتسهيل انخراطهم السياسي والاجتماعي، وفيما يأتي أهم هذه المؤسسات والهيئات:

- الفرع الشبابي لحزب الاتحاد الديمقراطي: الذي أنشئ في مؤتمر تأسيسي سنة ١٩٥٩م، وقد مارس هذا الفرع الشبابي دوراً كبيراً في التطورات السياسية للدولة، منذ تاريخ إنشائه إلى الانقلاب العسكري الذي أطاح بنظام مديبو ١٩٦٨م.

- وزارة الاتصال والشباب وشؤون المحاربين القدامى: تقلدها الرئيس «مديبو كيتا» نفسه في الحكومة الأولى لدولة مالي المستقلة، وبعد التعديل الدستوري في مايو ١٩٦٤م جمعت الرياضة مع الشباب في حقيبة وزارية واحدة، تقلدها السيد «موسى كيتا» أخو الرئيس «مديبو كيتا».

- المجلس الأعلى لشؤون الشباب والرياضة بمرتبة وزارة: منذ ١٩٦١م إلى الانقلاب العسكري ١٩٦٨م.

- الميليشيات الشعبية: أو ما كان يعرف بـ «ألوية الاحتياط»، تكوّنت من شباب حزب الاتحاد السوداني، وصارت منتشرة في كل المدن والأرياف، ووصل عدد أعضائها إلى قرابة سبعين ألف شاب في العاصمة بماكو فقط^(٣).

- المكتبة الشعبية: أنشئت عام ١٩٦١م بطلب من شباب حزب الاتحاد السوداني، لتكون فضاءً للتكوين الفكري للشباب والناشئة، طبقاً للرؤية السياسية الاشتراكية للسلطات المالية^(٤).

كما يمكن أن نذكر هنا: مشروع بناء السكة الحديدية التي تربط دكار في السنغال بكوليكورو في مالي، وكان الهدف منها ربط ميناء دكار بنهر النيجر من أجل نقل المواد الأولية إلى فرنسا، وقد وظفت الإدارة الاستعمارية الشباب في بناء هذا المشروع الضخم الذي يبلغ طوله ١٢٨٧ كم؛ منها ٦٤١ كم في مالي^(١).

كانت الإدارة الاستعمارية تنظر إلى الشباب بعين الريبة والشك، وتتخذ كل التدابير من أجل مراقبتهم والتضييق عليهم، وعياً منها بقدرة الحركة الشبابية على عرقلة المشروع الاستعماري، وقد زاد من هذا الحذر كون الحركة الشبابية، ممثلة في الحركة الطلابية ونقابات العمال، في واجهة المنددين بالهيمنة الغربية على الشعوب الإفريقية، وفي الصفوف الأمامية في النضال من أجل المساواة والحرية والاستقلال، نذكر هنا مثلاً: إضراب عشرين ألف عامل في السكة الحديدية- المشار إليها أعلاه- عام ١٩٤٧م - ١٩٤٨م، وقد استمر هذا الإضراب عدة أشهر، وكان هدفه المطالبة بالمساواة مع العمال الفرنسيين، وقد نقل الأديب والسينمائي السنغالي الكبير عثمان سمبان Ousmane Sembène تفاصيل حوادث هذا الإضراب في روايته التاريخية الرائعة: (تخوم غابة الرب)^(٢).

كانت غالبية النخبة السياسية الأولى، التي حكمت دولة مالي غداة الاستقلال، مكونة من رجال مرّ تكوينهم السياسي في الحركة الشبابية عبر الجمعيات الطلابية والحركات النقابية، فقد بدأ «مديبو كيتا»- الرئيس الأول لدولة مالي المستقلة- مساره السياسي كمناضل في إطار «جمعية مثقفي السودان» التي أنشأها مع زميله «مامادو كوناتي»، ثمّ تعزّزت روحه النضالية في إطار «نقابة معلّمي غرب إفريقيا الفرنسية» التي أسسها مع الفولتي

(٢) انظر: جريدة «les echos» في العدد الصادر بتاريخ ٢٠ مارس ٢٠٠٩م.

(٤) انظر: الموقع المكرّس للتعريف بالرئيس موديبو كيتا وتراثه السياسي.

<http://modibokeyta.free.fr/president.html>

(١) انظر: https://fr.wikipedia.org/wiki/Chemin_de_fer_de_Dakar_au_Niger

(٢) انظر: Sembène Ousmane, Les bouts de bois de Dieu.

- الاتحاد الوطني للشباب مالي: سبقت الإشارة إليه.
- ملتقى الشباب بيماكو: أنشئ عام ١٩٨٨م ليكون فضاءً تعليمياً وتربوياً وترفيهياً للشباب.
- المعهد الوطني للرياضة: تأسس في ١٩٧٨م، وتحوّل سنة ٢٠٠٢م إلى المعهد الوطني للشبيبة والرياضة: بوصفه مؤسّسة للتعليم العالي، تستهدف تكوين كوادر مؤهّلة في مجال تأطير الشباب والرياضة. ومع الانتقال الديمقراطي في بداية التسعينيات، إلى يومنا هذا، ازداد اهتمام السياسات العمومية بالشباب، يظهر ذلك على صعيد السياسات، والخطط الاستراتيجية، وبرامج الإقلاع الاقتصادي، بالإضافة إلى الكثير من المؤسسات الموجهة لتمكين الشباب وتحسين أوضاعهم الماديّة والمعنوية، وبما أننا سنتناول الكثير من هذه القضايا في الفقرات القادمة: فسنكتفي في هذا المقام بهذه التوبيهات البسيطة.

الأطر القانونية المنظمة لتمكين الشباب

المالي:

هناك أطر قانونية كثيرة تنظّم العناية الحكومية بتمكين الشباب وتأهيلهم، واندماجهم السياسي والاقتصادي والاجتماعي، ليكونوا فاعلين في المجتمع، قادرين على المشاركة بشكل أكبر في التنمية، وفيما يأتي إشارة إلى أهم هذه الأطر القانونية:

١ - الوثائق القانونية الوطنية:

يأتي الدستور المالي، المعتمد عام ١٩٩٢م، على رأس الوثائق القانونية التي تؤسّس لقضية تمكين الشباب، وفي هذا الإطار: يؤكّد الدستور في ديباجته التزام الشعب الماليّ بتحسين مستوى المعيشة لكلّ الماليين؛ بمن فيهم الشباب، والمادّة الأولى من الدستور تشير إلى أنّ الشخصية الإنسانية مقدّسة لا يُقبل الاعتداء عليها، وإلى أنّ لكلّ ماليّ الحقّ في الحياة والحرية والأمن والسلامة الشخصية، وتعرّز المادة الخامسة عشرة ما سبق، وتزيد بأنّ تحسين مستوى معيشة المواطنين واجبّ على الدولة وعلى كلّ المواطنين، والمادّة السابعة عشرة

- الأسبوع الوطني للشباب: بدأ الاحتفال به في ١٩٦٢م بصفته أكبر تظاهرة ثقافية في الدولة، وكان تنظيم احتفاليات الأسبوع تحت إشراف المجلس الأعلى لشؤون الشباب، ويشارك فيها وفودٌ من كلّ المدن الكبرى للدولة^(١).

في عهد الرئيس «موسى تروري»: كان الوعي السياسيّ بأهميّة الشباب حاضراً بقوة في العمل السياسي، ولكن اهتمام الرئيس الجديد انصبّ في محاولة القضاء على التنظيمات الشبابية التي كانت نشطة في عهد الرئيس «مديبو كيتا»، كالميليشيات الشعبية، وشباب حزب الاتحاد السوداني، وبالموازاة إلى ذلك فقد عمل موسى على إيجاد مؤسّسات أخرى تستقطب الشباب وتسخرهم لخدمة الحزب الواحد المستبدّ بالحكم، وفي هذا الإطار يمكن أن نشير إلى إنشائه «الاتحاد الوطني لشباب مالي» ١٩٧٦م، من أجل استقطاب الشباب، وتقليص تأثير نقابة الطلاب المنتظمة في إطار «الاتحاد الوطني لتلاميذ وطلبة مالي» (UNEM) الذي كانت له علاقة مع الأحزاب السياسية المعارضة سرّاً.

وبرغم أنّ الهدف الأساسي الذي كان يحرك الرئيس موسى تروري في سياساته تجاه الشبيبة هو: كسب ودّ الشباب، وتوظيفهم في خدمة حزبه وتوجهاته السياسية، فإنّ فترته شهدت ظهور عددٍ من المؤسسات المهمة الموجهة لتأطير الشباب، منها مثلاً:

- وزارة شؤون الشباب: كانت حاضرة تقريباً في كلّ الحكومات على اختلافها، وقد تقلد هذه الحقبة منذ ١٩٧٨م إلى ١٩٨٠م ألفا عمر كوناري (الذي سيصبح رئيساً للبلد)؛ قبل أن يستقيل اعتراضاً على العنف الذي عامل به الرئيس تروري المظاهرات الطلابية عام ١٩٨٠م.

(١) Pauline Fougère, La politique culturelle : porte-étendard de État et de nation malienne, in décolonisation et construction nationale : Afrique, Asie et Quebec, p 69. Les Éditions de l'université de Sherbrooke, 2016

تأخذ المنحى نفسه؛ إذ تصّ على أنّ «التربية، والتعليم، والتكوين، والعمل، والسكن، والترفيه، والصّحة، والحماية الاجتماعية، حقوقٌ معترفٌ بها»... والشباب بوصفهم فئةً من مجموع المواطنين يتمتعون بهذه الحقوق الدستورية.

٢ - الوثائق القانونية الدولية:

صادقت دولة مالي، بناءً على عضويتها في منظّمة الأمم المتحدة، على الكثير من الوثائق والاتفاقيات الدولية المرتبطة بتمكين الشباب وضمان حقوقهم المادية والمعنوية، ويمكن أن نذكر من هذه الوثائق: الإعلان العالمي لحقوق الإنسان ١٩٤٨م، وميثاق الحقوق المدنية والسياسية ١٩٦٦م، والاتفاقية الدولية للحقوق الثقافية والاجتماعية والاقتصادية ١٩٦٦م، وتشكّل هذه الوثائق الألفية الثلاث ما يُعرف بـ «لائحة الحقوق الدولية»، وإن لم تكن هذه الوثائق مرتبطة بتمكين الشباب لوحدهم؛ فإنّها تتناول حقوقهم بشكلٍ غير مباشر.

وفي السياق نفسه؛ يمكن إضافة «أهداف الألفية للتنمية» التي تبنتها الأمم المتحدة عام ٢٠٠٠م ضمن الوثائق الألفية المؤسّسة لتمكين الشباب، وأهداف الألفية للتنمية عبارة عن مجموعة من الأهداف اتفقت الدول الأعضاء على تحقيقها بحلول ٢٠١٥م، وهي في العموم ثمانية أهداف هي: «القضاء على الفقر المدقع والجوع، تعميم التعليم الابتدائي، تعزيز المساواة بين الجنسين وتمكين المرأة، تخفيض وفيات الأطفال، تحسين الصّحة النفسانية، مكافحة الإيدز والملاريا، كفاءة الاستدامة البيئية، وإقامة شراكة عالمية من أجل التنمية»، هذه الأهداف أيضاً لها ارتباطٌ كبيرٌ، وإن بصورةٍ غير مباشرة، مع تمكين الشباب.

٣ - الوثائق القانونية القارية:

تولّي دول إفريقيا عبر المنظمة القارية التي تجمعهم عنايةً فائقةً لتمكين الشباب، وفي هذا الإطار طلبت مفوضية الاتحاد الإفريقيّ عام ٢٠٠٥م إعداد تقريرٍ يتقضى وضع الشباب الإفريقي الراهن تمهيداً لصياغة مشروع ميثاق للشباب الإفريقي، أعقب ذلك تنظيم منتدى

الشباب الإفريقي ٢٠٠٦م، شاركت فيه وفودٌ شبابيةٌ من مختلف الدول الأعضاء؛ من أجل التباحث وتبادل الآراء حول بنود الميثاق المقترح، وبعد الإجماع على الصيغة النهائية؛ صدر الميثاق عن الاتحاد خلال قمة رؤساء الدول والحكومات المنعقدة بعاصمة غامبيا بانجول في شهر يوليو ٢٠٠٦م.

يعدّ هذا الميثاق من أهمّ الوثائق المرجعية للدول الإفريقية في مجال تمكين الشباب، وقد تمهّدت الدول الإفريقية (أعضاء الاتحاد الإفريقي) في البند الثاني من المادة الأولى للميثاق بـ «اتخاذ الخطوات اللازمة طبقاً لعملياتها الدستورية وأحكام هذا الميثاق؛ لاعتماد التدابير التشريعية أو غيرها من التدابير الضرورية لتفعيل أحكام الميثاق»^(١).

تمكين الشباب في السياسات والاستراتيجيات العمومية:

يعدّ تمكين الشباب ضمن الأولويات الوطنية للسلطات المالية، ويتجسّد ذلك بشكلٍ واضح في السياسات والاستراتيجيات العمومية التي تمثل رؤية السلطات العليا للتنمية المستدامة، ويمكن في العموم التمييز بين نوعين من السياسات والاستراتيجيات التي تجلّي ما ادّعيناه، وهما السياسات والاستراتيجيات الوطنية العامّة، والسياسات والاستراتيجيات القطاعية، وفيما يأتي تحليلٌ لأهمّ هذه السياسات طبقاً للتصنيف السابق:

١ - السياسات والاستراتيجيات الوطنية العامّة:

منذ الانتقال الديمقراطي الذي حدث في مالي، في بداية التسعينيات من القرن الماضي، نشطت الحكومات المالية على اختلاف توجهاتها السياسية في وضع خطط وسياسات التنمية والإقلاع الاقتصادي، وفي هذا السياق، منذ ١٩٩٨م إلى ٢٠١٤م، تبنّت السلطات المالية وثائق كثيرة مرتبطة بسياسات واستراتيجيات التنمية والإقلاع الاقتصادي، نذكر هنا أهمّها:

(١) انظر: المادة الأولى من ميثاق الشباب الإفريقي.

- تنمية روح المواطنة والتطوع لدى الشباب.
- تشجيع مشاركة الشباب في الحياة العمومية وفي التنمية.
- الاستراتيجية الوطنية لمحاربة الفقر (١٩٩٨م - ٢٠٠٠م).
- الدراسة الوطنية الاستشرافية «مالي ٢٠٢٥»، أعدت سنة ١٩٩٩م.

٢ - السياسات والاستراتيجيات القطاعية:

- القطاعات الحيوية التي لها ارتباط - بشكل أو بآخر - بتمكين الشباب وتأهيلهم واندماجهم السياسي والاقتصادي كثيرة جداً، ولذا سنحاول التركيز في ثلاثٍ منها، وهي:
- النسخة ١ من الإطار الاستراتيجي لمحاربة الفقر (٢٠٠٠م - ٢٠٠٢م).
- النسخة ٢ من الإطار الاستراتيجي لمحاربة الفقر (٢٠٠٢م - ٢٠٠٦م).

قطاع التربية والتعليم:

- يخضى قطاع التربية والتعليم بمكانة كبيرة في السياسات الوطنية، ويتجلى ذلك ليس على مستوى الوثائق المرجعية للسياسات العمومية فحسب، بل يتجلى أيضاً على مستوى نسبة الميزانية المخصصة له من مجموع الميزانية الإجمالية للدولة، حيث تتجاوز ميزانية التعليم ٢٠٪ من مجموع الميزانيات الإجمالية للدولة منذ سنوات عديدة.
- وتخفيض الفقر (٢٠٠٧م - ٢٠١٢م).
- النسخة ٢ من الإطار الاستراتيجي للتنمية وتخفيض الفقر (٢٠١٢م - ٢٠١٧م).
- خطة الإنعاش الاقتصادي المستدام في مالي (٢٠١٢م - ٢٠١٤م).

هذه الوثائق تعدّ أدلة وإطارات مرجعية لتوجيه وترشيد العمل الحكومي نحو تحقيق الرؤية الاقتصادية للدولة، وهي كلها - على اختلافها - تعطي لتمكين الشباب حيزاً كبيراً من عناية السياسات العمومية، فعلى سبيل المثال: تتوقع الوثائق الخمسة الأخيرة تحقيق نمو اقتصادي بمعدل ٧٪ سنوياً على الأقل لتكون الدولة قادرة على تخفيض نسبة البطالة العالية؛ بما فيها بطالة الشباب التي هي أحد أهم أسباب الفقر المدقع في الدولة.

في تقديمه للنسخة الأخيرة من الإطار الاستراتيجي للتنمية وتخفيض الفقر (٢٠١٢م - ٢٠١٧م)؛ يذكر وزير الاقتصاد والمالية أنّ هذه النسخة الجديدة تتأسس على تحديات النسخ السابقة، والتي من أهمها توفير الشغل للشباب، وقد تبنت هذه النسخة التوظيف عامةً، وتوظيف الشباب خاصةً، ضمن أهم الأهداف الاستراتيجية التي تسعى إلى تحقيقها.

وفيما يرتبط بتمكين الشباب، على وجه الخصوص، ألفت الوثيقة على عاتق الدولة القيام بالمهام الآتية:

- ضمان التأطير الاجتماعي والتربوي الأمثل للشباب.
- تفعيل الأهداف المعلن عنها في قانون توجيه التعليم، المشار إليه أعلاه، تبنت دولة مالي الكثير من السياسات والاستراتيجيات التربوية، ولعل من أهم الوثائق المرتبطة بهذه السياسات وثيقة «الخطة العشرية لتطوير التربية»، والتي اعتمدت سنة ٢٠٠٠م، وكانت تهدف إلى تحقيق التربية والتعليم للجميع في أفق ٢٠١٠م، وذلك من أجل توفير الموارد البشرية المؤهلة التي تستطيع رفع التحديات التنموية للدولة.

بعد الأزمة الأمنية والسياسية التي ضربت الدولة عام ٢٠١٢م، ورغبةً من السلطات الجديدة في جعل قطاع التربية أحد أهمّ مراكز إعادة بناء الدولة والأمة المالية، فقد اعتمدت الحكومة المالية خطة انتقالية لتغطية الفترة الكائنة بين الخطة العشرية الأولى إلى غاية صياغة الخطة العشرية الثانية، وتتمحور الخطة الانتقالية هذه حول ثلاثة عناصر أساسية، هي: زيادة نسبة الالتحاق، تحسين النوعية، وتعزيز الكفاءات.

قطاع التكوين المهني:

تجسيدا للأهمية التي توليها دولة مالي للتكوين المهني للشعب كافة، وللفترة الشبابية منه خاصة، فقد اعتمدت الحكومة في أغسطس ٢٠٠٠م وثيقة «البرنامج الوطني للتوظيف من أجل تخفيض الفقر»، بوصفها وثيقة استراتيجية لتوجيه العمل الحكومي في مجال التكوين المهني ومحاربة الفقر، وفي هذا الإطار؛ فقد أعطت الوثيقة أولوية كبيرة لتمكين الشباب وتكوينهم المهني ليكونوا قادرين على الانخراط في سوق العمل، والتخفيف من وطأة الفقر عن أنفسهم وذويهم، فقد ذكرت الوثيقة ضمن أهدافها الاستراتيجية: «تقليل نسبة البطالة والعمالة المتدنية في صفوف الشباب والنساء».

في يوليو ٢٠٠٩م؛ قامت السلطات باعتماد وثيقة «السياسة الوطنية للتكوين المهني»، وذلك من أجل تحديث السياسات والأطر العامة الموجهة لقطاع التكوين المهني الذي تُعهد إليه مهمة تأهيل وتطوير الأيدي العاملة القادرة على تغطية احتياجات سوق العمل المتجدد باستمرار، وقد تمثّلت التوجّهات العامة المعلن عنها في الوثيقة الجديدة في: تنمية الموارد البشرية، الربط بين عروض التكوين واحتياجات سوق العمل، رفع مستوى النوعية، العدالة والإنصاف، اللامركزية، الشراكة، الحوكمة والتمويل الرشيدين.

وفي سنة ٢٠١٥م؛ أرادت السلطات المالية تحديث سياساتها في مجال التكوين المهني من جديد؛ لتأخذ بالاعتبار التطورات السياسية والاجتماعية والاقتصادية

للدولة بعد الأزمة الأمنية التي عانت منها سنة ٢٠١٢م، وفي هذا الإطار تمّ إعداد واعتماد وثيقة «برنامج الخطة العشرية لتنمية التكوين المهني من أجل الشغل»، وقد عبّرت الدولة في هذه الوثيقة عن رغبتها الأكيدة في تمكين الشباب، نجد ذلك واضحاً ومسطراً في الوثيقة، كما في البند المرتبط بالطموحات والأهداف، حيث تمّ التنصيص بالنسبة للطموحات على أن الغاية من الوثيقة: «وضع جهاز معاصر وفعال، قادر على تلبية احتياجات الاقتصاد، كفيل بمنح الشبيبة فرصاً حقيقية للانخراط في سوق العمل»، وقد تمّ تأكيد هذه الغاية الطموحة في الهدف الجزئي الثالث الذي يتمثّل في: «دعم الانخراط المهني للنساء والشباب المتخرجين من مراكز التكوين». وفي إطار السياسات والاستراتيجيات العمومية للتكوين المهني لا يمكن أن نغفل عن «صندوق دعم التكوين المهني والتدريب» الذي تأسّس بموجب القانون رقم ٩٧-٢٣ بتاريخ ١٤ أبريل ١٩٩٧م، وهذا الصندوق عبارة عن مؤسسة عمومية ذات طابع إداري، يهدف إلى المشاركة في تنفيذ السياسات الوطنية المرتبطة بالتكوين المهني، وذلك عبر تمويل ودعم مؤسسات ومعاهد التكوين المهني، وتتشكّل إيرادات الصندوق في ضريبة التكوين المهني التي تؤخذ من أرباح المقاولات الأهلية والمنشآت شبه العمومية، وكانت هذه الضريبة تقدّر بـ (٥،٠٪) من إجمالي الأرباح، وتمّ رفع هذه النسبة إلى (٢٪) سنة ٢٠٠٧م، كما يحظى الصندوق بدعم الشركاء الفنيين والماليين للدولة، مثل البنك الدولي وصندوق النقد الدولي وبرنامج الأمم المتحدة للإنماء والبنك الإفريقي للتنمية.

قطاع التوظيف:

قطاع التوظيف والتشغيل من أهمّ القطاعات التي لها ارتباط وثيق ومباشر بتمكين الشباب، وانخراطهم في السياق الاجتماعي والاقتصادي في المجتمع، ودولة مالي أولت ولا تزال تولي عناية فائقة بهذا القطاع من أبعادٍ مختلفة يمكن تلمّس جوانب منها في السياسات

- تأمين استقبال وإخبار وتوجيه طالبي العمل.

- تخطيط وتنفيذ الميكانيزمات والأعمال الموجهة لضمان ترقية الشغل، بما في ذلك شغل النساء والشباب.

وفي سنة ٢٠٠٢م، لغرض تعزيز وتفعيل السياسات الوطنية في مجال التوظيف، قامت الدولة بتبني برنامج خاص لتوظيف الشباب، هو: «برنامج توظيف الشباب»، وكان ضمن مقتضيات البرنامج إنشاء مؤسسة خاصة لتشغيل الشباب، وهي: «وكالة ترقية شغل الشباب»، والتي تأسست بموجب قانون رقم ٠٢-٠٢١ الصادر ٢٥ أغسطس ٢٠٠٢م، وزاولت الوكالة عملها في الواقع في فبراير ٢٠٠٤م، وتتمثل رسالتها كما هي معبر عنها في القانون المذكور في: «السعي إلى ترقية الشغل للشباب الماليين الذكور والإناث من ١٥ إلى ٤٠ سنة، سواء كانوا في الوسط الريفي أو الوسط الحضري، مقيمين أو مغتربين، من خلال تسهيل ولوجهم سوق العمل وحصولهم على القرض».

تسهر الوكالة على تنفيذ أهداف «برنامج توظيف الشباب» الذي كانت نسخته الأولى (٢٠٠٣م - ٢٠١١م) موزعة على أربعة محاور رئيسية، تم دمجها في النسخة الثانية من البرنامج ٢٠١١م في سلك ثلاث عناصر، هي: (تعزيز قابلية توظيف الشباب، تنمية روح المقاول، تعزيز آليات تمويل مشاريع الشباب).

أما الأهداف المسندة إلى الوكالة؛ فتتمثل في:

- تخطيط وتنفيذ برامج التشغيل المعتمدة على كثافة اليد العاملة من أجل خلق الوظائف للشباب غير المدرّب في الأوساط الريفية والحضرية.

- تسهيل حصول الشباب على آليات الإنتاج، وترويج أنشطة تسويق وبيع المنتجات.

- تسهيل اندماج الشباب عبر التدريبات التأهيلية، ودورات التكوين المهني، والتمرّن.

- البحث عن أوجه الاستفادة مع برامج التنمية التي لها تأثيرات في مجال الشغل.

- حشد وإدارة الموارد من أجل ترقية وخلق فرص العمل للشباب.

والاستراتيجيات الوطنية العامة التي سبقت الإشارة إلى بعض منها، وفي المؤسسات العمومية الكبيرة المكرّسة لترقية الشغل، وأخيراً في الميزانيات الضخمة التي تخصصها الحكومة لهذا القطاع.

تعود الوثائق الأولى التي تبنتها السلطات المالية بخصوص سياسات واستراتيجيات ترقية الشغل إلى ١٩٩٨م، في تزامن وتكامل مع الاستراتيجية الوطنية لمحاربة الفقر التي اعتمدت في السنة نفسها، ما يجعل من مالي ضمن أوائل بلدان المنطقة التي اعتمدت وثيقة مرجعية لترقية الشغل ومحاربة البطالة، وتتمثل الأهداف المعلن عنها في وثيقة «السياسة الوطنية للشغل» في:

- تعزيز وتأمين الوظائف الخاصة المتوفرة، وتحسين الفاعلية في الوظيفة العمومية.

- تخفيض مستوى العطالة والعمالة المتدنية؛ من خلال خلق فرص العمل، وتكثيف الأنشطة

- رفع الطلب على الأيدي العاملة في المناطق الحضرية والريفية؛ عبر تطوير القطاع الخاص.

- تعزيز العرض حول الأيدي العاملة؛ عبر التكوين الجيد والتأهيل المتناسب مع احتياجات الاقتصاد.

- تعميم ترقية الشغل على المستوى المحلي، مع الأخذ بالاعتبار الخصوصيات الإقليمية، وتشجيع تشغيل الأيدي العاملة بشكل مكثف.

- تشجيع تحسين ظروف العمل في المجالات المختلفة: الوظائف المعاصرة، الوظائف غير النظامية، الوظائف الريفية، الوظائف المؤقتة.

- البحث عن سبل توحيد سوق العمل.

وفي ٢٠٠١م رغبة من الدولة في تعزيز وتفعيل سياسات الشغل، قامت بإنشاء «الوكالة الوطنية للشغل» بموجب مرسوم رقم ٠١-٠١٦ بتاريخ ٢٧ فبراير ٢٠٠١م، ومن أهم الأهداف المفوضة إلى الوكالة:

- العمل على جمع وتنسيق وتحليل ونشر المعطيات المتعلقة بسوق العمل.

- العمل على التنبؤ، وتحصيل عروض العمل من أصحاب العمل، والسعي إلى الربط بين طلبات العمل وعروضه.

- وضع بروتوكولات الاتفاقيات مع المؤسسات المالية.

- دعم الجماعات الترابية في مجال تصميم وتنفيذ البرامج المحليّة المتعلقة بخلق الوظائف للشباب.

- تنسيق جهود كلّ المتدخلين في مجال توظيف الشباب.

- إنشاء شبكة من الشركاء الوطنيين والدوليين لترقية شغل الشباب.

وفي ٢٠١٥م؛ اعتمدت الحكومة المالية وثيقة

جديدة للسياسة الوطنية للشغل، وخطّة العمل (٢٠١٥م - ٢٠١٧م) باعتبارها تفعيلية للأهداف

المضمّنة في السياسة الوطنية للشغل، والدافع إلى تبني هاتين الوثيقتين هو: تحديث سياسات التشغيل

لتكون متوائمة مع التطورات السياسية والاجتماعية والاقتصادية الناتجة عن أزمة الشمال ٢٠١٢م،

والغاية من هاتين الوثيقتين، كما وردت في بيان المجلس الوزاري المنعقد يوم الأربعاء ١٨ مارس

٢٠١٥م، تتمثل في:

- إيجاد وتقوية العلاقة بين كلّ السياسات الوطنية.

- تعزيز أنشطة فعاليات خلق وترقية الشغل، تشجيع

المشاريع الخاصّة المدرة للدخل.

- مساعدة المقاولات المعاصرة والمشاريع الصغيرة والمتوسطة.

- تأطير إجراءات ترقية الشغل؛ لتأخذ في الاعتبار التحدي الديموغرافي، وخصوصيات

المشكلات المرتبطة بالاندماج بخصوص بعض المجموعات، والتي منها: النساء، والشباب، والمعاقون، والمهاجرون العائدون.

خاتمة:

يمكن أن نلخص النتائج الإجمالية للدراسة في النقاط العامّة الآتية:

- برغم التقلبات السياسية التي عرفتها دولة مالي في مسارها التاريخي الحديث؛ فإنّ هاجس

تمكين الشباب كان دائماً حاضراً في الأجندة السياسية للسلطات الحاكمة، منذ الإدارة الاستعمارية

التي كانت تستغل الشباب كأدوات عمل في تنفيذ مشاريعها، وحتى الانتقال الديمقراطي في بداية

التسعينيات، وإلى الآن، حيث أصبح تمكين الشباب ضمن أولويات العمل السياسي، اعتقاداً بأنّ تمكين

الشباب ضروريّ لمحاربة الفقر وتحقيق التنمية المستدامة، وبأنه كذلك شرط لبناء السّلم والاستقرار

السياسي والاجتماعي.

- هناك أطر قانونية كثيرة تُشرّع لعمل السلطات المالية في مجال تمكين الشباب، منها أطر وطنية

كالدستور المالي، إقليمية كميثاق الشباب الإفريقي، ودولية كالمواثيق والمعاهدات الدولية الثلاث المتعلقة

بحقوق الإنسان، والمعروفة اختصاراً بـ: «لائحة الحقوق الدولية»، وأهداف الألفية للتنمية.

- تجسّدت عناية الحكومات في مالي بتمكين الشباب في السياسات والاستراتيجيات التي تُؤطر

وتوجّه وترشد العمل الحكومي؛ في مجال صياغة وتنفيذ مشاريع وبرامج التنمية والإقلاع الاقتصادي، ويمكن

التمييز بين نوعين منها: سياسات واستراتيجيات وطنية عامّة، وسياسات واستراتيجيات قطاعية.

- ازداد الاهتمام الحكومي بتمكين الشباب بعد أزمة الشمال، يتضح ذلك بجلاء في خطط الخروج من الأزمة،

كما في «خطة الإنعاش الاقتصادي المستدام في مالي (٢٠١٢م - ٢٠١٤م)»، وفي الاستراتيجيات المرجعية

للسياسات العمومية للدولة، كما في «الإطار الاستراتيجي للتنمية وتخفيض الفقر (٢٠١٢م - ٢٠١٧م)»، ويمكن

كذلك أن نذكر هنا بعض الوثائق الاستراتيجية الخاصّة بالسياسات القطاعية، مثل: قطاع التعليم، كما في «الخطة

الانتقالية لتطوير التربية ٢٠١٥»، وقطاع التكوين المهني، كما في «برنامج الخطة العشرية لتنمية التكوين المهني

من أجل الشغل»، وقطاع التشغيل، كما في «السياسة الوطنية للشغل ٢٠١٥»، وخطة العمل (٢٠١٥م - ٢٠١٧م)

المنبثقة من السياسة الوطنية للشغل» ■



الشباب الإفريقي وسؤال المستقبل: تحديات وآفاق



د. هارون باه

أكاديمي وباحث، أستاذ التعليم العالي - السنغال

لكن هذه القوة الديموغرافية فرضت نفسها؛ بحيث لم يعد بالإمكان تجاهلها ولا إقصاؤها؛ لمحوريتها وخطورتها على مستقبل شؤون القارة، فصار يُحسب لها حسابها في ميزان التغيرات الجارية والتفاعل الحاصل بين الداخل والخارج؛ من خلال: إنشاء هيئات شبابية وطنية دستورية^(٢)، كما جعل الاتحاد الإفريقي من بين اهتماماته تمكين الشباب^(٣) عبر مجموعة من البرامج، سواء على المدى

لا يزال حقل دراسة قضايا الشباب في إفريقيا بكرة؛ إذ لم يصبح موضوع تداول معرفيٍّ إلا في التسعينيات من القرن المنصرم؛ في خضم الحديث عن حقوق الإنسان عامة، وإن كان هناك اهتمامٌ قليلٌ قبل ذلك، هذا فضلاً عن إنجاز دراسات استشرافية تعنى بمعالم مستقبل الشباب^(١).

(٢) الفصل ٣٣ من الدستور المغربي، الفصل الثاني من الدستور السوداني ٢٠٠٥م، وغيرهما.

(٣) لما ينتظرهم من تحقيق «أجندة الوحدة ٢٠٦٣» مع الذكرى المئوية الأولى من إنشاء منظمة الوحدة الإفريقية.

(١) إذا كان استشراف مستقبل الشباب الإفريقي يرتكز على كونهم الفئة العمرية الغالبة؛ فهل يعني ذلك أن العلاقة بينهم وبين القارة العجوز علاقة عكسية؛ باعتبار الشيخوخة التي تعم أوروبا؟

القريب أو البعيد، منها: اليوم الإفريقي للشباب مع كل ١ نوفمبر، مما يضع إطاراً قانونياً ومؤسسياً للعمل الشبابي بالقارة^(١).

وأهمية هذه الخطوة تكمن في وضع الخطوط العريضة للسياسة الشبابية، والانتباه إلى هذه الطاقة والقوة التي ظلت منسية؛ برغم كونها رأس كل الثروات وعماد المستقبل، فهم أهل لقيادة المجتمع، وتولي المسؤولية، وإدارة شؤون الدولة، ورفع المطالب الشعبية.

والمجتمع الإفريقي مجتمعٌ فتّي؛ ذلك أنّ الشباب يشكلون أكثر من ٦٥٪ من السكان^(٢)، وهم الأشخاص الذين تتراوح أعمارهم ما بين سنّ (١٥ - ٢٥) حسب ميثاق الشباب الإفريقي؛ بيد أنّ الوقوف على الواقع الشبابي المركب الأبعاد في السنوات الأخيرة يوحي بجملة من التحولات الخطيرة:

- أنّ الشباب أصبح ظاهرةً ماثلةً للعيان، تفرض تحدياتها على مختلف الفاعلين السياسيين وطنياً وإقليمياً ودولياً؛ وهو ما يجعل من التفاعل معها أمراً حتمياً لا مفرّ منه؛ إمّا على شكل خطابٍ سياسي، وإمّا بشكل مشروعٍ تنموي، وإمّا بترشيدٍ أخلاقيّ / حضاري.

- أنه كلما زاد وعي الشباب بقضاياها كان ذلك دافعاً له نحو العمل الاجتماعي والسياسي، وهو في ازديادٍ مستمرٍّ بحكم طبيعة العالم المتحرك.

- أنّ الدول ذات الكثافة السكانية الكبرى لا تشهد استقراراً متماسكاً؛ مثل: نيجيريا، ومصر، وإثيوبيا، والكونغو، والجزائر، وهو ما يعني أنّ هذا الملف لا يزال مؤرقاً ومقلقاً للحكومات. وعليه؛ فإنّ هذه الفئة العمرية حيةٌ وحاضرة، وتشغل اهتمام النظام الإقليمي، وكذا الدول القطرية، بسبب التغيرات الكبرى التي يعيش فيها العالم منذ انتهاء الحرب الباردة.

وانطلاقاً من هذا الواقع: كيف يمكننا استشراف بعض ملامح مستقبل الجيل القادم، وذلك باستتطاق الماضي، وتأمل الحاضر، انتهاءً إلى المآل في حدود الـ (١٠ - ١٥) سنة القادمة؟ وما هموم الشبيبة في القارة السمراء؟ إلى أين تتجه الشؤون الشبابية في إفريقيا منذ انتهاء الحرب الباردة؟ وهل سيختفي تحدي الأمن والاستقرار قريباً؟ وهل تبني الحكومات لمف الشباب سيؤدي إلى مزيدٍ من المكتسبات، أو إلى احتواءٍ وتدجين، أو تمريرٍ للصلاحيات إلى ورثة الزعامة السياسية؟

في ضوء هذه التساؤلات؛ نناقش قضايا محورية عن الشباب الإفريقي، في إطار الآمال السياسية والاقتصادية المتجددة، والتحديات الأمنية والحضارية، وفي الختام نقدم عدداً من المقترحات.

أولاً: الآمال المتجددة:

أ - المشهد السياسي:

المتأمل في الأنظمة السياسية الإفريقية الراهنة؛ يدرك أنها لم تعد تمتلك من القوة ما كان يبدها عشية الاستقلال، مما قلص من فرض إدارتها على المجتمع، ما يعني أنّ القرار السياسي الداخلي بدأ يؤول أمره إلى الشعب، وهو ما سيمنع الشباب في المستقبل اختيار قادتهم، وهو اتجاهٌ سليمٌ نحو التحرر الوطني، وترسيخ أسس التحول الديمقراطي.

والقارة تتجه نحو الاندماج الطوعي بشكلٍ لم يُعهد فيها، ويظهر الأمر بصورة أكثر وضوحاً في غربها، على مستوى المجموعة الاقتصادية لدول غرب إفريقيا، حركة، أفكاراً، استثماراً، سياسةً، أمناً.

على أنّ الخيارات المتاحة اليوم أكثر مما كانت عليه قبل عقود؛ فبإمكان الدول الإفريقية اليوم أن تتجاوز الدولة المستعمرة لتربط علاقات بدول آسيوية أو أمريكية؛ خلافاً لما كان عليه الأمر أيام الحرب الباردة، ولتغيّر موازين القوى.

ومن المرشّح مستقبلاً أن يكون الدستور الحكم الأثوري في حال وجود خلافاتٍ وطنية وتوتراتٍ داخلية، بعد الإجماع على تجريم كل استحواذٍ على السلطة بالقوة، سواء على المستوى الوطني أو حتى من الاتحاد الإفريقي نفسه^(٣)، ولن

(٣) وقد علّق الاتحاد الإفريقي عضوية غينيا بيساو عقب انقلاب ٢٠١٢م الذي أطاح برئيسها.

(١) فيما أدرك القائمون على الندوة العالمية للشباب الإسلامي أهمية هذه الفئة العمرية فأنشؤوا لها مؤسسة دولية، تعمل في إطارها منظمات وهيئات شبابية، منذ عام ١٩٧٢م.

(٢) مفوضية الاتحاد الإفريقي تنضم إلى الشباب الأفارقة؛ في تجربة محاكاة لقمّة الاتحاد الإفريقي في تونس، انظر: <http://au.int/ar/african-union-commission-joins-young-africans-simulation-african-union-summit>

ومواجهتها، ودحض برامجها السياسية المؤسسة على الوعود الكاذبة والتضليل الإعلامي والتقارير المغلوطة؛ أو في أقل الأحوال تقديم رؤية أو برنامج سياسي مغاير لما تقدمه الدولة. وهذه السيولة في المعلومة مرتقبة؛ نظراً لزيادة وسائل الاتصال والمواصلات، واختراق التكنولوجيا للشعوب الإفريقية، وهو ما يصعب العمل على الحكومات التي اعتادت التضليل، ولن يكون من السهل تهدئة الشباب عند انكشاف الخدع والوعود الكاذبة^(١).

ب - الفرص الاقتصادية:

جاذبية الاستثمارات الإفريقية عامل قوي لولوج السوق العالمية وزيادة الاندماج الإفريقي، وهو ما قد يعطي فرصة لتوسيع الطبقة الوسطى، وزيادة الدخل لدى الفئات التي في مستقبل الأعمار.

لكن سلم إفريقيا في التجارة الدولية يكشف عن وضعها الاقتصادي المتردي، نتيجة التبعية الاقتصادية للدول الغربية، التي تستفيد من مواردها الأولية في التصنيع والتجارة وتطوير التكنولوجيا، وهو تحد كبير أمام رجال الغد، يحتاج لعمل جبار لتصحيح الخلل الذي استمر عقوداً من الزمان، وهنا أهمية الاعتماد على الشباب لكسب الخبرة التكنولوجية وتوطينها بالقارة؛ للخروج من المأزق المؤرق، وتحقيق التنافسية في الأسواق العالمية في شتى المجالات: الزراعة وتربية المواشي والتعدين.. إلخ.

إن دفع حركة المرور عبر ربط الطرق بين الدول، وإزالة الحواجز الجمركية وكل أنواع القيود، يسرع من تبادل الأفكار، ونقل الخبرات، وتمتية القدرات، واكتساب الكفاءات والتجارب، وهو ما يعد إحدى ثمرات الانفتاح الإفريقي- الإفريقي؛ بعكس ما كانت عليه الأمور قبل عقود، وهو طريق للتغلب على التجزئة، وإعادة تشكيل لوحدة جغرافية تتناسب وتطلعات الأفارقة الذين عانوا مرارة التفرقة.

وتقديم ربيع وهبة، المجلس الأعلى للثقافة، المشروع القومي للترجمة، العدد ٩٥٧، القاهرة، الطبعة الأولى ٢٠٠٥م، ص ٢٥٨.

(٢) (١٩٦٨ و ٢٠١١م): تواريخ ذات دلالة، قام بها شباب وطلبة في فرنسا وفي القارة في الأزمنة المعاصرة؛ مع وجود قواسم مشتركة في الأوضاع القائمة، والظواهر قد تعدي.

يحظى أي وصول إلى الحكم مستقبلاً في أغلب الحالات بالمصادقية والشرعية إلا بالانتخاب الحر والنزيه، ولو نسبياً، كالفوز في الانتخابات بنسبة معقولة في السنغال وكوت ديفوار والغابون.. إلخ، ثم إن سقوط أحزاب عتيده من المشهد السياسي و بروز قيادات حزبية جديدة؛ يبرهن على أن التحول الديمقراطي يأخذ مساره الصحيح، وأن الحياة السياسية قد دخلت طور التعافي.

وقد يكون من بين أسباب ذلك - مثلاً - في إفريقيا «الفرنكفونية»: هلاك جاك فوكار Jaque foccart الذي قام بدور تخريبي لكل مقاوم للحكومة الفرنسية عقب الاستقلال، إلا أن ذلك الدور لم يخطف كلية، وإن كان يتم بشكل أقل افتضاحاً اليوم.

على أن جوهر الديمقراطية يتوقف على السيادة الشعبية، ولا يقف فقط عند حد الشكليات، ونعني بها هنا: الانتخاب والتمثيل؛ بل ينبغي أن تجسّد العدل في مختلف أبعاده، والعدل مفهوم محوري في الاجتماع الإفريقي.

ومن مؤشرات السيادة الشعبية:

- حالة التعليم في الجامعات الإفريقية: وهي الفضاء الأرحب لتفجير طاقات النشء، وللوصول إلى تلك الغاية لا بد من إصلاح جذري في سلك التعليم العالي، وضبط الارتباك الذي يتردد صداه في المظاهرات والإضراب وتأخر الامتحانات.. إلخ، وعلى الجامعة الرهان الأكبر في التغيير نحو الأفضل.

- ارتفاع نسبة مستخدمي شبكات التواصل الاجتماعي لدى أوساط الشباب؛ والاهتمام بشؤون التخطيط والبرمجة والتقييم، كل ذلك أدى إلى وجود فئات عريضة اليوم من ذوي مهن ثقافية حرّة، كالمعلوماتيين، والصحافيين والكتاب والأدباء، والمحليلين، والمستشارين، وهم كفاءات قادرة على التغيير.

- توفر المعلومة: وهو عامل فائق الأهمية، لقدرة المعلومة على تغيير الأفكار، ومن ثم تغيير بنية النظام السياسي؛ بالكشف عن حقيقته استناداً إلى حقائق علمية ثابتة، وتتخطى أسلحة الضعفاء: التخفي والتسلل والتخريب^(١)، كما تزيد من جرأة الشباب في نقد الحكومات

(١) تشارلز تلي: الحركات الاجتماعية ١٧٦٨ - ٢٠٠٤، ترجمة

الاستعمار بوقاحة بالمطالب القومية والثقافية والنزاعات الإثنية والدينية؛ من أجل تفكيك الدول، وتحويلها إلى دويلات عاجزة أمام تحكّم السوق، فتتزايد مظاهر الفوضى في العالم^(١).

ثم إنَّ حالة ليبيا وتداعياتها الأمنية على مناطق الجوار، وما تبعه من تدخلٍ أجنبيٍّ في شؤون إفريقيا، يكشف بوضوح عن الاستراتيجية الغربية بإبقاء اشتعال الحرائق؛ حتى تتصّب نفسها رجل الإطفاء المخلص!

ما يعني ضرورة الوقوف على الأسباب الموضوعية لتلك السياسات «السادية» المتاجرة بشقاء الإنسان؛ للحيلولة دونها، ويمكن تلخيص أسبابها في: التهميش، والإقصاء الناشئ عن الجور والحيث والتعسف تجاه شريحة معينة من شرائح المجتمع؛ دينياً، سياسياً، اقتصادياً، اجتماعياً.

ولعلّ مسألة وقف التدخل العسكري الأجنبيّ لن تتم إلا بقصرار جهويٍّ من النظام الإقليمي الإفريقي، وهو ما لا يلوح في الأفق القريب؛ لتعارض المصالح الأمنية بين الدول الإفريقية من جهة، والرؤى الاستراتيجية نحو القارة.. من جهةٍ أخرى.

على أنه إن كان المقصود بالإرهاب: كلُّ رفض أو معارضة للحضارة الغربية، وأنَّ غير الغربي عليه دائماً أن يكون مجرد «مستهلك» لهذه الثقافة الغربية؛ فلن يؤدي ذلك إلى تحقيق الأفارقة لذواتهم، بل إلى حرمانهم من أن يكونوا حتى «مثل» الغربيين^(٢). ستبقي القوى الغربية على قدر من الأزمات والبؤر الملتهبة؛ تضمن لها التدخل ما بين الفينة والأخرى، وإعادة ترتيب الأمور وفق مصالحها ووفق المتغيرات الدولية؛ بدليل إغراق القارة بالأسلحة الفتاكة، وقد يتم تبديد كثير من الطاقات الإفريقية مادية ومعنوية في الأعوام القادمة؛ بسبب المشكلات الأمنية؛ الحروب بالوكالة، الصراعات الداخلية، مواجهة الإرهاب على حساب التنمية والنهوض.

من التحديات الكبرى التي تنتظر الشباب في إفريقيا:

(١) حلمي شعراوي: الفكر السياسي والاجتماعي في إفريقيا، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط١ - ٢٠١٠م، ص ٤٢.

(٢) حلمي شعراوي، الفكر السياسي والاجتماعي في إفريقيا، مرجع سابق، ص ٤١.

فالثلاثي المركب الأضلاع الذي يعوّل عليه لإخراج إفريقيا من النفق المظلم هو: البحث العلمي، والصناعة - الزراعة، الرؤية الحضارية، وما ينبثق عنها من قيم سياسية في الحكم الرشيد، ووجود المؤسسات القادرة على تلبية ضرورات الاجتماع، فالأفارقة قادرين على أن يكونوا قاعدة صناعية عالمية؛ نظراً لما يمتلكونه من ثروات معدنية، وطاقات متجددة وحيوية للصناعات الثقيلة، ومن يتبع الاكتشافات المعدنية يلاحظ تزايدها، وهو ما قد يكون عاملاً ثراءً لدى بعض شعوب القارة.

ولدى بعض الشباب طموحٌ تصنيعي، ومستقبل واعد، ما يعني أن أمثال هؤلاء عندما يجدون الرعاية والدعم؛ فإنهم قادرين على تلبية احتياجات إفريقيا الصناعية، وليس بالضرورة - حالياً - الوصول إلى ما وصل إليه الغرب، موازاة مع ذلك؛ ينبغي اتخاذ سياسات حماية من قبل الحكومات دعماً وتشجيعاً للنشء الصاعد وللبحث العلمي.

ثم إنَّ الاستثمارات الخليجية - الإفريقية، وما تعبّر عنه من انفتاح اقتصادي، في تمام مستمرٍّ، ما قد يوفر للشباب باباً للاكتساب والعمل وتقليل الفقر، والابتعاد عن المؤسسات المالية المتوحشة، بانتشار الصيرفة الإسلامية، وما تضخّه من رؤوس أموالٍ بإفريقيا، وعائد تلك العلاقات سياسياً واقتصادياً؛ توسيع الخيارات السياسية أمام الدول الإفريقية، والتخلص من القبضة الغربية.

ثانياً: التحديات؛

أ - التحديات الأمنية؛

على الرغم من أن أبناء القارة يتطلعون للاستقلال والتحرر؛ فإنّ ثمة متغيرات سياسية وأمنية وحضارية، تدفع بالقوى الكبرى للتدخل في الشؤون الإفريقية بذريعة الحرب على الإرهاب، فبدل أن تتصل القواعد العسكرية الغربية فهي أخذة في الازدياد، ومن المتوقع ارتفاعها إن سارت الأمور على ما هي عليه من ضعف الدولة المركزية، وعجزها عن سدِّ حاجات مواطنيها، والحفاظ على اللحمة الوطنية، وتكالب القوى الكبرى على استغلال الثروات.

وفي الوقت نفسه؛ يسعى النظام الرأسمالي العالمي إلى مزيدٍ من إجراءات إدخال إفريقيا في «نظام السوق»، وإلغاء قدرة الدولة على مواجهة غزو السوق الخارجي، ويتلاعب

ويتوقَّع فاعلية المؤسسات الدينية^(١) في المشهد الإفريقي، بشقِّه الأهلِي والحكومي، بل صراع أتباع المذاهب الفكرية، مثلاً: السنَّة والشيعية، في بعض المناطق، كما حصل في نيجيريا، وقد ينتشر التشيع في إفريقيا إذا لم يتم التصدي له، لاللتباس الحاصل في خطابهم؛ من ادعائهم حبَّ آل البيت، ومساهماتهم في التنمية والبنى التحتية، واستعانتهم بأبناء البلاد، والدعم السخِّي من الحكومة الإيرانية رابعة التشيع في العالم، وكثرة الجامعات الشيعية بالقارة، واستغلالهم وسائل الإعلام، مما يزيد في شقِّ صف المسلمين، وإضعافهم، وتشيتت جهودهم، وتأجيل نهضتهم. ومع ظهور التيارات الدينية والمذاهب الفكرية؛ قد تظهر نخبة دينية عالمية في عقدها الثالث أو الرابع، وربما مشايخ في العلم لهم نفوذهم وتأثيرهم في الرأي العام والساحة الوطنية؛ بسبب عودة الأفواج المتخرجة من الدول العربية، وافتتاح كليات للشريعة، وإجراء بحوث ودراسات علمية، وهو ما قد يُسهم في دفع الحركة العلمية، وتوضيح وبلورة بعض المفاهيم، وإحياء نفس التجديد على مستوى الجناح الغربي في العالم الإسلامي، والتصدي للتغريب.

لقد استطاع شباب الحركة الإسلامية في بعض المناطق الإفريقية من وضع لمستها على المشهد الاجتماعي، كما هو الحال في السنغال مع حركة: شباب موحد من أجل الدين والعمل والأخلاق (JUSTE).

أما نشاط الكنائس بين الياfeين خطاباً وممارسةً، وإنشاء مؤسسات الوعظ المسيحي، وبناء الكنائس، والتدخل في الأزمات من أجل التصير بين أبناء المسلمين، فلم يعد خافياً. كما تعمل أجنحة الغرب لاستقطاب الشباب، كما نلاحظه في السياسات الأمريكية عبر البطاقة الخضراء، ولا يحظى بها إلا من لديه مستوى علمي محدد أو تكوين نسبي، بالجملة من يقدم نفعاً لمهجّره الجديد.

فقد استقبل الرئيس الأمريكي باراك أوباما قيادات

تحدي الأمن والاستقرار، ولعله أكبرها، ففي غيابها لا يمكن لأي مشروع اجتماعي / إصلاحِي أن يتبلور، فضلاً عن أن يؤتي أكله، فالاستقرار مدخل لا مناص عنه للنهوض، أو ثمّة قدّر لا بد منه، ما يعيد طرح السؤال عن مقومات النهضة من جديد. وفي ظلّ التصعيد الغربي ضدّ «الإرهاب»، بزعامة فرنسا في منطقة الساحل والصحراء، لا يُستبعد أن تتكرر تجربة الفشل، كما حصل للولايات المتحدة الأمريكية في حربها في أفغانستان ٢٠٠١م والعراق ٢٠٠٢م، فمنذ أن بدأ التدخل الفرنسي بشمال مالي سنة ٢٠١٢م؛ ما زال الخرق الإرهابي تتسع دائرته في المنطقة على الرّاقع الغربيّ وحلفائه. فالانصياع للإملاء الغربية في القضايا الأمنية الداخلية قد يؤجج من نيران الطائفية بين أبناء الشعب الواحد أو مع الجوار، كما أن المصادقة على قوانين الإرهاب قد تُتخذ ذريعة لتصفية الخصوم أو تسميم الأجواء السياسية.

ب - التحديات الحضارية:

إنّ قضايا القيم والهوية والأخلاق هي المحدّد الرئيس في الاتجاه التاريخي، وما الأمور الأخرى إلا وسائل: السياسة، الاقتصاد، الاجتماع، العلوم في بُدها التطبيقي.

وبناءً عليه؛ ستشتبك القيم الإفريقية (المؤمنة بالغيب / الميتافيزيقي) في صراع مع القيم الغربية المادية الساعية للهيمنة على الوجودان الإفريقي واستلاب كرامته الإنسانية، وهو - أي الإفريقي - يقدر قيم الحياة الجماعية والتعاون والتشارك، فيما ينحو الغرب منحى الفردانية والأنانية، وهو ما سينتج عنه رفض لنمط الغرب في طريقة العيش، كما أنّ الصراع سيظهر أيضاً على مستوى المرجعية، من مساندة الخطاب الحقوقيّ المستند على الشرعية الدولية، في مقابل أيّ مرجعية أخرى بما فيها الإسلام، علماً بأنّ القارة أكثر من نصف سكانها مسلمون.

ويتوقَّع في العقود القادمة تنامي دور الدين والتيارات الدينية بالمجتمعات الإفريقية، وهو ما يفرض استثمار القيم الدينية المتناغمة مع الهوية الإفريقية في نهضتها، من رفض كلّ أشكال الظلم، والدعوة إلى الإحسان، والتشبث بالعدل، وفعل الخير، وتوقير الكبير وصلّة الرحم.. إلخ، وهنا تكون المصالح الغربية ذات أثر حاسم ومحدّد لحركة المدّ والجزر فيها.

(١) ومنها مؤسسات إقليمية ووطنية: الإقليمية: اتحاد علماء إفريقيا ومنتدى الوسطية في غرب إفريقيا ورابطة علماء أئمة ودعاة منطقة الساحل الإفريقي، مؤسسة محمد السادس للعلماء الأفارقة. الوطنية: إنشاء منصب الوزير المعني بالشؤون الدينية في السنغال، أو المجالس العلمية في كوت ديفوار.. وغيرها.

شبابية- وكان الأول من نوعه- من ٥٠ دولة إفريقية ٢٠١٢م، وهو ما يُظهر حجم الاهتمام بهم لدى الولايات المتحدة الأمريكية، مع أنّ مصالحتها لا تزال تشكّل الأولوية لها في كل قطر إفريقي، وما يستفاد من فترة رئاسة أوباما على الرغم من أصوله الإفريقية: أنه لا يعوّل على الأجانب في نهضة القارة، وإنما على سواعد أبنائها.

أما الاتحاد الأوروبي؛ فهو ينظر إلى الشباب باعتبارهم عاملاً اقتصادياً ينبغي الاستفادة منه، وهنا تأتي سياسة الهجرة الانتقائية، وامتصاص الدماء الحيّة عبر المنح الدراسية والتسهيلات المغرية لمتابعة الدراسة في القارة العجوز، ومن ثمّ ضمان يد عاملة تزيد من عائدات الاقتصاد الأوروبي. ولا تخفى حدة التنافس بين الاتحاد الأوروبي والولايات المتحدة الأمريكية على إفريقيا، وهو ما ينعكس تلقائياً على شبابها، وفي كلا الحالين يتم تسويق «النموذج الغربي» من خلال تبني بعضهم للقيم الغربية.

لكن تزايد الخطاب المنصريّ والكراهية تجاه الأجانب في الغرب نتيجة الأزمات الداخلية المتفاقمة، والفراغ الروحي، والانهيار الأخلاقي، ووصول أحزاب اليمين المتطرفة إلى الحكم، كما هو واضح في حالة الرئيس الأمريكي دونالد ترامب، قد يدفع شباب «دول العالم الثالث» إلى إعادة التفكير في شأن الهجرة والاعتراب؛ مما يمهد السبيل أمام العودة إلى الأوطان وبناء المستقبل بها.

ومن التحديات الحضارية: ارتفاع نسبة الجهل والأمية التي ترتب عليها: الإيمان بأوهام وأساطير تعشّش في عقول فئات عريضة من الشباب، ترسم لهم مستقبلهم، ولا تستند إلى المنطق، ولا البرهان؛ بحجة اتباع الآباء والأجداد.

ج - شباب على مفترق الطرق:

تفجير الطاقة الشبابية والمواهب الدفينة يتم عبر: تحسين جودة التعليم، زرع الثقة في الذات، تحمّل المسؤولية، والاعتناء باليد العاملة المدربة لكونها القوّة الواعدة، تفعيل العمل الجماعي والخيري؛ وصولاً به إلى السموّ الروحي والأخلاقي لكسب الرهان.

وهنا تتساءل: إلى أيّ حدّ يمكن للشباب الإفريقي الصمود أمام مدّ العولمة؛ بالرغم من كون إفريقيا ذات ثقافات ومعتقدات متعددة؟ وما الوسائل القمينة بالمحافظة على هويتها وقيمتها وحضارتها الضاربة في جذور الماضي؟

إنّ الحفاظ على التراث الإفريقي، والتنوع الثقافي، والوعي بقضايا التحرر، كفيل بأن يشكّل مناعةً قويةً وممانعةً من الذوبان في طوفان العولمة، ثم إنّ الأسرة لا تزال متماسكة إلى حدّ كبير في كثير من المناطق الإفريقية، فهي المحضن التربويّ الأول للتشكّل الديني والأخلاقية والقيمية؛ وإن كان ثمة جهات منازعة لها في وظيفتها ومهامها الأصلية.

ويتوجب على كلّ المؤسسات التربوية والاجتماعية أن ترقى بتنشئة أبنائها، وصولاً إلى الرشد الشبابي والحياء الكريمة اللذين يؤدبان إلى فتح آفاق المستقبل للجيل الصاعد من غير حيرة ولا ضلال، وتحقق على أيديهم العمارة المنشودة للمدنية الإفريقية قيماً ونظماً.

اعتماد وتبني حلول إفريقية ناجحة نابعة من الحقائق الاجتماعية والتاريخية، والأخذ بزمام المبادرة الجادة، كل ذلك يدعم الحلول الشرعية، ويؤهلها للاستمرار والتطور، ويتيح فرصة تقويمها وتصويبها، ومقاومة العولمة.

وقدرة الشباب الإفريقي على التكيف مع المتغيرات المتسارعة، ومخارجاتها السياسية والاقتصادية، تابع لمدى أهليتهم للمواجهة، وتمكّنهم من مفاتيح العصر، فيما لا يزال دور كثير منهم مقتصر على التنفيذ في الغالب الأعم، إن لم يكونوا على حاشية الحياة، وليس إصدار القرار؛ فإنّ مجاراتهم للمتغيرات ستظل بطيئة، ولعل الأمر قد يتحسن خصوصاً مع الفئة المثقفة منهم، وذلك لما يوليه الاتحاد الإفريقي حالياً للشباب من اهتمام، فقد أخذ الاتحاد الإفريقي على عاتقه دعم الشباب في القارة، ومواجهة قضاياهم، وحل مشكلاتهم، وذلك من خلال عدد من الإجراءات، أهمها:

- إصدار ميثاق الشباب الإفريقي.
- تخصيص يوم للشباب الإفريقي.
- عقد مؤتمرات رفيعة المستوى تُعنى بقضايا الشباب في القارة... إلخ.
- حثّ الدول الأعضاء على المشاركة الفعالة في تنفيذ خطط دعم وتمكين الشباب على المستويين الوطني والإقليمي^(١).

(١) د. أيمن السيد شبانة: الموقف المصري من مقررات الاتحاد الإفريقي في مجال تمكين الشباب، انظر: http://acpss.ahram.org.eg/projectsRep.aspx?Report_ID=32

والعدالة للأفراد والمؤسسات، وطرق توزيع السلطة والثروة. ومن جملة المشكلات التي تحتاج إلى حل عاجل: الفقر والبطالة في صفوف الشباب، ما يتطلب العمل على إنشاء بنى تحتية ومشاريع تنموية يستفيدون منها، فالشباب الإفريقي بقطعه المسافات الطويلة في الصحاري والغابات، وركوبه البحر والمخاطر، وتحمله المشاق لأزمان مديدة، أبدى شجاعته وعزمه، يحدوه الأمل للوصول إلى طموحه، لكن النتيجة المترتبة على تلك المغامرات أثبتت أنها لم تأخذ وجهتها الصحيحة، ما يعني أن على الحكومات إقناع أبناء أوطانها أن لا مناص من تحقيق الإنجازات العظيمة فوق أراضي الأجداد والأسلاف، تطلعاً لغد أفضل، وثقة في الذات، مبتغية بذلك تعزيز قيم الولاء والاعتزاز بالوطن، وتحمل المسؤولية تجاه الأجيال القادمة.

ويقدر بعضهم نسبة البطالة في صفوف الشباب بحوالي ٦٠٪، وهو مما لا شك فيه أمرٌ مقلق، وله آثاره السلبية الفادحة في زيادة الجريمة والعنف والإدمان والمخدرات والجريمة المنظمة والهجرة.

وأغلبية المهاجرين من أبناء القارة- بأعداد صغيرة- في عنفوان شبابهم، ويبدو أن الحكومات الغربية بات يؤرقها ملف الهجرة، وتبدي تعاوناً أكثر مع الزعماء الأفارقة وهيئات المجتمع المدني والمنظمات الحقوقية والثقافية لتسيير الملف: من باب درء الأخطار، وتخفيفها إذا تعذر القضاء عليها. سيسهل فك العزلة عن القرى والأرياف ضماناً لحيوية الاقتصاد، وزيادة الأنشطة التجارية، وخفض نسبة البطالة والنزوح القروي، وفي إطار أشمل ملف الهجرة على العموم. على الشباب الإفريقي أن يهيئ نفسه للتعامل مع الشعوب الآسيوية حضارياً وسياسياً واقتصادياً وتكنولوجياً، ويضع استراتيجية لذلك، لما يتوقع في المستقبل القريب من انتقال مركز القوة العالمية إلى الشرق الآسيوي مع الصين والهند واليابان، وتشكّل أهمية المحيط الهندي في التجارة الدولية والقرب من إفريقيا معطى جيوبوليتيكيًا ومعبراً آمناً لشعوب القارتين، وفرصة للتكامل الاقتصادي والنهوض التجاري، والانتقال من الهامش إلى المركز؛ تتناسب مع موقع إفريقيا على الخريطة الجغرافية.

الحفاظ على التعدد والتنوع «التنوع في إطار الوحدة» دينياً، اجتماعياً، وتنظيم زيارات إلى دول مثل: تنزانيا،

والحق: أن شباب إفريقيا لديهم من الفرص والوسائل والإمكانات؛ ما يتيح لهم أن يكونوا في طليعة شعوب العالم وقادتها؛ إن هم أحسنوا استثمار كل الطاقات التي بأيديهم وترشيدها، وإعطاء اسم جديد ومعنى جديد لكل ما هو إفريقي، ومسح تلك الصور العالقة في أذهان البعض؛ من اقتران إفريقيا بالحرب والفقر والجهل.

ثالثاً: الاقتراحات:

من الأمور ذات الأهمية القصوى لتفعيل دور الشباب: إيجاد منابر للنشاور والحوار، على شكل لقاءات علمية، ومواسم ثقافية، ودور شباب أو مراكز علمية، فلا يعقل في القرن الحادي والعشرين أن تكون المدن الإفريقية منغلقة على ذاتها، ومحاطة بأحزمة الفقر وعصابات الجريمة، لا تتوافر على جسور لتبادل وجهات النظر ومناقشة القضايا العامة، في وقت يشتد فيه الاستقطاب من قبل أصحاب النفوذ والأيديولوجيا، فالعمران الإفريقي بحاجة إلى إعادة تخطيط لمدنه، وللأماكن والمرافق العمومية، ويتصل بذلك شكل الإدارة المحلية، ونمط توزيع السلطة.

وبعض التقديرات ترى أن الدول الإفريقية ستتحو مستقبلًا تجاه تفعيل اللامركزية، وما يلحق بها من اتخاذ مقاربات إدارية لضبط المجال الترابي: من منح بعض الجهات نوعاً من الاستقلال الذاتي أو الحكم المحلي، في إطار البحث عن الاستقرار الآمن؛ نتيجة عجزها عن تسيير المرافق العمومية بجدارة وكفاءة، ونقص الخدمات الاجتماعية بسبب الكثافة السكانية، وغياب السلطة بالمعنى التنظيمي (ضبط الأمن، تلبية حاجات المجتمع، تطوير حياة المواطن، توفير أدنى حد من ضرورات الصحة، الحجر الصحي، والطب الوقائي)؛ مما يفوت فرصاً عدة على الأجيال الشابة.

يذهب الخبراء إلى أنه في غضون السنوات الأخيرة؛ سوف تزدهم المدن بساكنيها، وذلك لانتقال الناس إلى الحضر، وهو ما يطرح معضلات ديموغرافية جمّة؛ من توفير زيادة الطلب على البنى التحتية والمرافق العمومية، وإدارة وتسيير شؤون البلاد بصورة متوازنة بين الجهات والأقاليم، ويتطلب ذلك برنامجاً أشمل، وهو تحديث الإدارة الإفريقية وعقلية المسؤولين بأن: شرعيتهم رهينة بخدمة الشعب ليس إلا، وما يطرحه تبعاً من إشكالية سيادة القانون، وضمان

السنگال، المغرب، للوقوف على تجربتها في التعايش السلمي. اتخاذ بعض المدن رمزاً للفوق والوئام؛ جعلها مكاناً لتوقيع اتفاقيات السلام والأمن، ومقراً للصلح وعودة الدفء بين الإخوة «الأعداء»؛ بدل الالتقاء في العواصم الغربية أو غيرها تحت شعار: «رسل سلام ودعاة أمان»؛ قياماً بدور الدبلوماسية الموازية.

يبد أنه من بين المسارات التي يمكن توقعها مستقبلاً للشباب الإفريقي في علاقتهم بنهضة القارة:

- القيام بدورٍ أساسيٍّ في صناعة مستقبل إفريقيا ونهضتها؛ نظراً لما يتبحه عالم اليوم من الفرص: الانفتاح، انتشار التكنولوجيا، وسهولة التواصل، ويتولى ذلك شباب ذو خبرة تنظيمية وقيادية ومهنية، مؤمن بمسؤوليته تجاه الأجيال القادمة، ومنتشبت بتراث من سبق.

- تكريس التبعية والتخلف وقبول هيمنة الغرب والاستقالة من الفعل الحضاري، ورواد هذا الاتجاه هم الفئة الممسوخة ثقافياً وحضارياً؛ لأنهم يتلقون عن الغرب، ويرددون ما تقرره المصادر/العواصم الغربية.

- الانجرار نحو الاقتتال والصراع حماية للمصالح الضيقة، أو وقوعاً في شرك المصالح الغربية، وقادة ذلك هم المنكفئون على ذواتهم؛ ممن تحركهم رغباتهم وشهواتهم.

الخلاصات:

تتحو حركة التاريخ منحنى معيناً نتيجة عدة عوامل، وانطلاقاً من معطيات معينة، لكن هناك مفاتيح لهذا المستقبل، لمن يريد العيش بسلام، وفق ما تكشف عنه تجربة بعض الأمم^(١): وأولها: التعليم على تعدد أصنافه، ثم العدل، وما يقتضيه ذلك من إصلاح الأنظمة القضائية والمسؤولية تجاه الآخرين.

محيط الشباب الوطني والإقليمي والدولي محدّدٌ أساسيٌّ في غد الأجيال الناشئة؛ وهو ما يعني أنّ الواقع الإفريقي بجمع مكوناته حلقة في سلسلة من التفاعلات المادية والمعنوية، وهنا يأتي السير نحو اتجاهات متعددة.

وعليه: فإنّ إفريقيا اليوم لم يعد بإمكانها الانعزال عن العالم بأيّ حجّة، وبرغم اختلال الموازين بينها وبين القوى

(١) أوروبا المعاصرة مقارنة بما كانت عليه في العصور الوسطى، اليابان، كوريا، ماليزيا.

الكبرى؛ فقد دخلت في ميدان المنافسة والمسابقة، وقدّرها أن تخوض المعركة بآباء وشرف، وليس بالانسحاب أو قبول الهزيمة. قد تتحرر إفريقيا من قبضة المستبدين، ويؤول الأمر إلى الشعب في اختيار حكّامه كما يريد ويرغب، لكن ليس من المتوقع -حالياً- أن ينفلت من قبضة الشركات المتعددة الجنسيات؛ لتحكمها في ثروات الشعوب الإفريقية وخيراتها، وللوضع البئيس في نظام التجارة والاقتصاد الدولي، أما شبح الانفلات الأمني؛ فلا يزال ماثلاً في كثير من أجزاء القارة، ويذهب الشباب وقوداً لتلك الصراعات!

التوصيات:

- الاجتهاد في إنشاء مراكز علمية شبابية بمختلف أنحاء القارة، تُعنى بأدق التفاصيل المتعلقة بها، مما يعزّز التواصل العلمي والمعرفي بين أبنائها، وزيادة المنح الدراسية بين المؤسسات الإفريقية، ورصد الجوائز المالية الضخمة سنوياً، المخصّصة للابتكارات والاختراعات الشبابية، تشجيعاً للبحث العلمي، وتلك خطوات كفيّة بتبديد ظلام الجهل وتوير الرؤى^(٢).

- إعادة الثقة إلى المواطن، والرشد إلى الحاكم والمؤسسة، وترسيخ ثقافة مكافأة المحسن أيّاً كان، ومعاقبة المسيء أيّاً كان، وتفعيل الدبلوماسية الموازية سعياً لإصلاح ذات البين، والحفاظ على اللحمة الوطنية، وتشجيع الحوار بين جميع الأطراف.

- إيجاد سبيل من شأنها إعادة الثقة للشباب الإفريقي، وتزويده بمقومات مادية ومعنوية لمجابهة الواقع، وهذا ما يتكفل به الإسلام للإنسان أيّاً كان، حينما جعله مكرماً يستحق كل تكريم إذا عمل بمقتضاه، وخليفة في الأرض، وكلّ شيء مسخّر له براً وبحراً وجوّاً، ودعاه إلى إعمار الأرض والسير فوق منابكها؛ متأملاً متفكراً معتبراً، أخذاً بالنسن، مزكياً نفسه، ساعياً في ابتغاء مرضاة الله ■

(٢) فعلى سبيل المثال: مناقشة دلالة انسحاب كل من بورندي وجنوب إفريقيا وغامبيا من محكمة الجنايات الدولية، وهل ذلك السلوك مقدمة لخروج إفريقيا من النظام الدولي الذي أقيمت دعائمه عقب انتهاء الحرب العالمية الثانية مثلاً؟ وهل يقع عبء ذلك على الشباب؟ وما تكلفته؟ هذه الأسئلة وغيرها جديرة بالبحث والتأمل.



تحديات الإعلام الإسلامي في غرب إفريقيا: بوركينافاسو نموذجاً

أ. هارون سوادغو

باحث وكاتب وطالب دكتوراه، من بوركينافاسو



تعد تسعينيات القرن العشرين الفترة التي شهدت ظهور وسائل الإعلام الحديثة، ومنها الإذاعات، في حقول الدعوة الإسلامية بمنطقة غرب إفريقيا، وقد أخذ عددها يزداد بشكلٍ ملاحظٍ مع الألفية الثالثة، بظهورها في الساحات الإفوارية والبوركينية والمالية والنيجرية والبنينية... إلخ.

والإعلام الإسلامي، بوصفه جزءاً من العمل الإسلامي، يواجه تحديات متنوعة في منطقة غرب إفريقيا، حيث تواجه هذه الإذاعات تحديات داخلية، وأخرى خارجية، وسيحاول هذا المقال الكشف عنها، مع التطرق إلى السبل التي يمكن أن تتخذ لمواجهةها، وتقليل آثارها السلبية على الخطاب الدعوي.

أولاً: التحديات الداخلية:

القضايا بوصفها من البدع الحسنة التي لا يُنكر على فاعلها؛ ناهيك عن المبالغة في الإنكار.

وكان المسلمون في بوركينافاسو، في حقبة ما قبل ٢٠٠٢م، نتيجة تأخر ظهور الإذاعات الإسلامية،

يلجؤون اضطراراً إلى شراء مساحات إعلامية في بعض الإذاعات الأهلية التجارية؛ لتقديم برامجهم الدعوية التي كانت تتحصر في الوعظ والإرشاد، مع استهلاك هذه المساحات الإعلامية المحدودة أحياناً في القضايا الخلافية، وتصفية الحسابات الشخصية^(١)!

ولمّا رأّت إذاعة «المفاز» في «بوبو ديولاسو» النور في مايو ٢٠٠٣م، وظهرت إذاعة «الهدى» في واغادوغو في ديسمبر ٢٠٠٤م، وقناة «الهدى» في أواخر ٢٠١١م، وهذه الوسائل كلها كانت مبادرات من رجال ينتمون للاتجاه السلفي أو متعاونين معه، أخذ هذا الاتجاه يفرض نفسه بقوة في الساحة الإعلامية الإسلامية.

ومع أنّ القائمين على إذاعة «الهدى» أبدوا استعدادهم لانتهاج سياسة المرونة الدينية والانفتاح على الجماعات الإسلامية بكلّ أطرافها، إذ أفصحوا عن ترحابهم بدعاة من خارج الاتجاه السلفي^(٢)، فإنّ ثمة مراقبة إعلامية تُفرض على منتجات الإذاعة حتى لا تتعارض مع الأطروحات السلفية؛ فيكون من المستبعد أن تسمع على موجاتها القول بجواز الاحتفال بالمولد،

إسماعيل وديرا، والشيخ علي سانفو، اللذان أُنكرّا على أتباع هذه الجمعية التبليغ لغير الحاجة، ودعاء الإمام وتأمين المأمومين.

(٢) سليمان، يانوغو: تعدد الخطاب الدعوي الإسلامي المعاصر في غرب إفريقيا: أفاقه واتجاهاته وانكاساته (بوركينافاسو) نموذجاً، رسالة ماجستير، ٢٠٠٩م، ص ٧٥.

(٣) Mathias Savadogo, Muriel Gomez-Perez, 2011. « La médiatisation des prêches et ses enjeux. Regards croisés sur la situation à Abidjan et à Ouagadougou ». ethnographiques. [org, Numéro 22 - mai 2011 [en ligne http://www.ethnographiques.org/2011/] Savadogo, Gomez-Perez - consulté le (2.03.2013

وهي التي تمّت بصلّة مباشرة إلى العناصر المكوّنة لبنية الإعلام بشكل عام، والإعلام الإسلامي بصورة خاصّة، وهي: الرسالة والمرسل والمستقبل ووسيلة الإرسال.

١ - تعدد مرجعيات الخطاب الديني:

يشكّل تعدد مرجعيات الخطاب الديني تحدياً قوياً في وجه الإعلام الإسلامي، ليس على مستوى القارة الواحدة فحسب، وإنّما هو ظاهرة عالمية تشغل الأمة الإسلامية، وغرب إفريقيا- بوصفها جزءاً من العالم الإسلامي- لم يخل من ظاهرة تعدّد الاتجاهات والتيارات الإسلامية.

ففي غرب إفريقيا جماعات إسلامية متباينة في المنهج والرؤى؛ يتشكّل بمقتضاها إعلام إسلامي يحمل رسالة إعلامية غير توافقية، يصل به الأمر في بعض القضايا إلى حدّ التناقض؛ ما يجعل المستقبل العادي لهذه الرسالة في حيرة من أمره.

في الحالة البوركينية:

تعدّ الجمعية الإسلامية التي تعرف بـ Communauté musulmane السنّة Mouvement sunnite، والجمعية الإسلامية التيجانية Communauté islamique Tidjaniya، من أبرز الاتجاهات الإسلامية التي يشغل دعائها المساحات الإعلامية المتاحة.

الاتجاه السلفي المتمثّل في جمعية أهل السنّة Mouvement sunnite: نذر نفسه لتصحيح العقيدة، ونشر السنّة، ومحاربة ما يُعدّ بدعاً، كاحتفال بالمولد النبوي، وإقامة المآتم، والتبليغ خلف الإمام لغير حاجة، ودعاء الإمام بعد الصلاة وتأمين المأمومين له، والأذكار التي ليس لها أصل.

وفي مقابل هذا الاتجاه السلفي: الجمعية الإسلامية والاتجاه الصوفي المتمثّل في الجمعية التيجانية؛ إذ تنظر هاتان الجمعيتان^(١) إلى هذه

(١) تجدر الإشارة إلى أنّ ثمة نهضة دينية يقودها بعض الدعاة الشبان في صفوف الجمعية الإسلامية، وهي مقدمتهم الشيخ

تشهد لونيّن من الخطاب:

- الخطاب السلفي: وتعمل على بثه: إذاعة «الهدى»، وإذاعة «المفاز»، وقناة «الهدى»، ويراه مناهاضوه خطاباً غير متسامح مع الطرف المخالف.

- خطاب الجماعات الإسلامية ذات النزعة غير السلفية: وهو خطاب يرى نفسه متسامحاً ومرناً ومنفتحاً، ويمثله خطاب إذاعة «رضوان» التي تعمل على تكريسه: قبل أن تلحق بركبها إذاعتا «اقرأ» و «الفجر»، ولا سيما إذاعة «الفجر» التي تقدّم نفسها على أنّها إذاعة الوسطية، وتستمد قوّتها من قوة الجمعية الحاضرة لها، وهي الجمعية الإسلامية، أولى الجمعيات الإسلامية بالبلد نشأةً وشعبيةً.

الساحة الإعلامية الإفوارية:

الوضع في الساحة الإفوارية متشابهاً إلى حدّ كبير بحالة بوركينافاسو، إذ يستأثر المجلس الوطني الإسلامي CNI بإذاعة «البيان» التي باشرت بثها عام ٢٠٠٢م، ومع أنّ الإذاعة أنشئت باسم مكونات الأمة الإسلامية في كوت ديفوار؛ فإنّ المجلس الوطني الإسلامي CNI تمكّن من بسط نفوذه عليها، فعمد إلى استقطاب المقربين إليه والمنحازين له، كدعاة وأئمة المجلس الأعلى للأئمة COSIM، وجمعية التلاميذ والطلاب المسلمين في كوت ديفوار AEMCI، وجمعية الشّباب المسلمين في كوت ديفوار AJMCI، ورابطة الدّعاة في كوت ديفوار LIPCI.

هذا، في الوقت الذي يحاول فيه استبعاد الجماعات ذات النزعة السلفية، أو التقليل من حضورهم الإعلامي، كجمعية أهل السنّة (ASMCI)، ومجلس أئمة أهل السنّة (CODIS)، واتحاد التلاميذ والطلاب المسلمين في كوت ديفوار (CEEMUCI)، كما يتبع السياسة نفسها في حق الطّرق الصّوفيّة.

ومع أنّ سياسات المجلس الوطني الإسلامي الإفواريّ CNI في إدارة الإذاعة لم تدفع الجماعات السلفية إلى الخروج عليها، فإنّ ثلّة من السلفيين

ما جعل بعض الدعاة من الاتّجاهات الأخرى يصفونها بأنّها إذاعة طائفية، تسعى إلى تكريس مذهبية معيّنة، وعاجزة عن استيعاب جميع الاتّجاهات في البلد؛ لاشتراطها أسلوباً معيّناً في الخطاب^(١).

ولعلّ الشّعور بمحاولة الاتّجاه السلفيّ احتكار الإعلام الإسلاميّ هو ما دفع المرشد الرّوحي للاتحاد الإسلاميّ الدكتور (أبو بكر دكوري) إلى إطلاق إذاعة «رضوان للتّمية» في مارس ٢٠١٠م، وهي الإذاعة التي تحاول الآن- على حدّ زعمها- استيعاب الخطاب الإسلاميّ بمختلف ألوانه، بما فيه الطروحات المخالفة للاتّجاه السلفي، ومنها التحريض على الاحتفال بالمولد النّبوي، وبت فعاليات احتفالاته.

فإذاعة «رضوان» ظهرت لسدّ فراغ إعلاميّ يشعر به معظم أتباع الجمعية الإسلاميّة والجمعية التيجانيّة في الأوساط الإسلاميّة، وإرضاء ميولهم؛ إذ كانوا يرون في إذاعة «الهدى» إذاعة سلفية بامتياز، ولا يخفي معظم هؤلاء إعجابهم بإذاعة «رضوان»، ويرونها الإذاعة التي تعكس أصوات المجتمع المسلم في البلاد.

وعلى الرّغم من أنّ القائمين على إذاعة «رضوان» يزعمون انفتاحهم على كلّ الاتّجاهات الإسلاميّة، ويستدلون على ذلك ببثهم شرائط للدّعاة المشهورين من مختلف الجماعات الإسلاميّة، وإجراء مقابلات معهم، أو استضافتهم في برامجهم المتنوعة، فإنّ المتتبع لبرامجهم يدرك بلا عناء كبير محاولة تغييب بعض الأطروحات السلفية التي تشكّل موضوعات حسّاسة في المجتمع المسلم البوركيني، كالقول ببدعية الاحتفال بالمولد النّبوي، بطرح رؤى مخالفة تحاول تأصيل الاحتفال بالمولد وغيره من المناسبات الدّينية.

فالساحة الإعلامية الإسلاميّة في بوركينافاسو

(١) سليمان، يانوغو: تعدد الخطاب الدّعوي الإسلامي المعاصر في غرب إفريقيا...، مرجع سابق، ص (٨٦ - ٨٧).

ينتقدونها بأنها ليست إذاعة إسلامية، وإنما هي جهاز لبث الأغاني الإسلامية^(١).

وخلال الأزمة السياسية التي عصفت بكوت ديفوار؛ عرف الوسط الإعلامي الإسلامي ميلاد إذاعة إسلامية جديدة باسم: «الفرديوس» في مدينة بوركينا، وهي تحت إشراف المجلس الأعلى للأئمة COSIM، كما شهد ميلاد إذاعة «الفرقان».

٢ - ضعف المهنية وعدم الاحترافية:

الإعلام الإسلامي في كثير من بلاد غرب إفريقيا لا يزال في مرحلة ما قبل الاحترافية، نظراً إلى أن الغالبية العظمى من المشتغلين في هذا المجال من الهواة الإعلاميين، فمع أن كثيراً منهم ممن يتمتعون بقدر معقول من الثقافة الإسلامية؛ فإن افتقارهم إلى تكوين إعلامي بمفهومه العلمي والمهني يقف حجر عثرة دون البلوغ إلى مستويات الاحترافية الإعلامية المطلوبة.

فالساحة البوركينية تكتظ بأعداد ليست قليلة من المتقنين المستعربين المتخصصين في الدراسات الإسلامية والعربية، لكن افتقار معظمهم إلى خبرة إعلامية، أو تكوين إعلامي أصيل بمفهومه العلمي والمهني، يقلل من فعالية الأداء وقوة التأثير في المستمعين.

فالإعلام الإسلامي القائم في بوركينا فاسو، وفي كثير من دول غرب إفريقيا حالياً، لا يزال يسير مع المفهوم التقليدي للإعلام الإسلامي المتمثل في الدعوة والإرشاد والإفتاء، في حين أن خبراء الإعلام الإسلامي المعاصرين يرون أن بناء إعلام إسلامي

فاعل يستدعي استهلاك الأطر المعاصرة للإعلام؛ مع استحضر روح الشريعة الإسلامية، ما يعني أنه ينبغي للإذاعات والقنوات الإسلامية أن تنتج برامج إعلامية وثقافية واجتماعية واقتصادية ورياضية بروح إسلامية بجانب برامجها الدينية الصرفة.

ولعل من حسن حظ الإعلام الإسلامي - من حيث لا ندري - أن قيد له المجلس الأعلى للإعلام، في بوركينا فاسو، ولغيره من الإعلام الديني، ضرورة تخصيص نسبة ٢٠ إلى ٢٠٪ من برامجه لبرامج غير دينية بحتة، فلولاً هذا الفرض من السلطة الإعلامية الأولى في البلاد؛ ربما لكانت كل برامج الإذاعات الإسلامية في البلاد دينية خالصة.

ومع أن هناك قانوناً صريحاً يحدد نسبة ٢٠ إلى ٢٠٪ لبرامج ذات صبغة غير دينية صرفة في الإذاعات الدينية، فإن تنوع الإذاعات الإسلامية لبرامجها لم يرق بعد إلى المستوى المنشود؛ لقلّة الكوادر والكفاءات في بعض المجالات، فأغلب الإذاعات الإسلامية الموجودة حالياً في الساحة «الواغالية»^(٢) تفتقر إلى نشرات إخبارية تخرج بصورة احترافية، كما أنها لم تستثمر بشكل فعال مختلف فنون الأدب، من مسرحية وقصة ومقال، وغيرها من الأجناس الأدبية، في خدمة الإسلام تحت مظلة ما يُعرف بالأدب الإسلامي.

٣ - تعدد لغات التواصل:

المجتمعات الإفريقية مجتمعات ذات تعدد لغوي، إلى درجة أن لغة المستعمر هي اللغة الجامعة في أوساط المتقنين؛ في كثير من بلاد إفريقيا جنوب الصحراء.

في بوركينا فاسو:

تربو اللغات المحلية في بوركينا فاسو على ستين لغة، غير أن ثلاثاً منها حظيت بانتشار واسع على حساب اللغات الأخرى، وهي لغة «موري» في الوسط،

(٢) (نسبة إلى وغا، وهي التسمية المختصرة للعاصمة البوركينية: واغادوغو).

(١) Mathias Savadogo, Muriel Gomez-Perez, 2011. « La médiatisation des prêches et ses enjeux. Regards croisés sur la situation à Abidjan et à Ouagadougou ». ethnographiques. [org, Numéro 22 - mai 2011 [en ligne http://www.ethnographiques.org/2011/] Savadogo, Gomez-Perez - consulté le 2.03.2013.

يمثلون في الغالب الصوت الإسلامي في الوسائل الإعلامية المقروءة والمسموعة والمرئية؛ بحكم إتقانهم الفرنسية.

فهؤلاء النشطاء، من دعاة وأئمة CRFI و AEEMB، يستأثرون بنصيب الأسد في المقابلات الصحافية والتلفزيونية في مختلف المناسبات الإسلامية، والمشاركة في الفعاليات العلمية والثقافية والاجتماعية التي ترى الحكومة أو الجهات المدنية المنظمة أهمية إشراك الأطراف الدينية فيها، بل إنهم كادوا يحتكرون- في ظل ندرة الدعاة المستعربين المُتقنين للفرنسية- برنامج: (إيمان المؤمن Fo du croyant) الذي أطلقته القناة الوطنية البوركينية RTB؛ أملاً في إشراك الدعاة والمتقنين المسلمين في البرامج التنموية.

أما كوت ديفوار:

فالوضع اللغوي فيها أفضل حالاً مما في بوركينا فاسو وبينين وتوجو، وذلك أن معظم الدعاة المستعربين قادرون على ممارسة رسالتهم الدعوية باللغة الفرنسية بجانب اللغات المحلية، ويعد ذلك انعكاساً طبيعياً لوضعية اللغة الفرنسية في البلاد.

ويبقى الوضع اللغوي في كل من مالي والسِّنغال نموذجياً بالموقع الذي تحتله اللغة «البمبارية» ولغة «وولف» في هايتي الدولتين؛ إذ تحظى هاتان اللغتان بانتشار واسع، ولا يستتف عنهما الطبقة المثقفة والبيروقراطية فيهما؛ وبذلك تصل رسالة الإعلام الإسلامي إلى شريحة عريضة من المجتمع دونما حاجة كبيرة إلى لغة المستعمر التي تؤدي دور الوسيط بين الشعب وقياداته في كثير من دول المنطقة، ومع ذلك؛ فلا ينبغي أن يدفع الوضع اللغوي بالمشتغلين في الإعلام الإسلامي، من طلاب العلم والدعاة وغيرهم،

أعضاؤها بعد التوظيف بحلقة الأبحاث والتكوين الإسلامي CRFI، وبين الجمعيتين تعاون كبير، بل تعدّ AEEMB النواة المؤسسة لـ CRFI التي أصبحت بحق امتداداً طبيعياً لها.

ولغة «ديولا» في المنطقة الغربية، ولغة «فولاته» في الشمال^(١).

ونظراً للانتشار الواسع الذي تحظى به هذه اللغات الثلاث (موري، وديولا، وفولاته)؛ فإن الإذاعات الإسلامية تتشظ بها لاعتبارات جيولوجية، بينما تقل البرامج المنتجة باللغات الأخرى، بل قد تكون غائبة في بعض اللغات لندرة الدعاة المجيدين لها، ومن هنا يتعرض بعض المسلمين - وإن كانوا قلة مقارنة بغيرهم- للحرمان من الاستفادة من برامج هذه الإذاعات.

ويلاحظ أن أجهزة الإعلام الإسلامي في بوركينا فاسو عاجزة بعض الشيء عن الوصول إلى شريحة المسؤولين وصنّاع القرار والطبقة المثقفة في البلاد، حيث يميل الأغلبية الكاسحة منهم إلى التحدث بالفرنسية، ويلهثون وراء كل ما هو مُفَرَس، مُترفعين عن متابعة البرامج المنتجة باللغات المحلية؛ وإن كانوا من أهلها أو ممن يفهمها!

فقلة المتقنين للفرنسية في صفوف الدعاة تمثل تحدياً ثقافياً، ينبغي للقائمين على العمل الإسلامي مواجهته، فمعظم الدعاة المستعربين غير قادرين على التواصل مع الطبقة المثقفة باللغة الفرنسية، عبر وسائل الإعلام المتاحة، حكومية وأهلية، أو في المناسبات العامة، فخلت الساحة الإعلامية لنشطاء حلقة الأبحاث والتكوين الإسلامي^(٢) CRFI، وجمعية التلاميذ والطلاب المسلمين (AEEMB)^(٣)، الذين

(١) http://fr.wikipedia.org/wiki/Burkina_Faso (١) (consulté le 3/03/2013).

(٢) جمعية إسلامية تُعنى أساساً بتوعية المسلمين من الموظفين الحكوميين وتبصيرهم بأمور الدين، من خلال دورات تكوينية؛ وأغلب نشاطها من خريجي المؤسسات التعليمية السائرة على المنهج الحكومي العلماني مع اتخاذ الفرنسية لغة للتعليم.

(٣) جمعية إسلامية طلابية تُعنى أساساً بتوفير التكوين الإسلامي للتلاميذ والطلاب المسلمين في المدارس والجامعات السائرة على المنهج الحكومي العلماني، وبلتحق

وقناة تلفزيونية. أما نسبته من الإعلام البوركيني بصورة عامة، المسموع منه والمرئي (١٩٣ وسيلة)؛ فإنها لا تتجاوز ٢٣,٦٢٪.

وليس المشهد التوجولي بأفضل حالاً من المشهد البوركيني، ويظهر ذلك من خلال الجدول الآتي^(١):

النوع	تجاري	تابع للاعلامات	ديني	تابع للبلديات	مؤسستي	دولي	MMDS	حكومي	المجموع
إذاعة	٢٤	٠	٢١	١٨	٠	٢	٠	٦	٨١
تلفزيون	٨	٠	٢	٠	٠	٠	٠	٤	١٥
المجموع	٤٢	٠	٢٤	١٨	٠	٢	٠	١٠	٩٦

وحسب المعطيات الواردة في الجدول أعلاه: فإن مسلمي توجو يملكون أربع إذاعة من أصل ٢١ إذاعة دينية، وقناة تلفزيونية واحدة من أصل ثلاث قنوات دينية؛ فيشكل الإعلام الإسلامي ٨٢,٢٠٪ من إجمالي وسائل الإعلام الديني البالغة ٢٤ محطة، موزعة بين إذاعة وقناة. أما نسبته من الإعلام التوجولي بكل أشكاله وتوجهاته، المسموع منه والمرئي (٩٦ وسيلة)، فلا تعدو ٢٠,٥٪.

ولهذه الأرقام دلالات، مفادها أن الإعلام الإسلامي في هاتين الدولتين (بوركينا فاسو، وتوجو)، والوضع متشابه في كثير من بلدان غرب إفريقيا، ينبغي أن يكون على قدر من الكفاءة والمهنية والإبداع حتى يثبت ذاته، ويفرض سلطانه على أرض الواقع، باستهداف شريحة عريضة من المسلمين الملتزمين، والمسلمين بالأسماء، وغير المسلمين، في ظل تصاعد الإعلام العلماني المتسلط، وانتعاش الإعلام المسيحي، ورواج الإعلام الخادع المضلل المتمصص ثوب الإسلام بهتاناً وزوراً، والمتمثل في الإعلام القادياني.

إلى إهمال اللغة الرسمية؛ إذ لها وضعها الخاص الذي يجعلها قادرة على اجتياز الحواجز اللغوية والحدود المناطقية على مستوى القطر الواحد، وعلى المستوى الإقليمي، بل على المستوى العالمي.

ثانياً: التحديات الخارجية:

ثمّة تحديات تقطع الطريق على الإعلام الإسلامي، يمكن وصفها «خارجية» نظراً إلى عدم ارتباطها المباشر بعناصر الإعلام والاتصال: المرسل والمستقبل والرسالة وجهاز الإرسال)، ومن هذه التحديات الخارجية ما يأتي:

١ - تدفق الإعلام غير الإسلامي:

يعيش المشهد الإعلامي في بوركينا فاسو في طفرة مطردة؛ في ظلّ تزايد عدد الإذاعات المسموعة والمرئية، وفيما يأتي جدول بإحصائية لهاتين الوسيّلتين (المحطات الرئيسية فقط دون الفرعية)^(١):

النوع	تجاري	تابع للاعلامات	ديني	تابع للبلديات	مؤسستي	دولي	MMDS	حكومي	المجموع
إذاعة	٤٠	٥١	٤٠	٢٠	٤	٣	٠	٧	١٦٥
تلفزيون	١٣	١	٦	٠	٠	١	٤	٣	٢٨
المجموع	٥٣	٥٢	٤٦	٢٠	٤	٤	٤	١٠	١٩٢

إذا لم يكن هنالك تطوّر طارئ؛ فإنّ المسلمين لا يملكون سوى ست إذاعات: أربع إذاعات في واغادوغو، هي: (إذاعة الهدى، وإذاعة رضوان، وإذاعة اقرأ، وإذاعة الفجر)، و (إذاعة المفاز في بوبو ديولاسو، وإذاعة التعاون في واهيغويا)، وقناة تلفزيونية واحدة هي: قناة الهدى؛ ما يعني أنّ الإعلام الإسلامي لا يمثّل إلاّ ٢١,١٥٪ من الإعلام الديني الذي تبلغ وسائله الإعلامية المسموعة والمرئية ٤٦ وسيلة بين إذاعة

(١) [http://www.csc.bf/fichiers_site/a4294bur/contentu_pages/repertoire-med%20\(2016/11/audiovisuels.pdf](http://www.csc.bf/fichiers_site/a4294bur/contentu_pages/repertoire-med%20(2016/11/audiovisuels.pdf) (consulté le 9

(٢) <http://www.haactogo.tg/?p=1040> (consulté le 2016/11/9).

والآن تخطط لشراء مساحات إعلامية في SM TV و Canal٢.

وزيادةً على هذا كله؛ ثمة عقود تربطها بالإذاعات التجارية، تنصّ على تزويد هذه الإذاعات بشريط قادياني كل يوم اثنين، ليمتّ عرضه في بقية أيام الأسبوع، بل إن بعض أجهزة الإعلام، ك Faso press، استعداداً لتقديم خدمات إعلانية مجانية لصالح تلك الجماعة^(٣).

ولا يمكن- عند البحث عن أسباب ظهور الإذاعات الإسلامية- استبعاد الدور المحتمل للقاديانية في ذلك، إذ يذهب بعض الباحثين إلى أن ظهور إذاعة القاديانية كان من الأسباب التي دفعت بعض الغيورين على دينهم إلى تأسيس إذاعتي «المفاز» و «الهدى»، وإذا ما ثبتت صحة هذا القول؛ فيعني ذلك أن المسلمين تقطنوا إلى خطورة الإعلام القادياني منذ نشأته؛ إذ لم يستفهم ظهور الإعلام المسيحي في تسعينيات القرن العشرين إلى أن ظهر الإعلام القادياني الذي كان بمثابة الوقود الذي دفعهم إلى الإقدام على إنشاء إذاعات.

الإعلام العلماني:

تكمّن خطورة الإعلام العلماني، الذي يملك ١٦، ٧٦٪ و ٧٥٪ من الوسائل المسموعة والمرئية في كل من بوركينافاسو وتوجو على التوالي، في أن عامة المسلمين لا يميزون الفئ من الثمين مما يطرحه، بالإضافة إلى أن له برامج متنوعة يستهويها كثير من الناس، وبالتحديد شريحة الشباب والنساء، كما أن إمكانياته الضخمة تُسغفه بأن ينشط في طول البلاد وعرضها، مدججاً بخبراء من علماء الإعلام والاتصال. ويضاف إلى ذلك كله؛ أن إعلام الدولة، بوسائله

وإن كان لا بدّ من ترتيب هذه الوسائل الإعلامية غير الإسلامية حسب خطورتها على المجتمع المسلم في بوركينافاسو، وما تشكّله من تحدّي للإعلام الإسلامي، فإنّ الإعلام القادياني يتربع العرش، ويليه الإعلام العلماني، فالإعلام المسيحي، مع الخطر القادم من الإعلام الشيعي.

الإعلام القادياني:

قد يبدو الترتيب السابق غريباً بعض الشيء على بعض القراء، خصوصاً إذا علموا أنّ القاديانية لا تملك سوى أربع محطات إذاعية وقناة تلفزيونية واحدة، لكن الغرابة قد تزول عندما يدركون أنّ القاديانية بتقمّصها ثوب الإسلام تستحوذ على عدد لا بأس به من المسلمين غير الواعين بحقيقة الإسلام وتعاليمه، وتتفاقم خطورتها في المناطق التي تخلو حالياً من الإذاعات الإسلامية، كدوري Dori وليو Leo وديدوغو Dedougou، وهي المناطق التي تمتلك فيها القاديانية إذاعات خاصة بها لبتّ سمومها، بالإضافة إلى إذاعتها في بوبو^(١) التي تفوق في شهرتها إذاعة «المفاز»؛ حسب المسح الذي قام به أحد الباحثين^(٢).

وتمكّنت القاديانية مؤخراً من فتح قنواتها التلفزيونية في بوبو، وهي القناة الوحيدة التي تعمل فيها باسم الإسلام، كما أنّها تسعى إلى تأليب الرأي العام البوركيني بظهورها المكثف في الإعلام العلماني، بل نجحت في تطبيع علاقات متميزة مع أجهزة الإعلام المهمة في البلاد، كالإذاعة والقناة الوطنية البوركينية (RTB) التي تبثّ إعلانات الجماعة القاديانية بـ ٨٠،٠٠٠ فرنك سيفا؛ بدلاً من ١٧٧،٠٠٠ سيفا، وهي

(١) www.riabf.org

(٣) Fabienne Samson, 2011. « La guerre des ondes comme mode de prosélytisme. La Ahmadiyya et les médias au Burkina Faso ». ethnographiques. [org, Numéro 22 - mai 2011 [en ligne http://www.ethnographiques.org/2011/Samson] (- consulté le 23.02.2013

(٢) Fabienne Samson, 2011. « La guerre des ondes comme mode de prosélytisme. La Ahmadiyya et les médias au Burkina Faso ». ethnographiques. [org, Numéro 22 - mai 2011 [en ligne http://www.ethnographiques.org/2011/Samson] (- consulté le 23.02.2013

المسموعة والمرئية والمقروءة، يعزف على وتيرته، وأصبحت المؤسسات الأهلية التجارية منه، كـ SAVAN FM وراڊيو SALANKOLOTO في بوركينافاسو، مرتعاً لكل أصناف الدعاة، بمن فيهم الجهال وأهل الأهواء وأتباع الحركات المشبوهة كالقادية وغيرها، إذ الأهم عندها هو أن يكون الداعية قادراً على تسديد الرسوم، أو يجد من يتكفل بتمويل البرنامج، عملاً باللائحة التي يحظر فيها المجلس الأعلى للإعلام على المؤسسات الإعلامية التجارية ممارسة التمييز على أساس ديني أو طائفي.

الإعلام المسيحي:

خطورته دون الصنفين المذكورين أنفاً، فالمسلمون الغيورون على دينهم يأخذون حذرهم منه، وقلماً تجد مسلماً يتابع برامجه، بخلاف الإعلام العلماني الذي غزا البيوت حتى المسلمة منها، وإن كنا نقر بأن هناك، من المسلمين بالاسم أو غير الواعين بأمور دينهم أو المتساهلين، من يستمتع بالاستماع إلى الأغاني المسيحية على الموجات التصيرية، ولا سيما البروتستانتية منها، إلى درجة أن بعضهم، والأطفال بخاصة، يحفظون شيئاً من هذه الأغاني عن ظهر قلب، تحت مسموع ومرأى أولياء أمورهم؛ بدعوى أنها لا تتعارض مع تعاليم الإسلام^(١)!

الإعلام الشيعي:

والتحدّي الحقيقيّ القادم، الذي أخذ خطره يُحدق بالإعلام الإسلامي في المنطقة، هو الإعلام الشيعي (الرّافضي)؛ إذ بدأ يظهر شيئاً فشيئاً في السّاحة الإفريقية، وبما أنه هو الآخر يتقمص الإسلام، مثله في ذلك مثل الإعلام القادياني، فقد يغترّ به عوام

(١) ومن أمثلة ذلك: أغنية السيدة إيلا نكيما Ela Nikiema، وأغنية السيد ناكليسي Nakelssé قبيلها، التي كان لها رواج كبير في المجتمع الواغالي في تسعينيات القرن العشرين، حتى كانت تجري على ألسنة بعض المسلمين الذين زعموا بأن معانيها سليمة، وغير متنافية مع تعاليم الإسلام، وأنها من جواهر النصائح.

المسلمين، فيبثون سمومهم فيهم.

ومن استراتيجيات الرّافضة، في إيقاع جماهير المسلمين في مصيدتهم، محاولة التحالف مع بعض مشايخ الصّوفية النافذين في المنطقة بالتّقرب والتّودد إليهم، وبإيهامهم بأنّ (الوهابية) عدوهم المشترك الذي ينبغي أن يتعاونوا معاً على استئصاله، وهي استراتيجية ناجحة في كثير من الأحيان؛ بسبب بعض القواسم المشتركة بين الصّوفية والرّافضة، كالاتصال بالمولد النبوي، ومولد الشّيخ، والتّبرك والتّوسل البدعي، وغير ذلك من البدع التي يجيزها الطّرفان.

وبهذه الاستراتيجية؛ تمكّنوا من التّقرب إلى أحد مشايخ الصّوفية في مالي، وهو الشّيخ عثمان مدان شريف حيدرا، صاحب قناة Cherfla TV، التي تتخذ من عاصمة مالي مقراً لها، ويصل بثّها إلى أماكن بعيدة في المنطقة، غير أنّ كثيراً من المهتمين بالشّأن الدّعوي يرون أنّ القناة مبادرة شيعية رافضية، لكنّها وُضعت تحت إشراف الشّيخ عثمان مدان شريف حيدرا من باب التّقية، كعادتهم، مشيرين إلى أنّ برامج القناة تؤكّد توجهها الشّيعي.

وبجانب هذه القناة المتوارية، شهدت السّاحة الماليّة مؤخراً ميلاد قناة جديدة للشّيعية الرّوافض باسم Telé Zahra، ويصل بثّها إلى بعض الدّول المجاورة ككوت ديفوار وبوركينا فاسو.

وأمام هاتين القناتين، تتعاظم مسؤوليّة قناة سنّة سافانا Sunna TV savana التي تبثّ من باماكو، بإشراف دعاة وطلاب علم من أهل السنّة، وتغطي منطقة غرب إفريقيا؛ إذ يتحمّ عليها القيام بالتعريف بالإسلام الصّحيح المبني على الكتاب والسنّة، والتصديّ في الوقت نفسه للشّيعية الرّوافض، وغيرهم من الفرق الضّالة والمنحرفة، بالكشف عن ضلالاتهم وشبهاتهم.

٢ - قلة الإمكانيات ومحدودية الموارد المالية:

من أهمّ ما تواجه وسائل الإعلام الإسلامية في

اليوم ما زالت مشحونة بهذه الخلافات، وإن كانت حدتها أخف مما كانت عليه في تسعينيات القرن العشرين، بسبب ازدهار الوعي الديني، وتمامي روح التسامح، وقبول الآخر بين أتباع مختلف الاتجاهات. فعلى وسائل الإعلام الإسلامي أن تسعى إلى معالجة إشكالية تعدد المرجعيات، لا بالقضاء عليها، إذ يبدو ذلك شبه مستحيل، لكن بنشر ثقافة الحوار مع المخالف، والتدرج في الطرح، مع شيء من التسامح.

لكن وسائل الإعلام وحدها لن تكون قادرة على إحراز النجاح في مساعيها؛ ما لم تتجه معها القيادات الإسلامية التوجه نفسه، بالابتعاد عن خطابات التشنير وتكريس الفرقة وتصفية ما بينهم من حسابات شخصية، ويتجنب العزف على مشاعر العامة وأهوائهم.

وتقع على عاتق مالكي وسائل الإعلام الإسلامي مسؤولية السعي إلى اجتثاث ظاهرة عدم الاحترافية، وذلك باستحداث دورات إعلامية دورية للمتعاونين من الدعاة ومعدّي البرامج ومقدميها، بالتنسيق والتعاون مع الخبراء الإعلاميين المسلمين العاملين في القطاع الحكومي والأهلي؛ وبتوجيه بعض الطلاب في الجامعات الإسلامية والعربية إلى الالتحاق بكليات الإعلام، بل ينبغي لها أن تتعاون مع الجامعات الإسلامية المحلية على إنشاء أقسام أو برامج إعلامية.

أمّا تحدي تعدد لغات التواصل، فمعالجته تبدأ من قيام المدارس الإسلامية بتكثيف اللغة الرسمية للبلاد في البرنامج الدراسي، من الابتدائية إلى المرحلة الجامعية، حتى تكون مخرجات الأجيال القادمة قادرة على مواجهة شريحة المثقفين في البلاد باللغة التي يحبون أن يخاطبوا بها.

وينبغي لدارسي اللغة العربية من الجامعيين وطلاب الدراسات العليا أن يحرصوا على تكوين ذواتهم، وتنمية كفاءتهم التواصلية باللغة الفرنسية.

بوركينافاسو، على سبيل المثال، المسموعة منها والمرئية والمقروءة، قلة الإمكانيات.

وأسهم ذلك في تكريس عدم الاحترافية؛ إذ إن غالبية هذه الوسائل غير قادرة على توفير رواتب لدعاتها ومقدمي البرامج، وإنما تكتفي- في أحسن الأحوال- بتقديم بدل الوقود، ويظل همها الأكبر تأمين رواتب الموظفين الثابتين الذين يعدون على الأصابع، كالمدير والفنيين، وبرغم قلة عددهم؛ فإن المؤسسات الإعلامية الإسلامية عاجزة أيضاً عن توفير جو مهني لائق بطواقمها الإعلامية.

أما الدعاة والمتعاونون مع أجهزة الإعلام الإسلامي، من معدّي البرامج والمقدمين، فالغالبية العظمى منهم- إن لم يكن كلهم- يقومون بواجبهم الدعوي والإعلامي في هذه الوسائل مجاناً محتسبين أجرهم عند الله عز وجل، غير أن ذلك لا ينبغي أن يحمل المسؤولين على التقاعس عن تحسين الظروف المادية والمعنوية لهم.

وقد عصفت قلة الإمكانيات ببعض الصحف الإسلامية؛ فألقت بها في غياهب الجب، وقوضت بعض البرامج الدعوية التي كانت تبث في بعض الإذاعات التجارية، وأخذت تتخر في هياكل بعض الإذاعات الإسلامية، فأصحبت هياكل هشة تتآكل أركانها بعد أشهر عسل من القوة والاندفاع.

ثالثاً: سبل مواجهة هذه التحديات:

هذه التحديات كلها قابلة للمواجهة والتغلب عليها، بالتخطيط المحكم البعيد المدى، إلا تحدياً داخلياً واحداً يصعب احتواءه، وهو تعدد مرجعيات الخطاب الديني.

فمع كل ما يبذله بعض الدعاة من جهودٍ للتقريب بين الاتجاهات الإسلامية، بالحث على الاهتمام بالقواسم المشتركة، والتركيز في الأصول والأولويات، وتجنب إثارة المسائل المختلف فيها، وتجاوز الخلاف في الفروع، فإن الساحة إلى حد

الخاتمة:

أختتم الورقة باقتراحات؛ أراها كفيلة بتحسين وضع الإعلام الإسلامي في بوركينافاسو في المستقبل- بإذن الله:-

- تأسيس مجلس وطني للإعلام الإسلامي، يكون أعضاؤه من مختلف المؤسسات الإعلامية الإسلامية في البلاد، تتمثل مهمته في تسييق العمل الإعلامي الإسلامي، ووضع خطط مستقبلية بعيدة المدى له، مع رسم الخطوط العريضة لسياساته الإعلامية.

- تخصيص نسبة معينة من تبرعات المساجد شهرياً لدعم المؤسسات الإعلامية اقتصادياً، ولتكن على سبيل المثال 5٪، وتستفيد إذاعة «البيان» في كوت ديفوار من التبرعات التي تجمعها في المساجد بين حين وآخر.

- عقد دورات إعلامية تدريبية بشكل دوري؛ لصالح العاملين في مجال الإعلام الإسلامي.

- تنوع قنوات الإعلام الإسلامي، وعدم حصرها في الإذاعة والتلفزيون، بتفعيل الصحافة الإسلامية، واستثمار وسائل الإعلام الجديد؛ من صفحات الويب ويوتيوب ومواقع التواصل الاجتماعي.

- تدريب كبار الدعاة والمشايخ على التعامل مع وسائل الإعلام الجديد.

- استحداث برامج لتعليم اللغة الفرنسية لأغراض دينية في الجامعات الأهلية؛ لتمكين الدعاة من خريجي الجامعات الإسلامية والعربية من أداء رسالتهم الدعوية باللغة الفرنسية؛ بجانب لغاتهم المحلية ■

أما مواجهة تدفق الإعلام غير الإسلامي وتمدده؛ فتكون بإنشاء محطات إسلامية جديدة، والأولوية تكون للمناطق التي ينشط فيها الإعلام المضلل، كالكادياني أو التنصيري، وعليه؛ فالحاجة ملحة إلى إذاعة إسلامية في كل من ديدوغو Dedougou وليو Leo ودوري Dori، وهي المناطق التي ينفرد بها الإعلام الكادياني، بالإضافة إلى حاجة مدينة بوبو إلى قناة إسلامية حتى لا تخلو الساحة لقناة الكاديانيين، على أن كل إقليم من الأقاليم الثلاثة عشر في بوركينافاسو يحتاج إلى وسيلة إعلامية إسلامية لمواجهة مد الإعلام العلماني والتنصيري، واستباقاً للإعلام الكادياني والرافضي، وإذا ما استثنينا الأقاليم التي تنتمي إليها كل من واغا وبوبو وواهيغويا؛ فإن عدد الأقاليم المحتاجة يقلص إلى عشرة.

على أن المجلس الأعلى للإعلام في بوركينافاسو يتوجّه حالياً إلى خلق ساحة إعلامية لا مركزية، بتبني سياسة تكريس الثقافات المحلية؛ بإنشاء إذاعات محلية، والحد من توسيع دوائر التغطية⁽¹⁾، الأمر الذي لا يترك سوى خيار واحد أمام القيادات الإسلامية، وهو اللجوء إلى تأسيس محطات جديدة في الأقاليم الخالية من الإذاعات الإسلامية.

وأمام قلّة الإمكانيات والموارد المالية؛ فإن إنشاء مزيد من الإذاعات يبدو متعزراً بعض الشيء، غير أن على المسلمين في بوركينافاسو تجنيد طاقاتهم الاقتصادية من أجل تذليل الصعاب التي تقف حجر عثرة أمام الإعلام الإسلامي، فالإعلام يعدّ في المجتمعات المدنية الحديثة السلطة الرابعة بعد السلطات التنفيذية والتشريعية والقضائية؛ ما يعني أنه لا ينبغي التهاون فيه والاستهانة به مهما كانت الظروف.

http://www.csc.bf/index.php?option=com_content&view=article&id=49&Itemid=130 (1)

أهم الأحداث

وكالة فرنسا برس (أ. ف. ب) -
٢٠١٦/١٢/١٧م

■ الرئيس الغامبي «يحيى جامع» يرفض
نتائج الانتخابات:

رفض الرئيس الغامبي «يحيى جامع» الاعتراف بنتائج الانتخابات التي خسرها في الأول من ديسمبر بعد أن قبلها في البداية، وقال في خطاب بثه التلفزيون الحكومي: إنه شابت العملية الانتخابية «مخالفات غير مقبولة»، ودعا إلى تصويت جديد.

وكان جامع، الذي جاء إلى الحكم في انقلاب عسكري عام ١٩٩٤م، فوجئ بهزيمته في الانتخابات أمام آدم بارو الذي فاز بأكثر من ٤٥٪ من الأصوات، وحصل جامع على ٣٦,٧٪، في حين حصل ماما كانديه مرشح حزب ثالث على ١٧,٨٪ فقط.

شبكة بي بي سي - ٢٠١٦/١٢/١٠م

■ غانا.. زعيم المعارضة يفوز بالانتخابات
الرئاسية:

قالت محطتان إذاعيتان خاصتان: إن «نانا أكوفو-أدو» زعيم المعارضة في غانا فاز في انتخابات الرئاسة بأغلبية مطلقة، متغلباً على الرئيس «جون ماهاما».

وأظهر موقع (جوي إف إم) الإلكتروني: أن «أكوفو-أدو» (٧٢ عاماً) حصل على ٥٣٪ من الأصوات، في حين حصل «ماهاما» على ٤٥,١٥٪.

قناة سكاي نيوز - ٢٠١٦/١٢/٩م

■ مالي: الجمعية الوطنية ترفض أي
متابعات قضائية للرئيس السابق «توماني
توري»:

ألغت الجمعية الوطنية المائيّة، بأغلبية كبيرة، أي احتمال لمتابعات قضائية للرئيس السابق: أمادو توماني توري الذي أُطِيع به في انقلاب عسكري في ٢٢ مارس ٢٠١٢م، صوت ١٠٤ من النواب ضد أي متابعة قضائية للرئيس توري، مقابل ٥ مع المتابعة، وتحفظ ٦، وإلغاء ٢، وسيصبح باستطاعة توماني توري، اللجوء في داكار بالسنغال، العودة في أي وقت إلى أرض الوطن.

ومنذ ٢٠١٣م والحكومة تتهم توماني بتسهيل دخول وإقامة قوات أجنبية على التراب الوطني.

وكالة الأنباء الإفريقية (آبا) -

٢٠١٦/١٢/١٨م

■ الحزب الحاكم في زيمبابوي يرشح
موغابي للرئاسة في ٢٠١٨م:

أعلن الحزب الحاكم في زيمبابوي عن عزمه ترشيح روبرت موغابي لولاية جديدة في انتخابات ٢٠١٨م، وقال إغناطيوس تشومبو الأمين العام لحزب «زانو بي إف»: إن موغابي سيحصل على تأييد الأعضاء، وأضاف: أن الرئيس قد جلب «الحكمة والوحدة» للبلاد - على حدّ قوله -.

ويحكم موغابي، البالغ من العمر ٩٢ عاماً، زيمبابوي، منذ تخلصه من حكم الأقلية البيضاء عام ١٩٨٠م.

■ الصومال يرجئ مجدداً الانتخابات

التشريعية والرئاسية:

أعلنت لجنة الانتخابات في الصومال تأجيل الانتخابات الرئاسية، وكان مقرراً إجراؤها نهاية نوفمبر، إلى موعد لاحق قبل نهاية العام الجاري. وقال رئيس اللجنة عمر محمد عبدلي، خلال مؤتمر صحفي بمقديشو، إنه تم تأجيل الانتخابات الرئاسية، على أن تُعقد قبل حلول ٢٠١٧م، دون أن يحدد تاريخاً أو أسباب التأجيل، وأضاف: أن انتخابات البرلمان، بغرفتيه مجلس الشيوخ والشعب، شارفت على الانتهاء، ما يمهد الطريق إلى إجراء الانتخابات الرئاسية في أقرب وقت.

■ قناة سكاي نيوز - ٢٩/١١/٢٠١٦م

■ جيش جنوب السودان يرفض اتهامات

«هيومن رايتس» بارتكاب «جرائم حرب»:

رفض جيش جنوب السودان اتهامات منظمة «هيومن رايتس ووتش» بارتكاب «جرائم» ضد المدنيين، بولاية «نهر ياي»، جنوبي العاصمة جوبا.

وقال العميد لول روي المتحدث باسم الجيش: إن قيادة الجيش تطالب المنظمة الدولية ب«تقديم الدلائل»، وأشار إلى أن الجيش أجرى تحقيقات مع المواطنين بمدينة «ياي»، وأكدوا فيها «ضلوع» قوات المعارضة المسلحة، التابعة لنائب الرئيس السابق ريك مشار، في ارتكاب «جرائم قتل وَاغتصاب» ضد المدنيين. وكانت المنظمة الدولية قد اتهمت القوات

الحكومية والمتمردين في دولة جنوب السودان، بارتكاب «جرائم خطيرة ضد المدنيين» خلال الأشهر الأخيرة، وطالبت مجلس الأمن الدولي بتأييد اقتراح فرض حظر على الأسلحة إلى جنوب السودان، ومقاضاة المسؤولين عن تلك الجرائم.

■ وكالة الأناضول - ٢٧/١١/٢٠١٦م

■ القمة الإفريقية العربية الرابعة تختتم أعمالها بإعلان مالابو:

أكد قادة إفريقيا والعالم العربي في «إعلان مالابو»، في ختام أعمال القمة الإفريقية-العربية الرابعة، في عاصمة غينيا الاستوائية، الالتزام بتعزيز الشراكة الإفريقية العربية؛ لتحقيق أهداف التنمية المستدامة مع أبعادها الثلاثة الاقتصادية والاجتماعية والبيئية، بطريقة متكاملة ومتوازنة، والقضاء على الفقر، والترحيب باعتماد أجندة ٢٠٦٣م للاتحاد الإفريقي، وخارطة الطريق الخاصة بها: «إفريقيا التي نريدها»، والخطة العشرية الأولى لتنفيذها، وكذلك البرامج الرئيسية الأخرى وبالخطط والاستراتيجيات الصادرة عن مؤتمرات القمة العربية، بما في ذلك الإعلان العربي حول تنفيذ الخطة المستدامة ٢٠٣٠م، الصادر عن القمة العربية في نواكشوط ٢٠١٦م.

■ وكالة أنباء الشرق الأوسط (أ.ش.أ) -

٢٤/١١/٢٠١٦م



إفريقيا بالأرقام

الشركات الصينية للمساعدة في تمويل عجز الموازنة، عارضاً السداد من عائدات النفط المستقبلية، وفي أغسطس؛ أعلنت الحكومة سعيها للحصول على قرض بقيمة ١,٩ مليار دولار من الصين، لكن لم يصدر رد فعل علني من الجانب الصيني.

وكالة رويترز - ٢٠١٦/١٢/٢م

■ انكماش الناتج المحلي الإجمالي في نيجيريا

٢,٢٤٪ مع تراجع إنتاج النفط ونقص الدولار؛ ذكر مكتب الإحصاء الوطني: أن حالة الكساد التي تعاني منها نيجيريا تفاقمت في الربع الثالث من العام، مع هبوط إنتاج النفط، فيما لا تزال أزمة نقص الدولار تخفق أكبر اقتصاد في إفريقيا، وذكر المكتب أن الناتج المحلي الإجمالي انكمش ٢,٢٤٪.

وكان هبوط أسعار النفط قد تسبب في انكماش الاقتصاد بنسبة ٢,٠٦٪ في الربع الثاني، لتشهد البلاد كساداً لأول مرة في ٢٥ عاماً، وارتفعت الأسعار بسبب شح الدولار، في البلد الذي يعتمد على الواردات، وتفاقمت الأزمة بسبب قيود العملة التي فرضها البنك المركزي العام الماضي في مسعى للدفاع عن «النيرا».

وكالة رويترز - ٢٠١٦/١١/٢١م

■ ٢٠ مليون دولار من البنك الدولي للصحة في

الغرب الإفريقي؛

قدم البنك الدولي منحة من ٢٠ مليون دولار لدعم قطاع الصحة في إفريقيا الغربية، حسبما أفادت منظمة غرب إفريقيا للصحة (OOAS)، والتي يوجد مقرها في بوبو ديولاسو.

يُخصّص هذا الدعم لتتسيق وتنفيذ الأنشطة الهادفة إلى المساهمة للتخفيف من الإحساس بعبء الأمراض، خصوصاً بين الطبقات الاجتماعية الفقيرة والهشة، كما يهتم المشروع أيضاً بتقليل تهديد بؤر الأمراض لأمن الدول الخمس عشرة الأعضاء في (OOAS).

وسيتّم تنفيذ هذا البرنامج خلال ثلاث مراحل، كما سيغطي كل دول التجمّع الاقتصادي لدول غرب إفريقيا (CEDEAO)، من خلال شبكة فعالية دائمة للرقابة.

وكالة الأنباء الإفريقية (آب) - ٢٠١٦/١١/١٠م

■ افتتاح سدّ كهرومائي لإنتاج ١٨٧٠ ميغاوات

من الطاقة في إثيوبيا؛

افتتح رئيس الوزراء الإثيوبي هابلي ماريام ديسالين، بحضور وزراء وسفراء عدد كبير من البلدان، سدّ جيبي ٣ الكهرومائي، الذي يبلغ ارتفاعه ٢٤٢ متراً، وسيساهم بإنتاج ١٨٧٠ ميغاوات من الكهرباء، ويرفع قدرة إثيوبيا على إنتاج الطاقة إلى ٤٢٠٠ ميغاوات، وسيتمّ تصدير قسم منها إلى كينيا، مؤكداً مرة أخرى عزم بلاده على التحوّل إلى قطب للطاقة الخضراء في إقليم شرق إفريقيا، ويقع خزان السدّ، الذي سيكون له القدرة على تخزين ١٥ مليار م^٣ من المياه، على ارتفاع ٨٩٦م فوق مستوى سطح البحر.

ويعدّ سدّ «جيبي ٣» الأكبر بين مجموعة سدود كهرومائية تبنيتها إثيوبيا على طول نهر أومو، وثالث أقوى سدّ كهرومائي في إفريقيا.

وكالة أنباء عموم إفريقيا (بانا برس) -

٢٠١٦/١٢/١٨م

■ فجوة تمويلية ٤٠٪ في موازنة جنوب السودان،

والحكومة تتجه للمانحين؛

قال وزير المالية في جنوب السودان: إن برلمان بلاده وافق على ميزانية تبلغ قيمتها ٢٨ مليار جنيه، لكنها تطوي على فجوة تمويلية تقارب ٤٠٪، وإن حكومته ستطلب أموالاً من المانحين الأجانب.

وتسببت ثلاث سنوات من الصراع، وتراجع إنتاج النفط الخام وأسعاره، في الإضرار باقتصاد جنوب السودان المنتجة للنفط، وبلغ معدل التضخم ٨٣,٥٪ في ١٢ شهراً حتى أكتوبر، فيما انخفضت قيمة العملة إلى ٧٠ جنيهاً للدولار، ويزيد سعر الصرف في السوق السوداء عن ذلك.

لكن العلاقات الوثيقة التي يتمتع بها جنوب السودان مع المانحين الغربيين، عقب استقلاله عن السودان في ٢٠١١م، باتت فاترة، وفي السابق؛ لجأ جنوب السودان، المعتمد على المساعدات، إلى

■ «إنَّ إفريقيا قد ساعدت في تطوُّر أوروبا على امتداد فترة ما قبل الاستعمار؛ بالقدر نفسه الذي أسهمت به أوروبا في تخلف إفريقيا».

المفكر الإفريقي اللاتيني وولتر رودني، من كتاب: (إفريقيا والغرب، دراسة لآراء المفكر وولتر رودني)، ص ٩٤، مكتبة جزيرة الورد - ٢٠١١م.

■ «فكرة (الحزب الواحد) دخلت إفريقيا من الدول الفرنكفونية في غرب إفريقيا، وكان هوفويه بونيه في ساحل العاج، وسيكوتوري في غينيا؛ قد أنشأ كل منهما حكم الحزب الواحد، ثم تبعتهما معظم الدول الإفريقية الفرنكفونية في منتصف الستينيات». رونالدو أوليفر - أنتوني أتمور، من كتاب: (إفريقيا منذ عام ١٨٠٠م)، المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٥م، ص ٣٥٨.

■ «يجب تنسيق الجهود العربية-الإفريقية في مجال التجارة الدولية؛ بهدف التوصل إلى أسعار عادلة لمنتجاتهما في الأسواق الدولية، فعن طريق هذا التعاون يمكن الحصول على شروط أفضل للتبادل التجاريّ بينهما وبين الدول المتقدمة... ويمكن اتباع استراتيجيةٍ مشتركةٍ للتوصل مع الدول الصناعية إلى اتفاقاتٍ طويلة الأمد لتحقيق الاستقرار المطلوب».

أمين هويدي، رئيس المخابرات العامة المصرية ووزير الحربية- السابق، خلال كلمة له في الندوة الفكرية التي نظمها مركز دراسات الوحدة العربية في العاصمة الأردنية عمان - أبريل ١٩٨٣م.

■ ما تداعيات فوز ترامب على إفريقيا؟

إن قلة إمام ساكن البيت الأبيض الجديد بالقارة الإفريقية تثير تساؤلات عن تداعيات فوزه على إفريقيا، حيث إن «عدم الاهتمام بإفريقيا» شكّل القاسم المشترك بينه وبين منافسته هيلاري كلينتون، لكن المرشح الجمهوري تميز- بالإضافة لعدم الاهتمام- بالجهل التام بالقارة، وبالسياسة الدولية بشكل عام.

هل من عودة أمريكية إلى الانعزالية؟

ظلّ ترامب خلال حملته الانتخابية يشجب السياسة الأمريكية الخارجية لتدخلها في كثير من الدول، مشيراً إلى أنّ الدبلوماسية الأمريكية ارتكبت أخطاءً كثيرة نتيجة لهذا التدخل، لذلك هناك سؤال يطرح نفسه: هل من المتوقع أن يضع ترامب حداً للتدخلات الأمريكية في دول العالم؟ إن من الصعوبة التوصل إلى جواب قاطع، وذلك لتذبذب مواقف ترامب؛ لكن كثيراً من الزعماء الأفارقة أبدوا ارتياحهم بفوز ترامب؛ توقعاً من أن تُخدم انعزالية مواقفه نياباتهم في التلاعب للبقاء في السلطة، واستيائهم من تلقّي الدروس من أوباما.

حلقة منفورت:

يُشار إلى أنّ دونالد ترامب عين بول منفورت مديراً لحملة الانتخابية لعدّة أشهر، وهو شخصية سياسية معروفة في إفريقيا؛ لخدماته الاستشارية المقدّمة إلى كل من: مابوتو في زائير، وباري في الصومال، وأوبيانغ في غينيا الاستوائية، وقد استغنى ترامب عن خدماته بعد فضيحة تورّطه في الفساد بأوكرانيا، واستبدل به جاف سيسون (السيناتور في ألباما منذ 1997م).

التصوّر الكاريكاتيري عن إفريقيا:

لم تُدرج إفريقيا في أولويات حملة ترامب، حيث ركّز خطابه في الاقتصاد الأمريكي، واستعادة المصانع الأمريكية من أمريكا الجنوبية ومن آسيا، ويكفي الرجوع إلى تغريداته على تويتر للاطلاع على «ازدراؤه غير المشرف» للقارة الإفريقية. وفي عام 2012م؛ عبّر عن تصوّره فيما يخصّ الإعانات المقدّمة لإفريقيا في إطار التنمية، وشكّوه عن مقدرة الأفارقة في حسن إدارتها: «إنّ كل المليارات السبعة التي منحها أوباما إلى إفريقيا ستنتلاشى؛ نتيجة الفساد الإداري المزمن في القارة»، وصرّح في العام نفسه عن إعجابه بنيلسون مانديلا، بينما يرى جنوب إفريقيا معقلاً للمجرمين، مطالباً بمنح المصابين بفيروس إيبولا من دخول أمريكا.

لكن الاستنتاج الذي نتوصل إليه من الحملات الانتخابية لترامب هو: أنّ إفريقيا مجرد متزّه سياحيّ لأبنائه، حيث تمّ تداول صور بالشبكات الاجتماعية؛ يظهر فيها إريك ودونالد جونيور- نجلا الرئيس المنتخب- أمام جث صيد بريّة، محظورة في زيمبابوي، عام 2012م.

الاقتصاد في إفريقيا يتميز بحيارة إمكانيات ضخمة:

يتوّقع من الرئيس الجديد تغيير تصوّره الذي تضمّنه خطاب حملته الانتخابية للشعب الأمريكي بعد وصوله إلى السلطة، وقد ذهب وليد الفارس، المستشار في البرلمان الأمريكي، والمنضم إلى فريق ترامب، إلى القول- في شهر أغسطس في إذاعة صوت أمريكا-: «بأنّ أمريكا ستتضامن مع الدول الإفريقية». البرنامج السياسي للحزب الجمهوري- الذي ينتمي إليه دونالد ترامب- أفرّب بأنّ إفريقيا تتميز بحيارة إمكانيات ضخمة، داعياً إلى تعزيز الروابط مع الحلفاء الأفارقة؛ من خلال الاستثمارات والتبادل التجاري، وتعزيز السوق الحرّة والديمقراطية، إلى جانب التعاون الاقتصادي والأمني لمكافحة الإرهاب. يُذكر أنّ أوباما سعى في تمديد برنامج Agoa (الفرص والتنمية في إفريقيا) حتى عام 2025م، والذي بموجبه تُعطى التسهيلات لمجموعة من منتجات عشرات الدول الإفريقية جنوب الصحراء للاستفادة من السوق الأمريكية. غير أنّ البرنامج لم يتطرق إلى مبادرة أوباما لإنارة إفريقيا جنوب الصحراء؛ ما يجعل من الصعوبة التكهّن بالسياسة التي سيتبناها ترامب تجاه إفريقيا... وعلى كل حال تظلّ الشكوك واردة.

بقلم/ بنيامين بول، وجان سيبيستيان جوسيه - موقع جون إفريقيا،

ترجمة واختصار: قراءات إفريقية - 2016/11/14م

■ شركة ألمانية تعتزم إقامة مصنع لتركيب السيارات في رواندا:

كشفت مدير عام مجموعة «فولسفاغن» الألمانية متعددة الجنسيات لصناعات السيارات «طوماس شافر» - الأربعة، في نيماغاب برواندا-: أن شركته تستعد لإقامة مصنع لتركيب السيارات في رواندا، بعد توقيع مذكرة تفاهم مع حكومة هذا البلد الإفريقي حول الاستثمار المقترح.

وكالة أنباء عموم إفريقيا (بانا برس) - ٢١/١٢/٢٠١٦م

■ تكتل دول غرب إفريقيا يطالب نيجيريا وآخرين بإصلاح اقتصاداتهم:

دعا «التجمّع الاقتصادي لدول غرب إفريقيا» نيجيريا، ودولاً أخرى، لتنفيذ «إصلاحات هيكلية ضرورية»، وتبني «إجراءات تحفيز اقتصادية ومالية مناسبة؛ كي تكون أقل عرضة لتذبذب أسعار النفط، وتحسين مرونة الاقتصادات في مواجهة أي صدمات خارجية». وخلال ٢٠١٦م؛ دخلت نيجيريا، التي يعتمد أكثر من ٧٠٪ من إيراداتها الحكومية على النفط، في أول حالة كساد في ٢٥ عاماً؛ مع هبوط أسعار النفط.

وكالة رويترز - ١٨/١٢/٢٠١٦م

■ مشروع مغربي نيجيري لمد خط أنابيب غاز من إفريقيا إلى أوروبا:

أعلن جيفري أونياما وزير الشؤون الخارجية النيجيري: أن نيجيريا والمغرب وقعا مشروعاً مشتركاً لمد خط أنابيب الغاز، سيصل الدولتين، بالإضافة إلى بعض الدول الإفريقية الأخرى، بأوروبا. وقال أونياما: إن هذه الاتفاقية تمّ التوصل إليها خلال زيارة قام بها الملك محمد السادس للعاصمة النيجيرية أبوجا، مضيفاً أن مشروع خط الأنابيب سيصمم بمشاركة كل أصحاب المصلحة، وأضاف: أن هذا المشروع يهدف إلى إنشاء سوق كهرباء إقليمية منافسة، مع احتمال توصيلها بأسواق الطاقة الأوروبية. ولم يتمّ تحديد جدول زمنيّ لبدء العمل في مد خط الأنابيب أو تكلفته.

وكالة رويترز - ٣/١٢/٢٠١٦م

■ البنك المركزي الإثيوبي.. يستهدف تطوير التمويل الإسلامي:

قال مسؤول بالبنك المركزي الإثيوبي: إن البنك يستهدف تطوير التمويل الإسلامي لدعم زيادة الوصول إلى الخدمات والإدماج المالي، كجزء من جهود حكومية واسعة؛ لتعبئة الموارد المحلية من أجل تنويع موارد الاقتصاد.

وقال «جيتاهون نانا» نائب محافظ البنك الوطني الإثيوبي: إن الحكومة ترغب في تحويل الاقتصاد كي يقوم على الصناعة، لكن ذلك يتطلب الحفاظ على معدلات الاستثمار عند نحو ٤٠٪ من الناتج المحلي الإجمالي على مدى السنوات الخمس المقبلة.

وقد يساهم التمويل الإسلامي في هذا المسعى، ولذا يجري البنك المركزي دراسةً لتحديد الطلب على المنتجات المالية المتوافقة مع الشريعة، في بلد يشكّل المسلمون ثلث سكانه (البالغ عددهم ١٠٠ مليون نسمة).

وكالة رويترز - ٤/١١/٢٠١٦م

فرق وأديان

■ مجلس أساقفة الكونغو يدعو الأطراف المتصارعة في البلاد لاستئناف

الحوار:

دعا المونسنيور «أوتيمي تابا» رئيس أساقفة كيسانغاني، ورئيس مجلس أساقفة الكونغو الديمقراطية، خلال استئناف أعمال «الحوار الشامل»، إلى استئناف المفاوضات بين الأكثرية الرئاسية والمعارضة، لتجنّب حدوث اضطرابات نتيجة الأزمة السياسية في البلاد، مطالباً بتقديم كافة الأطراف المزيد من التنازلات، بشأن إدارة الحقبة الانتقالية، الممتدة من نهاية ولاية الرئيس جوزيف كاييلا- الذي انتهت ولايته في ١٩ ديسمبر، وحتى انتخاب رئيس جديد للدولة. في غضون ذلك؛ يبقى التوتر قائماً في البلاد بسبب التظاهرات التي تطالب جوزيف كاييلا بالتخلي عن السلطة.

وكالة فيدس - ٢٢/١٢/٢٠١٦م

■ فقهاء وعلماء أفرقة يدعون إلى التصدي لـ«التغلغل» الإسرائيلي بالقارة:

دعا فقهاء وعلماء دين من ١٤ دولة إفريقية إلى ضرورة القيام بـ«تعبئة شاملة» نصرّة للقدس وفلسطين، و «التصدي لأيّ محاولات إسرائيلية للتغلغل» في القارة الإفريقية، جاء ذلك في بيان أصدره، في ختام «ملتقى القدس الثاني» الذي انعقد بالعاصمة الموريتانية نواكشوط لنصرة القدس، والتصدي لـ«مسار التطبيع مع إسرائيل» في القارة الإفريقية.

وشدّد البيان على ضرورة العمل «من أجل إعادة التضامن بين الشعوب الإفريقية، وجمعها على نصرّة القضايا العادلة، وخصوصاً القضية الفلسطينية»، وأكد المجتمعون أنّ «إفريقيا تجدد العهد لبيت المقدس»، داعين إلى «القيام بأعمال ميدانية في إفريقيا للتضامن مع القدس بالمال والجهد».

وأبدى المشاركون بالملتقى عزمهم على تشكيل إطار متابعة وتنسيق؛ «من أجل العمل على إقامة فعاليات شعبية في منطقة غرب إفريقيا، تدعم القدس، إلى جانب التنسيق مع الجهات القارية والعالمية بشأن القدس وفلسطين».

يُذكر أنّ رئيس الوزراء الإسرائيلي بنيامين نتياهو أجرى زيارة إلى دول شرق إفريقيا، في الفترة من ٤ - ٧ يوليو الماضي، برفقة ٨٠ رجل أعمال من ٥٠ شركة إسرائيلية؛ «بهدف خلق علاقات تجارية مع شركات ودول إفريقية»؛ حسب بيان صادر عن مكتبه آنذاك.

وكالة الأناضول - ١٥/١١/٢٠١٦م

موقعة تونديبي:

في عام ١٥٩١م؛ ساهمت مجموعة من العوامل الاقتصادية والسياسية في إطلاق السلطان السعدي أحمد المنصور «الذهبي» (أحد سلاطين الدولة السعدية بالمغرب الأقصى، التي حكمت من ١٠٥٧هـ - ١١٥٩هـ / ١٥٥٢م - ١٦٥٤م) لحملة العسكرية ضد مملكة السونغاوي.

فمن الناحية الاقتصادية؛ طمعت الحملة المغربية في الاستحواذ على مناجم الملح، واستغلال مناجم التبر التي تزخر بها الأرض السونغوية.

أما الدوافع السياسية، فأهمها: أنّ هذه الحرب شكّلت فرصة للسلطان السعدي لإبعاد قاداته العسكريين عن دائرة البلاط، وخصوصاً ذوي الأصول الأندلسية، الذين شكّلوا فرقتين عسكريتين: فرقة الأندلسيين (المسلمين)، وفرقة المستعربين، وكانوا يسمّون: «العلاج» قبل إسلامهم، منهم عناصر مسيحية كثيرة؛ من عدة أجناس أوروبية. كان القادة العسكريون الأندلسيون يطمحون في الدخول واسترجاع السيطرة على إسبانيا، التي كانت تعاني من هزيمة أسطولها الأرمادا، الأمر الذي رآه السلطان المغربي تهووراً، فكفّر في صرف طاقة الجيش في تلك الناحية البعيدة؛ للتخلّص من ضغوطهم وتطلعاتهم، لأنّ التوسع في الشرق أو الشمال أمرٌ صعب، لوجود دولتين قويتين: الخلافة العثمانية شرقاً، والإمبراطورية الإسبانية شمالاً، ولم يبق مجالاً لتصريف هذه الطاقة الحربية إلا نحو الجنوب، ونحو بلاد السودان.

وقعت موقعة تونديبي يوم الأربعاء (١٦ جمادى الأولى ٩٩٩هـ الموافق ١٢ مارس ١٥٩١م)، بين جيش السلطان أحمد وسلطنة سونغاوي، وجرت أحداثها شمالي مدينة جاو (أو كاو) في السودان الغربي.

وعلى الرغم من صعوبة المناخ وقلة المياه؛ تألفت هذه الحملة المغربية من عشرين ألف جندي، وعدد من الأسرى الإسبانين، وقيل: ثلاثة آلاف جندي، معظمهم من الإسبان الذين أسلموا، وكان الزحف صعباً، حتى قيل: لم يبق إلا ألف جندي بقيادة جودر، ولكنهم يميّزون بامتلاك الأسلحة النارية؛ مما حقّق لهم النصر على جيش مملكة سونغاوي، وألحق جودر بملكها إسحاق الهزيمة، حيث كان جيشه يقاتل بالحرب والسهام والسيوف، وحصل المنصور على غنائم كثيرة، في شكل أحمال جمال من التبر والذهب، وأصبح يلقّب: «الذهبي»، وأصبح يُنظر إلى المغرب بأنه موردٌ كبيرٌ من الذهب.

المصدر: - الموسوعة الموجزة في التاريخ الإسلامي، أبو سعيد المصري.

- موقع ويكيبيديا



جمهورية نيجيريا



تحت نفوذٍ وسيطرةٍ بريطانيةٍ، وخلال القرن التاسع عشر، ظهرت نيجيريا، التي تُعدّ من أكثر الدول الإفريقية كثافةً في السكان، وبعد الحرب العالمية الثانية، وتتابعاتٍ من الدساتير، مُنحت

نيجيريا الحكم الذاتي، ونالت استقلالها عام ١٩٦٠م.

الوسط، وجافٌ في الشمال.
٤. التضاريس: يمكن تقسيم تضاريس نيجيريا إلى عشر مناطق، كالآتي:
(١) سهول سكوتو: تقع في الشمال الغربي، وتجري

عبرها عدّة أنهار.
(٢) حوض تشاد: يمتدّ عبر الجزء الشمالي الشرقي، جنوبي بحيرة تشاد وغربيها.

(٣) السهول الشمالية العالية: بمساحة ٢٠٪ تقريباً، وتمثّل منبعاً لعددٍ من فروع نهر النيجر، مثل: الكونجولا والسكوتو والكواندا، وهي تتدفق، بهدوءٍ، عبر السهول، مُشكّلةً شلالاتٍ جميلة.

(٤) هضبةً جوس: قرب أواسط نيجيريا، وتُربى أبقار الحليب فوق الأراضي المعشبة، بالمنطقة التي تزخر، كذلك، بمناجمٍ قصديرٍ مهمّة.

(٥) حوض نهر النيجر - بنيو: يشكّل قوساً، يمتدّ عبر أواسط نيجيريا، من الشرق إلى الغرب، ويجري نهر النيجر باتجاه الجنوب الغربي من بنين، عبر الجزء الأوسط الغربي من نيجيريا، ويتلاقى النهران قرب أواسط البلاد، ويندفعان معاً نحو دلتا النيجر.

(٦) المرتفعات الغربية: وتُعرف باسم: هضبة أرض اليوروبا، تقع في الجزء الغربي من أواسط نيجيريا،

وبعد حكم عسكري، دام قرابة ١٦ سنة، أُقر، في ١٩٩٩م، دستورٌ جديد، في نيجيريا؛ تحولت بموجبه السلطة من الحكم العسكري إلى الحكم المدني، تحوّلاً سلميًّا.

تواجه الحكومة تحدياتٍ كبيرة، تتمثل في إعادة بناء الاقتصاد الذي يعتمد على النفط، وكانت عوائده تذهب سُدى بين الفساد وسوء الإدارة، ولا بدّ للحكومة من نزع فتيل التوترات العرقية والدينية. وعلى الرغم من المخالفات الكبيرة والعنف التي شابَت انتخابات عامي ٢٠٠٢م و ٢٠٠٧م؛ إلا أنّ الانتخابات شهدت، للمرة الأولى في تاريخ نيجيريا، التحوّل إلى السلطة المدنية، وما تزال البلاد تشهد أطول فترة حكم مدني، وتُعدّ انتخابات ٢٠١٥م ذات مصداقيةٍ كبيرةٍ بشكلٍ عام.

أولاً: السّمات الجغرافية:

١. الموقع الجغرافي: تقع نيجيريا في غرب قارة إفريقيا، على ساحل خليج غينيا، المتصل بالمحيط الأطلسي، يحدها من الشمال النيجر، ومن الشرق تشاد والكاميرون، ومن الجنوب الكاميرون وخليج غينيا، ومن الغرب خليج غينيا وبنين.

٢. المساحة: ٩٢٣,٧٦٨ كم^٢.

٣. المناخ: متنوع: استوائيٌّ في الجنوب، ومداريٌّ في

وتغطي السهول العشبية الأراضي المرتفعة، وتكون تلالاً شبيهة بالقباب.

(٧) المرتفعات الشرقية: تقع على الحدود الشرقية لنيجيريا، وتتكون من هضاب، وجبال، وتلال صخرية منخفضة.

(٨) السهول الجنوبية الغربية: تتكون من غابات كثيفة، تنحدر، تدريجاً، باتجاه الشمال.

(٩) الأراضي المنخفضة الشرقية: تغطي معظم المنطقة مستنقعات وسهول، مكسوة بالغابات، أما الجزء الشمالي الغربي من المنطقة، فهو هضاب شديدة الانحدار.

(١٠) دلتا النيجر: بالمنطقة الجنوبية من نيجيريا، على خليج غينيا، وتغطي البحيرات الضحلة ومستنقعات المانجروف جزءاً كبيراً من المنطقة.

٥. المصادر الطبيعية: تزخر نيجيريا بموارد عديدة، أهمها: النفط، والتصدير، والحديد، والفحم، والحجر الجيري، والنيوبيوم، والرصاص، والزنك، والغاز الطبيعي، والأراضي الصالحة للزراعة.

ثانياً: التركيب السكاني:

١. عدد السكان: ١٨٦,٠٥٣,٢٨٦ نسمة: بتقديرات يولييه ٢٠١٦م.

٢. معدل النمو السكاني: ٢,٤٤٪: بتقديرات ٢٠١٦م.

٣. التقسيمات العرقية:

تتألف نيجيريا، أكبر دول القارة الإفريقية سكاناً، من أكثر من ٢٥٠ جماعة عرقية: أبرزها من حيث العدد والنفوذ السياسي: الهوسا والفولاني Hausa and Fulani: نحو ٢٩٪، اليوروبا Yoruba: نحو ٢١٪، الإيغبو Igbo: نحو ١٨٪، الإيجاو Ijaw: نحو ١٠٪، الكانوري Kanuri: نحو ٤٪، الإيبيببو Ibibio: نحو ٥,٣٪، التيف Tiv: نحو ٢,٥٪.

٤. الديانة: حسب إحصاءات منشورة في عدد من المواقع الغربية: فإن نسبة المسلمين ٥٠٪، والنصارى ٤٠٪، وأصحاب المعتقدات الوثنية ١٠٪، وتتناقض هذه الإحصاءات مع إحصاءات منسوبة لمصادر إسلامية، تشير إلى أن المسلمين هم الأغلبية، بنسبة تزيد عن ٦٠٪.

٥. اللغة: الإنجليزية هي اللغة الرسمية. أما اللغات الأخرى: فأهمها الهوسا، واليوروبا، والإيغبو (أبو)، والفولاني.

ثالثاً: النظام السياسي:

١. اسم الدولة الرسمي: جمهورية نيجيريا الاتحادية.

٢. نظام الحكم: جمهوري، اتحادي.

٢. العاصمة: أبوجا (Abuja).

٤. التقسيمات الإدارية: تنقسم نيجيريا إلى ٣٦ ولاية، وإقليم واحد، هو العاصمة الاتحادية أبوجا.

٥. الاستقلال: استقلت نيجيريا عن المملكة المتحدة، في أول أكتوبر ١٩٦٠م.

٦. الدستور: أقر الدستور الجديد، في ٥ مايو ١٩٩٩م، وتم العمل به في ٢٩ مايو ١٩٩٩م، وتم تعديله عدة مرات، آخرها ٢٠١٢م.

٧. النظام القانوني: مختلط، مبني على القانون العام الإنجليزي، والقانون الإسلامي (في ١٢ ولاية من الولايات الشمالية)، والقانون التقليدي. وتقبل نيجيريا السلطة

الإلزامية لمحكمة العدل الدولية، بتحفظات.

٨. السنن القانوني للانتخاب: الثامنة عشرة، للذكور والإناث.

٩. الهيئة التنفيذية:

أ- رئيس الدولة: رئيس الجمهورية، اللواء المتقاعد محمد بخاري، منذ ٢٩ مايو ٢٠١٥م.

ب- رئيس الحكومة: رئيس الجمهورية، اللواء المتقاعد محمد بخاري، منذ ٢٩ مايو ٢٠١٥م.

ج- مجلس الوزراء: المجلس التنفيذي الاتحادي، يعينهم رئيس الجمهورية.

د- الانتخابات: يُنتخب الرئيس بالاقتراع الشعبي المباشر، لفترة رئاسية، مدتها أربع سنوات (له الحق في مدة ثانية)، وقد جرت الانتخابات الأخيرة في ٢٨ - ٢٩

مارس ٢٠١٥م، ومن المقرر إجراء الانتخابات التالية في فبراير ٢٠١٩م.

١٠. الهيئة التشريعية: يمثلها الجمعية الوطنية، تتكون من مجلسين:

مجلس الشيوخ: ١٠٩ مقاعد؛ ثلاثة من كل ولاية، ومقعد من إقليم العاصمة الاتحادية، يُنتخب الأعضاء بالاقتراع الشعبي المباشر، ومدة ولاية المجلس أربع سنوات.

مجلس النواب: ٣٦٠ مقعداً، يُنتخب أعضاؤه بالاقتراع الشعبي المباشر، ومدة ولايته أربع سنوات، كذلك.

١١. الهيئة القضائية: تتمثل أعلى سلطة قضائية في نيجيريا في المحكمة العليا، التي يُعين قضااتها بناءً على توصية مجلس القضاء الوطني، ويعينهم رئيس الجمهورية؛ ومحكمة الاستئناف الاتحادية، التي تُعين الحكومة

الفيدرالية قضااتها من جداول انتخاب القضاة، بناءً على توصية مجلس القضاء الوطني.

١٢. وصف العلم: ثلاثة أشرطة رأسية، متساوية العرض، الشريط الأوسط لونه أبيض، والآذان

لونهما أخضر.

رابعاً: بيانات اقتصادية:

١. مصادر إجمالي الناتج المحلي: بتقديرات ٢٠١٥م: قطاع الزراعة: ٢٠,٩٪، قطاع الصناعة: ٢٠,٤٪، قطاع الخدمات: ٥٨,٨٪.

٢. قوة العمل: ٥٧,٢٧ مليون عامل؛ بتقديرات ٢٠١٥م.

٣. معدل البطالة: ١٢,١٪؛ بتقديرات ٢٠١٦م.

٤. السكان تحت خط الفقر- عند ١,٢٥ دولار يومياً-: ٦٢,٠٢٪؛ بتقديرات ٢٠١٠م.

٥. الدين العام: ١١,٥٪، من إجمالي الناتج المحلي: بتقديرات ٢٠١٥م.

٦. معدل التضخم: ٩٪؛ بتقديرات ٢٠١٥م.

٧. الزراعة / المنتجات: من أهمها: الكاكاو، والفلو السوداني، والقطن، ونخيل الزيت، والذرة، والأرز، والدخن، والمنهوت، والمطاط، والأخشاب، الماشية، إضافة إلى الأسماك.

٨. الصناعات: من أهمها: النفط الخام، والفحم، والقصدير، والكولومبايت، ومنتجات المطاط، والخشب، والجلود، والنسيج، وزيت النخيل، ومواد البناء، والكيمائيات، والخزف، والصلب، وبناء وإصلاح السفن التجارية الصغيرة.

٩. الصادرات:

أ- أهم الصادرات: النفط والمنتجات النفطية نحو ٩٥٪ من إجمالي الصادرات، إضافة إلى الكاكاو والمطاط.
ب- أهم الدول المُستوردة: الولايات المتحدة الأمريكية ٥١,٦٪، والبرازيل ٨,٩٪، وإسبانيا ٧,٧٪، وذلك بتقديرات ٢٠٠٧م.

١٠. الواردات:

أ- القيمة الإجمالية للواردات: ٤٦,٣٦ بليون دولار، تسليم «F.O.B.»؛ بتقديرات ٢٠٠٨م.

ب- أهم الواردات: الآلات، والكيمائيات، ومعدات النقل، والسلع المصنّعة، والأغذية، والحيوانات الحية.

ج- أهم الدول المُصدّرة: الصين ١٠,٦٪، وهولندا ٧,٩٪، والولايات المتحدة الأمريكية ٧,٨٪، وكوريا الجنوبية ٦,٦٪، والمملكة المتحدة ٥,٧٪، وفرنسا ٤,٣٪، والبرازيل ٤,٢٪، وألمانيا ٤,١٪، وذلك بتقديرات ٢٠٠٧م.

خامساً: المسلمون في نيجيريا:

انتشر الإسلام في نيجيريا نتيجةً لقربها وتأثرها بدولتي المرابطين والموحدين في المغرب العربي، وهو ما تجلّى في قيام كيانات إسلامية، كسلطنة بورنو، وظهور حركة إصلاحية قادها «عثمان دان فودي» عام ١٨٠٤م،

كان من نتائجها توحيد الشمال النيجيري تحت حكم الإسلام المتمثل في خلافة «سكوتو»، ويرجع عدم انتشار الإسلام في الجنوب النيجيري إلى كثافة الغابات الفاصلة بين الشمال والجنوب، والحملات التصيرية في أثناء الاستعمار البريطاني.. وغيرها.

الوضعية القانونية: يُعد القانون الفيدرالي الصادر في ١٩٩٩م إحدى نقاط التحول الرئيسة في مؤسسية الإسلام في نيجيريا، حيث أجاز للولايات النيجيرية حرية إصدار قوانينها المحلية، فالتجهت العديد من الولايات الشمالية إلى «أسلمة» القوانين المنظمة لها، وأولها ولاية «زفرة»، والتي أعلنت تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية، في أواخر يناير ٢٠٠٠م، أعقبها ١٢ ولاية في الشمال النيجيري، وهو ما مثل جدلاً سياسياً ودستورياً، وكان له تداعيات سياسية من قبل الجمعيات المسيحية، تجلّت في نشوب أعمال عنف بين الطرفين في عدد من مدن الشمال النيجيري وقراه.

الوضعية المؤسسية: هناك العديد من الهياكل المؤسسية النيجيرية المعبرة عن النشاط الإسلامي، منها:
- جماعة «نصر الإسلام»: أسسها الحاج «أحمد بيلو»، وقد أعيد تنظيم الجماعة بعد نهاية الحرب الأهلية ومقتل مؤسسها في ١٩٧٠م، وذلك بإنشاء «المجلس النيجيري الأعلى للشؤون الإسلامية» في ١٩٧٤م، بهدف حماية المصالح الإسلامية في سائر أنحاء نيجيريا، والقيام بمهمة الاتصال بالحكومة النيجيرية فيما يتعلق بالشؤون الإسلامية.

- جماعة «إزالة البدعة وإقامة السنّة»: تأسست على يد إسماعيل إدريس عام ١٩٧٨م، تابعة لأصحاب المنهج السلفي، تعمل على تطهير العقيدة من الشرك والتبرك بالأضرحة والأولياء.

- جمعية «الطلبة المسلمين»: حركة طلابية، تنتشر بين طلاب التعليم العالي في شمال نيجيريا، وتدعو إلى الالتزام بتعاليم الإسلام في جميع مناحي الحياة.

- بالإضافة إلى: جمعية «تعاون المسلمين»، وجمعية «تضامن المسلمين»، وجماعة «التجديد الإسلامي»، وجماعة «الأمة»، وجماعة «الوحدة الإسلامية»، و«مجلس أهل السنّة والجماعة».

- أول جامعة إسلامية في نيجيريا: قد يُعد الإعلان عن تأسيس أول جامعة إسلامية في نيجيريا في ٢٩/٨/٢٠١١م، على غرار جامعة الأزهر، لها جناحان: أحدهما للعلوم الشرعية، وآخر للعلوم المعاصرة، وذلك من قبل جماعة «تعاون المسلمين» بنيجيريا، إحدى الخطوات المؤسسية المهمة في سبيل مجابهة النموذج التعليمي الغربي في نيجيريا.

الوضعية السياسية: تولّى الحكم رؤساء مسلمون ومسيحيون عبر النظم العسكرية والمدنية التي توالى على نيجيريا، وخلال الانتخابات الأخيرة ٢٨ - ٢٩ مارس ٢٠١٥م؛ فاز الرئيس محمد بخاري برئاسة البلاد لمدة أربع سنوات.

الوضعية الاقتصادية: تمثّل قبائل «الهوسا» و«الفولاني» أكبر القبائل المسلمة في البلاد، ومعظمهم يعمل في الزراعة، وبعضهم يمارس الحرف اليدوية والتجارية، وتشتهر «الفولاني» بممارسة نشاط الرعي والترحال.

وتمثّل «الهوسا» بقوة في المؤسسة العسكرية والشأن السياسي، ويتمركز في الشمال النيجيري حتى النيجر شمالاً، وتمتد إلى منطقة «جوس بلاتو» وسط نيجيريا جنوباً، ومن بحيرة تشاد شرقاً إلى مدينة «جني» بمالي غرباً، ومن ثمّ لقبائل الهوسا امتدادات إقليمية في دول الجوار.

وتعدّ الوضعية الاقتصادية التقليدية والعسكرية والسياسية للهوسا (المسلمة) والأيبو (ذات الغالبية المسيحية) أحد مسببات التنافس السياسي في نيجيريا؛ خصوصاً في ظلّ تصارع القبائل على المكتسبات الاقتصادية، ولا سيما النفطية منها في الجنوب، والمكتسبات السياسية في البلاد.

التحديات:

يواجه مسلمو نيجيريا اليوم تحديات من التركيب والتعقيد بمكان؛ لارتباط الداخل النيجيري المضطرب؛ بالموقف الإقليمي المعقد؛ في ظل الاهتمام الدولي المتزايد، ويمكن إجمال تلك التحديات في الآتي:

١ - إشكالية تواضع تأثير الإسلام سياسياً في نيجيريا:

على الرغم مما للإسلام من وضعية مهمة في الواقع النيجيري- كما أشير سلفاً-؛ فإنّ ذلك لم ينتج عنه تأثير مماثل في المعادلة السياسية؛ لعدد من العوامل، ومنها:

- تنامي نشاطات الجمعيات التصيرية والتغريبية بشكلٍ منهجٍ ومنظم، والتي تتجاوز مائة منظمة وجمعية خاصة.

- وأنّ ما يقرب من ٧٥٪ من المسلمين أميون، خصوصاً مع غياب إعلام إسلاميٍّ مؤثر في نيجيريا، حتى إنّ الحركات الإسلامية تقتصر نشاطاتها على المدارس والمساجد فقط.

- طبيعة «الدور الشيعي»، والصدام المستمر بين الشيعة والسنة الذي سرعان ما يتطور لأعمال عنف، من عوفاقات التأثير الإسلامي السياسي بنيجيريا، عبر

الاستهلاك في مواجهات بينية.

ومن ثمّ؛ فإنّ تنسيق الجهود الإسلامية في العالم السنّي، على المستوى الرسمي وغير الرسمي، إنما تعدّ بحق- إحدى آليات الارتقاء بتلك الوضعية.

٢ - إشكالية إدارة التعددية العرقية والطائفية النيجيرية:

تعدّ إشكالية إدارة التعددية العرقية والطائفية تحدياً أصيلاً في بناء الدولة في نيجيريا، لأنّ المفردات المكوّنة للخريطة النيجيرية (والتي يربو سكانها على ١٨٠ مليون نسمة) معقدة، فيها مجموعات عرقية تتجاوز ٢٥٠ مجموعة، وثروة نفطية تعدّ الأكبر في إفريقيا، وتطلعات انفصالية متزايدة، سواء في بيفارا سابقاً، أو دلتا نهر النيجر حالياً، وتمايز ديني يُعدّ الأضخم في إفريقيا أيضاً، وذلك في إطار اهتمام دوليٍّ متزايد، كل ذلك يجعل من بناء الدولة وإدارتها في نيجيريا تحدياً كبيراً أمام عدم إقصاء أي فريق دينيٍّ أو سياسيٍّ أو إثني.

٣ - تداعيات تنامي القوى الإسلامية، واحتمالات التدخل الدولي:

تعدّ إشكالية تنامي القوى الإسلامية في إفريقيا عامّة، ونيجيريا خاصة، أحد المحددات الرئيسة في سياسة الخارج تجاه الداخل النيجيري، وكذا تعاطي الداخل الرسمي مع المشكلات المزمّنة في الواقع النيجيري.

ففي ضوء اعتبارات حجم الأغلبية النيجيرية المسلمة، وكذا الثروة النفطية العظيمة، خصوصاً في دلتا النيجر، حيث تعدّ نيجيريا المنتج الأول للنفط في إفريقيا، فإنّ اهتمام الخارج ممثلاً في تنافس القوى الكبرى على النفط النيجيري، أحد التحديات الرئيسة التي تهدّد دعم الجهود الإسلامية في نيجيريا، باحتمالات التدخل، المباشر أو غير المباشر، في الداخل النيجيري، وما يدعم هذه الفرضية ما أعلنه الجنرال «كارتر هام»- قائد القيادة العسكرية الأمريكية لإفريقيا (أفريكوم)- من «أنّ دول شمال إفريقيا تواجه تهديداً إرهابياً متعاظماً من جانب مجموعات موالية لتنظيم القاعدة... تبدو أخذة في التمدد، هذا ما ألاحظه في إفريقيا، وهذا أمرٌ يقلقني».

المصادر:

١- موقع وكالة الاستخبارات المركزية (CIA)- مكتبة العالم-: <https://www.cia.gov/library/publications/resources/the-world-factbook/geos/ao.html>

٢- موسوعة مقاتل من الصحراء.

٣- المسلمون في نيجيريا وإشكالية بناء الدولة، د. السيد علي أبو فرحة، مجلة قراءات إفريقية.

الشيخ سعيد محمد سيبي وجهوده الدعوية والتعليمية بغرب إفريقيا

أ. جميلة محمد سيبي

ناشطة دعوية ومربية وأمينة الأمومة والطفولة
في مجلس علماء شمال مالي



كانت الحركة التعليمية الإسلامية عريقة في

مالي عمومًا، وفي منطقة (غاو)^(١) خصوصًا،

إلى أن دخل الاستعمار الفرنسي البلاد عام (١٨٨٩م)،

لكنه لم يتمكن من القضاء عليها نهائيًا، ولكنه أثر فيها

تأثيراً أدى إلى اختلاطها بالخرافات والآراء التي ما أنزل الله

بها من سلطان، وبسببه تقاصر التعليم العربي الإسلامي

في هذه الولاية شيئاً فشيئاً، وضعفت اللغة العربية،

وتوسعت الفجوة بينها وبين أبناء المنطقة حديثاً.

واستمر التأثير الاستعماري في التعليم قائماً في

منطقة غاو؛ إلى ظهور طائفة من أبناء المنطقة انتشروا في

الأرض طلباً للعلم، فمنهم من توجه إلى بعض الدول العربية

والإسلامية، وتزودوا من فنون المعرفة والعلوم، حتى جاءتهم
فكرة تأسيس المدارس العربية الإسلامية في منطقتهم
غاو، فرجع بعضهم إليها لتنفيذ الفكرة، والبعض بقوا في
الخارج لمهمة كبيرة تجاه الذين رجعوا؛ حيث نشأت رابطة
قوية بينهم، من هؤلاء مثلاً: العالم الزاهد «عماد الدين
بن حنبل الشرماتي» و «إسماعيل الأنصاري» رحمهم الله
تعالى، والدكتور «أبو بكر إسماعيل ميغا» والدكتور «هارون
المهدي ميغا»^(٢).

(٢) د. هارون المهدي ميغا، المراسلات العلمية وأثرها العلمي

(١) «غاو»: من أقدم المدن التي وجدت في حوض نهر النيجر،

على الطريق الواصل بين بلاد الهوسا في الشرق والمراكز

التجارية المهمة في غرب الصحراء، مما صيرها ملتقى

تجارياً مهماً، حيث قصدها التجار من كل فج عميق، وظلت

عاصمةً سياسية واقتصادية لمملكة سنغاي منذ زمن مبكر

إلى القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي.

تبعد المدينة عن «تومبكتو» بنحو (٤٠٠) كم، وتقع على

الضفة اليسرى لنهر النيجر شمال شرق جمهورية مالي،

وهي الإقليم السابع في الدولة حالياً، والمدينة المركزية

لشمال مالي سياسياً، كما هي موطن النفط المكتشف أخيراً،

بالإضافة إلى الذهب. وهي من أقدم المدن التي وصل

الإسلام إليها، واستمر العلماء ينشرون الإسلام بين الأهالي

إلى أن أسلم على أيدي بعضهم ملك سنغاي «زاكسي»:

المسمى «مسلم دم» سنة (٤٠٠هـ / ١٠٠٩م).

وترجع أهمية ذلك إلى إمكان إطلاع المستفتي على ما يتعدّد عليه، كالتفاوت الجديدة، ومن الأمثلة: استفتاء الشيخ سعيد سيّسي- رحمه الله- في مسألة (خطبة الجمعة: هل تُلقى بغير العربية؟)، فقد أرسل الشيخ خطاباً (عام ١٤٢٤هـ) إلى تلميذه د. جبريل المهدي ميغا، بمجمع الفقه الإسلامي بمكة المكرمة، يطلب تفصيل القول في هذه المسألة، وكان لهؤلاء الرجال أثرٌ بارزٌ في التعاون العلمي والثقافي والإصلاحي، ولم يقتصر ذلك على منطقتهم غاو فقط، بل تعدّد جهودهم من روافد النهضة الإسلامية المعاصرة العامّة^(١).

وأما الذين رجعوا من البلدان المختلفة: فقد استقروا في المنطقة دعاة، وشرعوا في تأسيس المدارس الإسلامية، وكانت أول مدرسة أُسست في المنطقة مدرسة «سبيل الإسلام» لصاحبها محمد الطاهر نصر، عام (١٩٧٤م)، ثم «معهد أسكيا محمد» لجماعة أهل السنّة بفاو، عام (١٩٧٥م)، ثم «مدرسة النهضة الإسلامية» لصاحبها «الشيخ عثمان» رحمه الله، ثم «مدرسة الإرشاد الإسلامية» في «أنسونغو»، عام (١٩٧٧م)، لصاحبها «سعيد محمد سيّسي» - رحمه الله- موضوع هذا البحث. ويعدّ الشيخ الجليل سعيد محمد سيّسي- رحمه الله- من بين العلماء الأفاضال الذين رفضوا فكرة «جماعة الهجرة والتكفير» التي انتشرت في السبعينيات بدولة غانا والنيجر وشمال مالي، وقد وقف أمام طروحات زعيمها بالرفض التام، ونقّد منهجه المخالف للكتاب والسنّة وما كان عليه السلف الصالح.

وتحاول المحاور الآتية إلقاء الضوء على سيرة هذا الشيخ الجليل، والتعريف بشيوخه وتلامذته، وإبراز مجهوداته الدعوية والتعليمية.

المحور الأوّل: نسبه ومولده ونشأته ورحلته العلمية وبعض مشايخه:

والثقافي والإصلاحي بغرب إفريقيا، ١٤٢٦/٨/٢٤هـ / ٢٠٠٨/٨/٨م، ص ٢٣ (مخطوطة).

(١) د. هارون المهدي ميغا، مرجع سابق، ص ٢٤.

هو سعيد بن محمد بن شعيب المعروف بـ«الشغي» بن عليّ بن أبي بكر بن اللّباس رحمه الله^(٢). وأمّه: رحمة الله بنت مختار المعروف بـ«تليّ مّتر» بن لارِبوانجات بن القيد بن عليّ بن انبارا - مبارك - وأنبار: مشهور عند «الهمكلاجين» أنه عربيّ جاء من المملكة المغربية، وأغلبهم ينتسبون إليه^(٣).

مولده ونشأته:

وُلد الشيخ «سعيد بن محمد سيّسي» سنة (١٩٣٥م)، بقرية «همكلاج»، وهي تبعد عن مدينة «غاو» شمالاً بـ (٤٥) كم^(٤).

كان أبوه عالماً فقيهاً ورعاً؛ حتى لُقّب باسم: «ألفا حَرَّغُوا» لغزارة علمه وكثرة طلابه^(٥)، وينتمي الشيخ إلى أسرة علمية عريقة، وهي مشهورة باسم: «ألفا كُيرا»؛ بمعنى: قبيلة العلماء.

نشأ الشيخ بـ«همكلاج»، وتعلّم بها مبادئ العلوم على يدي والده، حفظ القرآن الكريم في صغره^(٦)؛ إذ كان أسرع من أترابه في الحفظ والاستيعاب، ما جعل فقيمه الأول بعد أبيه (ألفا لارب) يحنو عليه ويرعاه، ويصبح له بمثابة الأب الحنون^(٧).

(٢) مقابلة شخصية مع ابنة الشيخ نفسه السيدة: خديجة سعيد سيّسي، أستاذة بمدرسة (الإرشاد الإسلامية) بـ«أنسونغو»، بتاريخ: ٢٠٠٩/٩/٥م.

(٣) المقابلة نفسها والتاريخ.

(٤) حسب البطاقة الشخصية للشيخ.

(٥) مقابلة شخصية مع عبد الكريم محمد ميغا، الهمكلاجي، خريج السعودية، وعضو هيئة التدريس بمركز الملك أسكيا الحاج محمد الإسلامي بمدينة «غاو»، وإمام المسجد المسمّى «المعروف» في الحيّ الرابع بفاو، تاريخ: ٢٠٠٩/٩/١٧م.

(٦) مقابلة شخصية مسجلة على شريط رقم ١، مع: ابن الشيخ: عبد الفتاح سعيد سيّسي، منسق برنامج التعليم في منطقة غاو.

(٧) مقابلة شخصية مع: عبد الكريم محمد ميغا، شخصية سابقة، بالتاريخ نفسه.

ليكسب زاداً يوصله إلى تحقيق أهدافه العلمية والتعليمية^(٤). ثم رحل إلى «كماسي»، إحدى ولايات جمهورية «غانا»، والتقى بالشيخ «آدم إلوري»، فلأزمه فترة، وأخذ عنه البلاغة والنحو والصرف وغيرها من العلوم اللغوية^(٥).

ثم واصل مشواره العلمي، فقصده الشيخ عبد الصمد^(٦) - رحمه الله -، وتزوّد منه ألواناً من المعارف والفنون، حيث كان الطالب (الشيخ سعيد) متفتح الذهن، غير متعصب لمذهب، حريصاً على العلم والمعرفة، وكان يتزود من العلماء والخبراء في مجالسهم، ولمّا سمع بخبر المبعوثين من فرقة الأحمدية من الهند اتصل بهم وحاوهم؛ لكونهم فصحاء في اللغة العربية بالدرجة المطلوبة؛ بحجة أنّ الحكمة ضالة المؤمن أنّى وجدها فهو أحق بها، تعلّم عند الأحمديين العلوم التربوية، وكيفية وضع المناهج، وتسيير المدارس الحديثة.

وكان يتصل بكلّ داعية داخل «غانا»، ويتبادل معه الآراء الدينية، كما استفاد من شيوخ آخرين غير المذكورين، فقتضى الشيخ في «غانا» ما يبلغ ست سنوات، وخلالها كان يتنقل بين الاستفادة وإفادة الآخرين، وما زال كذلك حتى حدوث البلبلية السياسية (حركة بوشي)، فكان ضمن المطرودين من غانا.

ثمّ توجه إلى النيجر مرة أخرى، واتخذها موطناً، فالتحق بالشيخ «محمد محمود السوقي»، فأخذ منه أصول التفسير ومصطلح الحديث وأصول الفقه، وغيرها من المواد الدينية والعربية، وممن اتصل به واستفاد منه الشيخ «عبد الله فلاني»، أخذ عنه بعض الإرشادات في

كان مولعاً بالعلم منذ أن كان في الصبا؛ إذ كان يقضي جلّ وقته في المطالعة، ومما ذكرته أمّه أنّ مفارقتها الكتب كانت دليلاً على اشتداد مرضه أو إصابته بألم، اتخذ الكتب صديقاً له يستأنس بها أينما وجد^(٧)، ولم يكن له حظّ في ملاعب الأطفال؛ لأنه أمضى شبابه في طلب العلم والمعرفة^(٨).

رحلته العلمية:

كان لدى الشيخ اهتمامٌ ورغبةٌ شديدة في المجالس العلمية، إلى أن صفت نفسه، واتسع فكره وصيته العلمي؛ فرحل إلى مدينة «نيني» بالنيجر، حيث يقيم الفقيه الكبير إمام العمر بالمنطقة «ألفا لارب» - رحمه الله-^(٩)، وعندما لأزمه وجده أروع مما كان في مخيلته: محدثاً بارعاً، وفقهياً يتحرى الرواية، فأخذ عنه عدداً من الكتب الفقهية، كشرح «الثمر الداني»، وسراج السالك، ومصباح السالك، وكان الطالب يبدي رأيه في المذهب واجتهاداته بما لديه من فكر ثاقب وفهم عميق، ما جعله الطالب المقرب من الفقيه، كما أخذ العلوم العربية واللغوية، ومع ذلك كله كان يمضي شطر وقته في تدريس أقرانه وتسهيل المفردات الصعبة عليهم. ثم توجه الطالب (الشيخ سعيد) إلى «الفلتا العليا» (بوركينافاسو حالياً)، وهناك مارس مهنة التدريس إلى جانب تحصيل العلم، فكان يعلم أولاد بعض التجار الهنود:

(١) السيدة خديجة سعيد سيسي، مقابلة سابقة.

(٢) مقابلة شخصية مع الحسن سهل بطغور، إمام وخطيب بالمسجد الجامع بمدينة (أنسونغو)، بتاريخ: ٢٠٠٩/٩/١٦م.

(٣) الشيخ اللغوي الفقيه: حسين بن محمد: المعروف ب«حسين بتوا» المشهور ب«ألفا لاربو»، في مدينة «نيني» بمنطقة «تيلابيري» النيجرية، عاش بعض أيامه في الحرم المكي، وقد تخرّج على يديه عدد كبير من أبناء شرق مالي، والنيجر، في التفسير والحديث واللغة، كان له جهد كبير في النهضة السنّية المعاصرة في هذين البلدين، وفي «غانا»، وتوغو»، وأنشأ المدارس الإسلامية، وتتف على يديه كبار علماء هذه المناطق، خصوصاً أبناء منطقتة (غاو)، توفي وله (٦٢) سنة.

(٤) مقابلة شخصية مع أحد الطلاب البارزين للشيخ رحمه الله، سعيد علي ميغا، مدير مدرسة التعاون الإسلامية، (بفرغوا) وموظف حكومي، بتاريخ: ٢٠٠٩/٩/١٢م.

(٥) المقابلة نفسها والتاريخ.

(٦) الشيخ عبد الصمد: من الشيوخ الغيورين على إحياء السنّة وقمع البدعة والخرافات، مؤلف رسالة «السنّة والبدعة»، عالم فقيه متفنن في العلوم والفنون والمعارف، استفاد منه الشيخ بمصاحبه ومحاورته بما يُستفاد من المجلس الصالح، مستفاد من: مقابلة شخصية مع الشيخ محمد بن معاذ.

تنظيم المدارس، كما اتصل بالعالم «عمر ملي» - النيجري أصالة- وأخذ عنه.

هذا، وقد استفاد الشيخ كثيراً من الشيوخ بالنيجر، كالشيخ: إسماعيل داود، ومحمد القاضي الباكستاني: خريج الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، والشيخ إناسير: المبعوث السعودي الذي يشرف على السفارات السعودية آنذاك، وأخذ عنه الطالب المجاهد (الشيخ سعيد) سنن الترمذي.

كان الشيخ سعيد صبوراً متجلداً أمام النواكب في طلب العلم، ثقة عدلاً، وقد عُرف الشيخ بذلك منذ نعومة أظفاره، ويحكى في غاية عدله ووفائه للهد أن شيخه (ألفا لارب) أرسله ليأخذ أمانة له عند شخص مقيم وراء النهر، وصادف عودته غروب الشمس حيث توقفت السفن، ولم يدرك إلا نوعاً منها يُسمى «توميلو»، ومن المعروف غالباً أنها قد تفرق براكبها بكل سهولة، فركبها الطالب المجاهد (الشيخ سعيد)، فانقلبت به وغرق، وبعد محاولات حتى الصباح نجى الله الطالب المطيع ربما كان ذلك نتيجة استجابته لدعوة ربه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ [النساء : ٥٩]، وقوله: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ بَعْدَهُمْ إِذَا عَاهَدُوا﴾ [البقرة : ١٧٧].

المحور الثاني: تلامذة الشيخ سعيد سيسي-

رحمه الله:-

أخذ عن الشيخ عددٌ كبيرٌ من طلاب العلم في غرب إفريقيا، وخصوصاً: غانا والنيجر ومالي)، وسأكتفي بذكر عددٍ من أشهر تلامذته الذين لازموا الشيخ واستفادوا من علمه، ومنهم:

١ - سعيد علي ميغا: من مواليد (١٩٥٥م) بمدينة «فرغوا» شمال «غاو»، لازم الشيخ منذ صغره، فتعلم منه العلوم الدينية واللغة العربية، وتثقّف بثقافة عالية، حتى كأنه درس دراسة أكاديمية، وكان ثقةً مأموناً، يُنوب عن المجاهد الكبير في حلقاته ومجلسه، وكان له بمثابة الابن، وكان الشيخ سعيد محمد سيسي يثني عليه، حتى إنه لما فكّر في تأسيس مدرسة إسلامية في بلده لم ير من له

الكفاءة في إنشاء المدرسة وإدارتها في «أنسونغو» عام (١٩٧٧م) إلا هذا الطالب، إلى أن احتاجت قرية الطالب لإنشاء مدرسة إسلامية، فلبّي دعوتهم، وأصبح مديراً ومرشداً لمدرسته «التعاون الإسلامية» بقريته «فرغوا» وموظفاً حكومياً.

قام بأعمال عظيمة تماثل تلك التي قام بها شيخه في تكوين الطلاب والشيوخ، وكان فياً لشيخه إلى أن توفي- رحمه الله-، وكان مولعاً به في أفكاره وبمنهجه التعليمي، وما زال- حتى الآن- وارثاً علمياً للشيخ الجليل^(١).

٢ - عمر المهدي ألفا بكوا: من مواليد (١٩٤٧م) بـ«فرغوا» - دُمبريا-، من أشهر طلاب الشيخ سعيد، استفاد منه كثيراً، خصوصاً في العلوم اللغوية، إلى أن التحق بجامعة أم القرى بالملكة العربية السعودية، فحصل على شهادة الإجازة العالية (الليسانس)، وبعد فترة من الزمن رجع إلى موطنه الأصلي، فبذل جهداً كبيراً في نشر تعاليم الإسلام^(٢).

٣ - عثمان صالح ميغا: انطلقت رحلته العلمية في «أرحابو»، إلى النيجر قاصداً الاتصال بالشيوخ المشهورين، ومن ضمنهم الشيخ «سعيد محمد سيسي»، فكان ممن أخذ عنه الطالب، ثم التحق بمعهد إعداد الأئمة التابع لرابطة العالم الإسلامي، وتخرج فيه بالإجازة العالية، ثم رجع إلى موطنه الأصلي «غاو»، ليفيد أبناءها، وهو بحر في العلوم الدينية^(٣).

٤ - جبريل المهدي ميغا: المدرس بجامعة أم القرى بمكة المكرمة، له مصنفات عدة في أصول الفقه، منها: (دراسة تحليلية مؤصلة لتخريج الفروع على الأصول عند الأصوليين).

(١) مقابلة شخصية مع: سعيد علي ميغا، ومقابلة: عثمان لغوا، إمام وخطيب بمسجد عثمان بن عفان بباري هوسا «أنسونغو» بتاريخ: ٢٠١٠/٢/٢١م.

(٢) الشيخ سعيد سيسي: طبقات رجال العلم في منطقة (غاو) - مخطوطة.

(٣) مقابلة شخصية: الشيخ عثمان صالح ميغا - عضو هيئة التدريس بمركز الحاج الملك أسكياج محمد الإسلامي.

- بالسفارة السعودية بيمako.
- عبد الفتاح سيسبي: ماجستير في اللغة - أستاذ في جامعة بيمako.
- إبراهيم عبد الله جالو: دبلوم عالي في الصحافة - صحافي.
- عبد الله الأسان: الثانوية + ملازمة الشيخ - وكيل مدرسة الإرشاد.
- محمد محمن سيسبي: الثانوية + ملازمة الشيخ - مدير تعليم مدرسة الإرشاد.
- جميلة محمد سيسبي: دبلوم السنة الجامعية الثانية - طالبة بالسنة الرابعة بكلية البنات (الجامعة الإسلامية بالنيجر).

المحور الثالث: جهوده في غانا والنيجر

ومالي؛

أولاً: جهوده في غانا:

تنقل الشيخ كثيراً بين عددٍ من المناطق بإفريقيا الغربية، وخصوصاً (غانا والنيجر ومالي)، لينشر ثقافته، ويفيد الناس من مخزونه العلمي، فاتجه إلى «كماسي» بجمهورية «غانا»، فبذل قصارى جهده في التعليم ونقل وما لديه من المعرفة والخبرة والرصيد العلمي إلى الآخرين، وتثقيف أبناء المسلمين وعامتهم، فكان لا يترك فرصة إلا ويفتتها فيلقاء محاضرات، أمّا في الجمع وأمّا في الجماعات، وبخاصة في المسجد الذي يصلّي فيه أبناء الجالية المالية صلاة الجمعة.

وكان له أساليب مختلفة لتحقيق أهدافه الدعوية وبلوغ مراميه النبيلة، فكان يركز المحاضرات والخطب في مشكلات المجتمع، والإصلاح بين الناس، كما كان يلقي دروساً دينية في التفسير والحديث والفقه وغيرها من العلوم الشرعية، بالإضافة إلى العلوم العربية التي كان فيها بجرأ لا ينضب.

كانت هذه الجهود يبذلها في المسجد والمجلس وبعد الصلوات المفروضة وفي المجمعّات وفي المنزل، وكان في البداية يتصل بالدعاة والمرشدين والفقهاء ليزداد

٥ - عبد الباقي عبد الرحمن سرافة سيسبي: الدكتور المدرس بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض / السعودية، وعضو الجمعية الخيرية لتحفيظ القرآن الكريم بالرياض، من مؤلفاته المطبوعة: (قواعد نقد القراءات القرآنية.. دراسة نظرية تطبيقية).

٦ - موسى حمية دكّوا: يعدّ من أشهر طلاب الشيخ، ومن أندهرم تعلقاً به، أخذ عنه مبادئ العلوم النحوية واللغة العربية، وقد استفاد من الشيخ في منهجه التعليمي، حتى رأى أنه يستطيع أن ينوب عنه في غيابه، لذا لمّا أسّس المدرسة السلفية الإسلامية بمدينة غاو عينه الشيخ مديراً ووكيلاً للمدرسة، فأظهر مهارته وخبرته التعليمية، ووضع الخطط التعليمية لتطوير المدرسة، وله جهودٌ وأنشطة علمية وثقافية في تطوير المدارس وتثقيف أبنائها^(١).

كان طلاب الشيخ من مختلف القبائل والأقطار، فانتشر هؤلاء الطلاب في البلدان، فأسس بعضهم المدارس العربية الإسلامية، والتحق بعضهم بالجامعات العربية الإسلامية، وانشغل بعضهم بتأسيس المؤسسات الدينية، ومنهم:

- السيد: يونس حامد ميغا: رئيس جمعية الدعوة إلى الكتاب والسنة، ومدير وكالة الحج والعمرة، «بكل سلام» نيامي النيجرية.
- السيد: سالف عمر (هوساوي): رئيس الجمعيات الإسلامية التيسيقية - في نيامي / النيجر.
- السيد: يحيى محمد هوساوي: الزعيم الأول لجمعية إحياء السنة وإخاد البدعة - في النيجر^(٢).
- وأما طلابه الذين تلقوا تعليمهم في مدرسة الإرشاد، وحصلوا على مؤهلات علمية عالية، فمنهم:

- عباس شمس الدين إبراهيم: دكتوراه في اللغة - أستاذ جامعي - في غانا.
- عبد العزيز محمد ميغا: دكتوراه في الآداب - موظف

(١) مقابلة شخصية: عبد الفتاح سعيد سيسبي، مقابلة سابقة، وسعيد علي ميغا وعبد الله بن محمد كبتون جارا.

(٢) مقابلة شخصية: عبد الله محمد كبتون جارا، مدير مدرسة الفرنسية العربية (سبيل الفلاح) في حيّ (بوكوكي) بنيامي، النيجر، بتاريخ: ٢٠١٠/٢/٢٨م.

فقهاً وخبرة، فيتجاوز معهم في مناقشة هادفة بناءً حول الآراء الدينية والمشكلات التي تعرقل الدعوة، وواقع الأقلية المسلمة في الدول غير الإسلامية كغانا وغيرها، وكان الشيخ فصيح اللسان، يتسم بالوضوح في الخطب والمواعظ، صريحاً لا يجامل أحداً رئيساً كان أو مرؤوساً^(١). وما زال الشيخ في هذه التضحية حتى أنشأ مدرسة نظامية إسلامية ثقافية تربوية للجالية المالية وللمواطنين، وأحد مسائيه، وأخرى ليلية لتثقيف الكبار، فما زالت قائمة مستمرة متطورة في حيّ «زُنفو» بـ«كُماسي»، تؤدي دورها في تلك الفترة^(٢)، إلى سنة (١٩٦٩م) التي طرد فيها الغرباء من «غانا» في شهر رمضان المبارك، وإلى جانب تلك المدرسة أسس حلقة علمية صباحية يدرس فيها التفسير والحديث والتوحيد والفقه والنحو والصرف.

وكان منهج الدراسة في المدرسة مفيداً جداً، وامتدوراً ونشطاً؛ حيث درس فيها المواد الأساسية كالقراءة والخط والحساب والتاريخ والجغرافيا وقواعد الإملاء والمطالعة والنشيد وغيرها، وكان عدد الطلاب فيها يناهز ثلاثمائة تلميذ، تخرجوا في مدرسة الشيخ الجليل الليلية، بمستويات عالية، حتى تحصل بعضهم على مؤهلات علمية، مكنتهم من مواصلة دراستهم الجامعية، وتأهّل بعضهم الآخر للإمامة والتدريس^(٣).

ثانياً: جهود في النيجر:

بعد حصول بعض المشكلات السياسية التي أدت إلى طرد الغرباء من دولة غانا؛ كان من جملة المطرودين المجاهد الكبير الشيخ «سعيد محمد سيسي» - رحمه الله-، فرجع إلى النيجر لكونها أقرب الدول المجاورة لمالي، ولها صلة علمية ثقافية اقتصادية مع مالي، وبخاصة المنطقة التي ينتمي إليها الشيخ (منطقة غاو)،

فاتخذ العاصمة النيجرية (نيامي) مستقراً وأمناً، وعقد علاقات علمية مع المواطنين والمبعوثين من الخارج وكبار المسؤولين والساسة، وكان يتصل بكل من له سمعة طيبة من العلماء والزعماء والمبعوثين وأئمة المساجد ورؤساء الجمعيات الإسلامية ورجال الدعوة، إلى أن حان الوقت ليؤدّي دوره في مجتمعه الجديد، فتمركز في العاصمة (نيامي)، ودرس في العديد من المساجد^(٤)، وفتح أول حلقة علمية له في حارة «كَلْيَس»، فكان يأتي إليها طلاب العلم من كل فج عميق ليتزودوا من هذا البحر، في أي فن شأوا، والشيخ يلقي عليهم مختلف العلوم واللغة العربية الفصحى، وكان ديدنه وشعاره: تفسير الجلالين، ورياض الصالحين، وبلوغ المرام، والموطأ، وصحيح البخاري، وفتح المجيد، والتمر الداني، والمقدمة العزبة، والأجرومية، ومُلحة الإعراب، وقطر الندى، وشرح ابن عقيل، وعدد من كتب البلاغة والأصول^(٥).

ولمّا أدرك الشيخ تعطش الطلاب إلى المعرفة والعلوم الدينية، وأنهم يعانون من بُعد مسافة المجلس ومزاحمتهم فيه، بادر إلى تأسيس حلقات علمية كثيرة بحسب الحارات، كالحلقة العلمية بمسجد «سُونِي» ومركز «بُوكُوتْشِي» ومركز «دَيْرِيُون» ومركز «حَرُوبُنْدَا»، ووضّف الجهد فيها، وتكبّد التكليف، فكان بعضها مسائية وبعضها ليلية، يقوم بهذه المهمة بنفسه ولا ينوب عنه أحد إلا في الحالات الضرورية النادرة، ولقد عكف الشيخ على إدارة هذه المراكز، وبذل جهوداً عظيمة في تطويرها، حتى استطاع أن يخلق منارة علمية تقليدية على نظام المدرسة الحديثة، وهي مشهورة باسم: «شاتوبريل» بقرب المدرسة الفرنسية «لَاكُو»^(٦)، وقد تخرج في هذه المراكز أجيال كثيرة من كبار العلماء والأئمة الموجودين حالياً في النيجر وغيرها - كما أشرت سابقاً-.

وما زال المجاهد الكبير سعيد محمد سيسي - رحمه الله- يواصل هذه المسيرة الدعوية والتعليمية بنيامي في

(١) دستور حياة الشيخ العلمية، سعيد علي ميغا، شخصية سابقة؛ بتاريخ: ٢٠٠٩/٩/١٤م.

(٢) عبدالفتاح سعيد سيسي، مقابلة شخصية سابقة في الشريط نفسه.

(٣) سعيد علي ميغا، مقابلة شخصية سابقة.

(٤) عبدالفتاح سعيد سيسي وسعيد علي، شخصان سابقان.

(٥) الشخصية نفسها والتاريخ.

(٦) الشيخ موسى حمية دكوا، مقابلة سابقة.

سيورات، وكلها مني، فبدأت بـ ٤٥ طالباً...»^(٣). وعيّن بها أحد طلابه البارزين الذي لازمه من سنة ١٩٦٩م إلى ١٩٨٢م)، وهو سعيد علي ميغا، لإدارة المدرسة نيابةً عنه، ولم يزل يتردد بين نيامي وأنسونغو، ويبدل قصارى جهده في تطوير المدرسة وغيرها من المدارس العربية الإسلامية في منطقة غاو، إلى أن كره الغربة بسبب خلافات سياسية بين النيجر وليبيا^(٤).

ثالثاً: جهوده في مالي:

لما استقر الفقيه والعالم اللغوي الشيخ سعيد سيبي أخذ بزمام أموره الدعوية والفكرية، وعمل على إدارة المدرسة بنفسه في المنطقة كلها، وبذل جهداً في جعل التدريس بها تديراً تحصيلياً جاداً لا مجرد الاستماع، حتى قال فيه أمير قرية «أنسونغو»: «أيها الشيخ! نشكر الله، ثم سعيكم، قبل مجيئكم هذا لا نرى طفلاً يقرأ القرآن في الشارع، وبوجود وجهك انتشر العلم وحُفظ القرآن بين الصبيان، حتى في الشوارع والطرق، فجزاك الله عنّا كل خير»^(٥)، وتبوأ العالم المجاهد هذه المكانة الأدبية والعلمية لغرسه حماسة الإسلام وتعميقه في النفوس والسلوك، وقد أدت هذه المدرسة دوراً كبيراً في نشر الإسلام وثقافته، وصارت أهم مركز تعليمي في البقعة الشمالية لمالي، وما زالت آثار تلك الحركة التعليمية واسعة التداول وتحظى بالتقدير الكبير^(٦).

وتقع هذه المدرسة في داخل «أنسونغو» ببناء ملك لها، وتتكون من مرحلتين: الابتدائية والإعدادية، بتسعة فصول، وكانت تحت إشراف الوزارة التربوية الوطنية منهجياً. وكان تلامذة الشيخ يشغفون أعلى المناصب في

مختلف الساحات، إلى أن احتاجت جمعية الدعوة الليبية إلى دعاة رسميين في النيجر، فرشحوا الشيخ لكفائه، سنة ١٩٧٢م)، فارتبط بهذه الجمعية طيلة إقامته بالنيجر؛ حيث أقام في نيامي أكثر من سبع سنوات^(٧).

وما زال مع الجمعية إلى أن رغب في زيارة أهله وعشيرته في منطقة غاو بجمهورية مالي، ففي سنة ١٩٧٤م) شعر المسلمون في المنطقة (غاو) لا سيما الجهة القريبة من النيجر مدينة «أنسونغو» بحاجتهم إلى مدرسة علمية إسلامية، على منهج السلف الصالح، وكان زملاء الشيخ يناشدونه بذلك ويشجعونه، فلبي الشيخ الجليل- رحمه الله- رغبة المجتمع- الذي كاد يهوى في الظلم والظلمات- لينيرهم، وفرحل إلى «غاو» واعظاً ومرشداً.

بدأ بمدينة غاو قبل أنسونغو، فأرشد إلى مدرسة عربية فرنسية إسلامية، وعيّن الصاحب الحبيب والزميل المختار: محمد الطاهر العلوي، وفكر الشيخ في تأسيس مدرسة أخرى في مدينته «أنسونغو»، حيث يقول الشيخ نفسه في نصّ مكتوب بيده: «كنت في نيامي عاصمة النيجر، ففي عام ١٩٧٥م) فكرت في أن أتهياً للعودة إلى بلدي «جمهورية مالي»، فجنّت مدينة «أنسونغو» لطلب الإذن من المسؤولين في بلدي لفتح مدرسة إسلامية عربية وفرنسية لعلّي أقضي بعض ما عليّ لأبناء وطني من الحقوق الكثيرة، اتصلت بهذا الغرض بأمر «باز هوسى» وبأمر «جلاغو» وبكبراء الحاريتين (المدينتين)، وطلبت منهم أن يعينوني على طلب الإذن لفتح المدرسة، فحسّنوا الفكرة وأعانوني، وذهبوا بي إلى الحاكم (المفوض)، وقدمت طلي وأورقي إلى الحاكم...»^(٨).

«في عام ١٩٧٧م) حصلت على الإذن لفتح المدرسة برقم (٠٢٤١)، وشرعت في الاستعداد، فاشترت مقاعد وسيورات، وما استطعت من الأدوات المدرسية إلى أن فتحتها، فالمدرسة تملك الآن ستة وثلاثين مقعداً، وسبع

(١) مقابلة شخصية مع الشيخ موسى شداد، عضو هيئة التدريس بمركز أسكيا محمد الإسلامي بتاريخ: ٢٠٠٩/١٠/٣م.

(٢) الشيخ سعيد محمد سيبي، تقرير بتاريخ: ١٩٨٢/٤/٢٨م.

(٣) المرجع نفسه.

(٤) سعيد علي ميغا، مقابلة سابقة.

(٥) مقابلة شخصية، أمير مدينة أنسونغو: عبد الرزاق جبريل ميغا، بتاريخ: ٢٠١٠/٢/١١م.

(٦) عثمان لغوا، إمام مسجد عثمان بمسجد بازهوسا، وسعيد علي ميغا، مرجعان سابقان، سعيد محمد سيبي، تقرير رقم ١٠٠.



الشيخ سعيد سيسي - يمين الصورة

وتقريبه إلى الناس^(٢).

كان لا يدع فرصة تفوته إلا في مطالعة أو تفسير، أو استماع إلى أحد طلابه معلقاً مدعماً، لا يرى نفسه غير باحث عن العلم وعاشق له، يستعد دائماً للأخذ والعطاء، يحمل كعادته عدة كتب متنوعة تزن حوالي ٢٠ كجم أو تزيد، حتى أصيب في شقه الأيمن، يطلع عليها في أي وقت فراغ، سواء بالسيارة أو المحطة أو تحت الأشجار أو المساجد التي يمر بها.

وكان يتأنى في الإفتاء، ويمعن النظر في المسألة، فيقبلها على وجوها المختلفة، وما زال المجاهد الكبير يضاعف الجهد، ويجمع الدعاة ويدربهم، ويكوّن الأساتذة، ويفقه الكبار، ويلقي محاضرات على الطلاب الذين لم يكن لهم حظ في المدارس الدينية في مدارسهم الفرنسية، ولذلك برنامج متطور حيوي خاص، فعمّ نفعه وانتشر علمه^(٣)، حتى أحبوه وأكرموه بين أيديهم فلم يعد غريباً في المدينة.

(٢) أمير مدينة أنسونغو، عبد الرزاق جبريل، والإمامان الحسن سها وعثمان، بمسجدي بازهوسا، وهيئة التدريس بمدرسة الإرشاد الإسلامية في أنسونغو.

(٣) مقابلة شخصية مع كل من أعضاء هيئة التدريس بمدرسة الإرشاد الإسلامية، عبد الله الحسن توري، مدير المدرسة، والأستاذ عبد الرحمن إبراهيم ميغا، والأستاذ بشير أربنكنا ميغا، ومدير التعليم محمد سيسي.

المؤسسات الدينية في مختلف الدول الإفريقية، وكان يشجّع طلاب العلم الذين يرى فيهم الكفاءة على إنشاء مدارس جديدة في المنطقة لنشر الإسلام واللغة العربية، ويدعمهم لتحقيق هذا الهدف النبيل، فأصبح الشيخ المرجع الوحيد في المنطقة لمن يريد أن ينشئ مدرسة أو يضع منهجاً دراسياً^(١)، وكان يكتب نصائح وإرشادات لإخوانه وطلابه الذين يواصلون دراساتهم في مختلف الجهات من العالم الإسلامي تشجيعاً لهم، وتوجيهاً، ليتفكروا في العودة إلى بلادهم بعد نيل مرادهم، للمساهمة في التعليم الإسلامي والعربي والدعوة الإسلامية بالمنطقة، وما فتئ يشجّع على تأسيس المدارس؛ حتى تمكنوا من فتح مدارس في القرى والأرياف، منها:

- مدرسة التعاون، في «فُرغوا».

- مدرسة سبيل الإرشاد، في «مَنِيَا دَوِي».

- مدرسة عمر الفاروق الإسلامية، في «وَتَغْنَا» الواقعة شمال غاو.

- مدرسة تحفيظ القرآن الكريم، في قرية «غولنغوا» التي تقع في جنوب «أنسونغو».

- مدرسة عربية فرنسية، في مديرية «مِنِيكا» الواقعة في شرق أنسونغو.

بالإضافة إلى ما سبق؛ كان للشيخ مواهبه على منصة القضاء، ذائع الصيت على المنبر، له برنامج في الإذاعات المحلية الرسمية في دائرة أنسونغو وغاو، وكان الخطيب البارع، والداعية المتجول، الزاهد الورع، لا يستقر في قرية إلا ويتعطش إلى أخرى لتبليغ الرسالة، لا يهدأ له بال حتى يقف على أعمال المدرسة موجّهاً ومشجّعاً ومخطّطاً، ومتلطفاً بالطلبة، وله حلقات علمية في المسجد القريب من منزله، والذي شيدته هيئة الإغاثة الإسلامية العالمية في حيّ «إِدْرُوْلِيك»، يلقى السدروس والمحاضرات بهمة عالية، ونفس مطمئنة واثقة، مبتهجاً بنشره للعلم والمعرفة

(١) دستور حياة الشيخ العلمية، سعيد علي ميغا، شخصية سابقة، في مقابلة تمت بتاريخ: ١٨/٩/٢٠٠٩م.

دول شتى؛ فكان هو الفائز الأول^(٥).

وله باع في لغات أخرى، ما جعل دعوته مؤثرة في كثير من الناس، كلفة «أَسْنَتِي»، واللغة الإنجليزية التي أتقنها تحدثاً وكتابة^(٦)، وكان له همة في ممارسة الأعمال المسندة إليه، يمسك بالقلم حيناً ليخطُ حكماً عادلاً، ويمسك بالطباشير حيناً آخر ليعلم أبناء المنطقة، فكان عالماً بارعاً، متقناً للعلوم والآداب، زاهداً خطيباً معلماً موجّهاً، مخلصاً في دعوته إلى الله العليّ القدير؛ بالحكمة والموعظة الحسنة، مع ذلك كله كان متواضعاً مع طلابه، رفيقاً بهم، محباً لهم الخير والتفقه في الدين، وناصحاً لكل مسلم.

ومهما قيل في وصف مزاياه وخصائصه.. فإنه سيظل نموذجاً فريداً وحيداً في تاريخ العلماء الأجلء بالمنطقة الشمالية في مالي، والغربية في النيجر.

المحور الرابع: إنتاجه العلمي؛

للشيخ الجليل «سعيد محمد سيبي» بحوثٌ ودراساتٌ في حقل العمل الدعوي والتعليمي والإنساني، ولم يأل الشيخ جهداً في تقديم الصورة الصحيحة للإسلام بجميع جوانبها العلمية والعملية والفكرية والثقافية، والمطلع على مدوناته ومكتبته الغنية الزاخرة يرى ذلك كجلاء الشمس في رابعة النهار.

ومن أهم إنتاجه العلمي والفكري الذي تيسر الاطلاع عليه^(٧):

- نبذة بسيرة عن الدعوة الإسلامية وعن التعليم الإسلامي في بلادنا جمهورية مالي عموماً، وفي المنطقة الشرقية منها خصوصاً.

- نبذة بسيرة عن حياة أسكيا محمد الكبير- رحمه الله - ١٩٦٩/٨/٣٠م.

(٥) محمد معاذ ميغا، وسعيد علي ميغا، شخصان سابقان.

(٦) محمد معاذ ميغا، وسعيد علي ميغا، شخصان سابقان.

(٧) اطلعت الباحثة على هذه المؤلفات كلها وغيرها في مكتبة الشيخ في مدينة أنسونغو، ولاية غاو، وتوجد جلها مع الباحثة حالياً.

كان من دعاة جمعية الدعوة الإسلامية العالمية بيمافو وساحل العاج، ارتبط بها منذ أن كان في نيامي، وكانت الجمعية تقدّم رسائل شكر على الجهود الجبارة التي يقومون بها، وتعتبر هذه الرسائل شهادة على ذلك^(٨). ولم ينفك عن الدعوة في حلّه وارتحاله، فجال وصال في مدينة غاو، وما جاورها، وبخاصة أنسونغو، وبعض الأقاليم في مالي، كمبتي وسيغو، والعاصمة بامافو التي تردد إليها بشكل مستمر، بالإضافة إلى مشاركاته الفعالة في الدورات التكوينية والملتقيات داخل مالي وخارجها، كدورة ليبيا مثلاً^(٩).

وكان له علاقات مع كثير من الجمعيات العربية الإسلامية، مثل لجنة مسلمي إفريقيا وهيئة الإغاثة الإسلامية العالمية والندوة العالمية للشباب الإسلامي، وكان يشرف على مدرسي اللغة العربية والثقافة الإسلامية بمدينة «غاو» والتابعين لجمعية الدعوة الإسلامية بيمافو في مالي وساحل العاج، ويجلب لمدينة غاو عاومة، ولأنسونغو بخاصة، الأضاحي والإفطارات والخيرات، وكان واسطة بين المؤسسات الإسلامية ومنطقة غاو، ولديه في هذا المجال تقارير ضخمة كان يكتبها في كل جولة وفرة^(١٠).

وله مهارة في اللغة العربية، يتكلم بلغة عربية فصيحةً جداً؛ بالرغم من أنه لم يدرس في دولة عربية قط، ما عدا الدورات التي تلقاها في بعض الدول العربية والمؤتمرات التي شارك فيها، وكتابته خالية من الأخطاء اللغوية، وله ثقافة عالية في النحو والصرف والبلاغة^(١١)، وقد أجريت مسابقة لغوية بين العلماء من

(١) عبدالفتاح سعيد سيبي، شخصية سابقة، الشريط نفسه، يوجد نموذج من الصور التي تدل على مشاركته في المؤتمرات.

(٢) عبدالفتاح سعيد سيبي، شخصية سابقة، والشريط نفسه، ومن كبار شخصيات «أنسونغو» السابقة ذكرهم، وتوجد صور له في جلب النفقة لأهل منطقة غاو - أنسونغو.

(٣) الشخصية نفسها.

(٤) مقابلة شخصية: الشيخ عبد الكريم إسحاق، إمام وخطيب بمسجد ساموري بأكرافا، بتاريخ: ٢٠١٠/٣/٢٢م.

- لمحة تاريخية عن مالي قديماً وحديثاً.

- المولد النبوي الشريف.

- أعلام الثقافة الإسلامية والعربية في ولاية غاو ومالي.

- أحكام المرأة المسلمة في الدين الإسلامي ما لها

على الرجال وما عليها.

- أثر الإسلام على النظام الاجتماعي والسياسي

والاقتصادي - ١٨/٧/١٩٩٣م.

- تربية الأولاد والزوجة والخدم على الدين.. والإنفاق

عليهم.

- مكانة المرأة المسلمة في الإسلام.

- الزيارة الشرعية للقبور.

- دور الداعية في تعميق الوعي الإسلامي بين الشباب

- ١٠/٥/٢٠١١م.

- حفلة الزار وخطرهما على المسلمين في دينهم ودنياهم.

- حكم الحجاب في الإسلام - ٦/٨/١٩٩٨م.

- التوحيد بأنواعه الثلاثة - ٣٠/٧/١٩٩١م.

- السنّة والابتداع - ١/٨/١٩٩٨م.

- حكم الحامل والمرضع في المذاهب الأربعة.

- تعظيم حرّمات المسلمين وبيان تقويمهم والشفقة

عليهم - ٢/١٠/١٩٨٦م.

- التعاون بين المسلمين.

- غدامس وغاو عبر التاريخ: قدّمه الشيخ إلى زميل له في

إحدى الدول العربية. ولم يرجع إلى الشيخ حتى فارق الحياة، ولا

تعرف عاقبته، وقد اطّلت الباحثة على عنوان المخطوط فقط.

هذا، بالإضافة إلى الخطب الكثيرة في مناسبات

مختلفة، وخير دليل على ذلك تقاريره التي كان يكتبها في

كلّ فترة للجمعية المعنية.

ومما يؤكّد كتابته للتقارير ما كتبه الشيخ لمكتب جمعية

الدعوة الليبية في مالي وساحل العاج، حيث قال: «شاركت

في اجتماع كان بمستشفى مدينة «أنسونغو»، بدعوة موجهة

إليّ من أمير مدينة «أنسونغو»، وكان موضوع الاجتماع:

تنظيم النسل وتحديده، أو ما يسمّى بالتخطيط العائلي...»

فنظّم الشيخ محاضرة إسلامية، حضرها أعيان الناس من

المدينة والشخصيات البارزة والمسؤولون، بعنوان: (رأي

الدين في تنظيم النسل وتحديده) بتاريخ: ١٥/٣/٢٠٠٧م.

وصاياه وأقواله الأخيرة:

كان الشيخ في آخر حياته قد أتعبه المرض كثيراً

بالرغم من أنه لم يكن يعاني مرضاً مزمنياً معيئاً، ربما

لكثرة انتقالاته وانشغالاته، أو لمرض الشيخوخة، وما

زال الشيخ في ذلك إلى أنّ اشتد عليه المرض صباح

الأربعاء ٢٩/٣/٢٠٠٨م، بمستشفى مدينة «أنسونغو»، فنقل

إلى مستشفى الإقليم (غاو)، فأشار الأطباء بالذهاب به

إلى المستشفى الكبير (ponge) بالعاصمة (ياماكو)،

فتضى بها قرابة شهر، ثم انتقل إلى جوار ربّه يوم الثلاثاء

١٩/٤/٢٠٠٨م، الواحدة نهاراً، ودُفن بعد العصر في مقبرة

حارة (مانيانبغو)^(١).

لم تفارق لسان المجاهد الكبير الدعوة إلى الله تعالى،

حتى في لحظاته الأخيرة: حيث استطاع أن يكتب وصيته

بيده وهو على فراش الوفاة، بعنوان: (وصية سعيد سيسي

لأهل بيته وأقاربه وأحبابه)، حيث قال: «بسم الله الرحمن

الرحيم، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين وإمام

المتقين، وبعد: هذه وصية الشيخ سعيد محمد سيسي

لأهل بيته وأقاربه وأحبابه: أن يصبروا ويسلموا الأمر لله

تعالى، وأن يتواصوا بالحق، ويتواصوا بالصبر، ويطلب من

الله تعالى، ثمّ منهم أن يلتزموا بالإسلام الصحيح الذي لا

يقبل الله من عباده سواه»^(٢).

ومما وصّى أهل بيته به (الوصية الخاصة): الاتحاد

والاتفاق فيما بينهم، والرجوع إلى الله في الأمور كلها^(٣)،

وقد وصّى أهل بيته بالمحافظة على الكتب في مكتبته،

والعناية بها، وعدم محاولة بناء قبره بما يميزه عن قبور

الآخرين، وذلك قبل سقوطه على جنبه في مرض الوفاة ■

(١) مقابلة شخصية: خديجة سعيد سيسي وعبد الفتاح سعيد سيسي، شخصيتان سابقتان، ١٢/٣/٢٠٠٩. وقد قال به كثير من طلاب الشيخ.

(٢) المقابلة الشخصية نفسها والتاريخ نفسه، وكذلك مع عبد الله الحسن توري - شخصية سابقة.

(٣) المقابلة نفسها.



المنتدى الإسلامي يجري حملة القلوب الصغيرة 17 في مصر

إلى المستشفى الجامعي، بمدينة الزقازيق في محافظة الشرقية، قبل بدء العمليات بيومين، لإجراء فحوصاتٍ طبيةٍ على ٧٠ طفلاً وطفلة، وامتدت الفحوصات حتى رابع أيام الحملة.

وبعد طول انتظارٍ وترقّبٍ أمام غرف العمليات؛ استبشرت أسر الأطفال على مدار أيام الحملة بنجاح عمليات حملة القلوب الصغيرة، وكان الفريق الطبيّ في سباقٍ مع الزمن لإجرائها، والتي كان من بينها ٢٤ عملية قلب مفتوح، و ٢٧ عملية قسطرة.

زيارات سنوية لحملة القلوب الصغيرة في مصر:
وبفضلٍ من الله ومُنَّته؛ تمّ توقيع مذكرة تفاهم بين المنتدى إيد وجامعة الزقازيق لإقامة برنامج جراحة وقسطرة قلب أطفال، يتمّ بموجبه القيام بزيارات سنوية لحملة القلوب الصغيرة لمصر، تتراوح بين ١٥ إلى ٢٠ زيارة

مساهمةً في أداء رسالتها ودورها في تخفيف الآلام عن مرضى القلب، من صغار السنّ، انطلقت حملة القلوب الصغيرة ١٧ لجراحة وقسطرة قلب الأطفال هذه المرة من مصر وتحديدًا في محافظة الشرقية، لينجح الفريق الطبيّ للمنتدى الإسلاميّ في إجراء ٥١ عملية قلب مفتوح وقسطرة، في الفترة (١٠-١٧) من شهر ديسمبر ٢٠١٦م، برعاية شركة أبو داود التجارية.

مباشرة أعمال الحملة:

وصلت المجموعة الأولى من الفريق الطبيّ



**استمراراً للعطاء.. المنتدى
الإسلامي يُجري 51 عملية
قلب مفتوح وقسطرة في
مصر، ويوقع مذكرة تفاهم
لتنفيذ أكثر من 15 حملة
سنوياً**

حصل فريق المنتدى الطبيّ والأطباء المصريين والقائمين على الحملة على شهادات تكريم؛ تقديراً لجهودهم في إنجازها.

شهد الحفل أكثر من ١٠٠ شخصية بارزة، من بينهم شخصيات رسمية، في مقدمتها الشيخ خالد الصقير مساعد الأمين العام للشؤون التنفيذية بالمنتدى الإسلامي، والشيخ حسن فضلي مدير المشاريع الخيرية بشركة أبو داود، والأستاذ أحمد الجمال مدير المنتدى الإسلامي بمصر، والدكتور عاطف البحراوي عميد كلية طب الزقازيق، ورئيس مجلس إدارة مستشفيات الجامعة ■

لمستشفى القلب والصدر، وذلك خلال تكريم رئيس جامعة الزقازيق الدكتور خالد عبد الباري للفريق الطبيّ للمنتدى.

**تغطيات إعلامية واسعة لحملة القلوب
الصغيرة بمصر:**

وقد صاحَبَ حملة القلوب الصغيرة ١٧ تغطيات إعلامية واسعة، من قنواتٍ وصحف، ومواقع إنترنت رسمية وغير رسمية، كان من بينها تقرير التلفزيون المصريّ والقناة الرابعة، الذي وصف عدد العمليات التي تُجرى يومياً بأنها: «غير مسبوق». وقد عقدت الحملة مؤتمراً صحافياً في يومها الثالث، للإفصاح عن عدد العمليات التي أُجريت للأطفال، وعدد العمليات المتوقعة حتى انتهاء الحملة، وتوجّه الدكتور جميل العطا- استشاري أمراض قلب الأطفال بمستشفى الملك فيصل- بالشكر للفريق الطبيّ المصريّ على تعاونونه الكبير لإنجاح الحملة.

وفي ختام الحملة:

أقامت جامعة الزقازيق احتفالاً لما حقّته الحملة من إنجازات، حيث قدّم المركز الإعلاميّ للمنتدى في الحفل عرضين متنوعين، يبرزان جهود حملة القلوب الصغيرة بمصر، كما



غامبيا في مفترق الطريق: ما بين تشبّث يحيى جامع وتدخل إيكواس

أ. عبد الحكيم نجم الدين

كاتب نيجيري مهتم بالشؤون الإفريقية



الإفريقي المبتسم» (لقب غامبيا) جغرافياً وطوبوغرافياً. في تصريحه مؤخراً؛ ذكر مسؤول في المجموعة الاقتصادية لدول غرب إفريقيا (إيكواس)؛ أنه بالرغم من أن المنظمة ترغب في حل أزمة الانتخابات الغامبية

يقول مثل ماندينكي: «لا تقسّ اليوم قرون الأبقار التي ستذبحها غداً»، أي يجب ألا نعوّل على الأشياء قبل حدوثها؛ لكون الكلمة الأخيرة لم تنطق بعد، وهذا بالفعل ما يحدث في «الساحل

وتتأجها سلمياً؛ فهناك (قوات) في حالة تأهب، وسيتّم نشرها (لاستعادة رغبة الشعب)، أما الرئيس النيجيري محمد بخاري فهو يحذّر الرئيس الغامبي المنتهية ولايته (يحيى جامع)؛ مما قد يواجهه إذا أصرّ على البقاء في الحكم بعد انتهاء فترته في ١٨ يناير ٢٠١٧م.

غامبيا والسعي نحو الاستقلال:

تعدّ غامبيا ضمن المناطق التابعة لإمبراطوريات مالي القديمة، والتي كتب ابن بطوطة عن شعوبها: «فمن أفعالهم الحسنة قلة الظلم، فهم أبعد الناس عنه، وسلطانهم لا يسمح أحداً في شيء منه. وشمول الأمن في بلادهم...»^(١). لم تكن غامبيا- البلد المسلم الصغير في غرب إفريقيا- مستعمرة بريطانية إلا في عام ١٨٢١م، حيث شملت المستعمرة فقط: العاصمة «بانورست»- التي تمّ تغيير اسمها إلى «بانجول» في أبريل ١٩٧٣م-، وعددًا قليلاً من المستوطنات المنتشرة على طول نهر غامبيا.

وإبان فترات «التدافع من أجل إفريقيا» في عقد ١٨٨٠م؛ سعت الحكومة البريطانية إلى منع سيطرة فرنسا على وادي غامبيا، وتمّ التوصل إلى اتفاقٍ بينهما في أغسطس ١٨٨٩م، أسفر عن الحدود المعروفة اليوم، وعدد سكانها اليوم يقرب من مليونين، أكثر من ٩٥٪ منهم مسلمون^(٢).

تشير الكتابات التي تناولت تاريخ غامبيا إلى: أنّ «إدوارد فرنسيس سمال» من الرواد الذين وضعوا النواة الأولى لخريطة الطريق نحو استقلال غامبيا عن بريطانيا^(٣). وحتى أواخر عقد ١٩٥٠م؛ كان يُنظر إلى غامبيا

(١) رحلة ابن بطوطة، ص ٣٧٦.

(٢) Hughes and D. Perfect، A Political History of The Gambia، 1816-1994 (Rochester، NY: University of Rochester، Press، 2006)، 6 - 40.

(٣) فيديو على موقع يوتيوب عن حياة «إدوارد فرنسيس سمال»، تاريخ المشاهدة: ٢٠-١٢-٢٠١٦م.
<https://www.youtube.com/watch?v=gpFV1-z5EPM>

بوصفها أصغر من أن تطالب بالاستقلال.

وفي بداية الستينيات؛ جاءت الحكومة البريطانية بفكرة دمجها مع السنغال، ورفضت الحكومة الغامبية عام ١٩٦٤م مساعي خبراء الأمم المتحدة لتأسيس اتحاد السنغامبيا، وواصلت غامبيا جهودها للاستقلال، حتى نجحت في ١٨ فبراير ١٩٦٥م.

داودا جاوارا.. الرئيس الأول لدولة غامبيا:

فاز «حزب الشعب التقدمي» في الانتخابات العامّة ١٩٦٢م، وأصبح داودا كايابا جاوارا رئيس الوزراء في غامبيا، لبدأ بعد ذلك إجراءات الاستقلال عن بريطانيا بعد ثلاث سنوات.

وعند الاستقلال كانت غامبيا داخل الكومنولث، فتولى داودا جاوارا رئاسة الحكومة، في حين ظلت الملكة إليزابيث الثانية في منصب رئاسة الدولة، وفي أعقاب استفتاء أبريل ١٩٧٠م أصبحت غامبيا دولة جمهورية، ليصبح جاوارا أول رئيس للبلاد.

أصبحت غامبيا واحدة من الدول الإفريقية القليلة التي تُجرى فيها انتخابات برلمانية ناجحة، فاز حزب جاوارا الحاكم «حزب الشعب التقدمي» في انتخابات متتالية في: ١٩٦٦م، ١٩٧٢م، ١٩٧٧م، ١٩٨٢م، ١٩٨٧م، ١٩٩٢م، في أوضاع وصفها المراقبون بالنزاهة تماماً منذ الاستقلال.

نجح جاوارا من محاولة انقلاب في ١٩٨١م بمساعدة من السنغال المجاورة، مما أوجد الكونغرس التي جمعت بين السنغال وغامبيا (من ١٩٨١م إلى ١٩٨٩م)، وأُطلق عليها: «السنغامبيا»، غير أنّ عملية الانقلاب على حكومة جاوارا نجحت في يوليو ١٩٩٤م بقيادة الملازم الشاب يحيى جامع، ومنح جاوارا وعائلته حق اللجوء للعيش في السنغال، ثمّ في لندن.

إنّ تقييم فترات حكم الرئيس جاوارا دائماً ما يُقابل بالتناقضات؛ لأنه بالرغم من الإخفاقات الاقتصادية التي ساهمت في سقوطه السياسي؛ فإنه شخصية تتسم بالحكمة والخبرة والشعبية، لكن حكومته متهمه بالقبليّة والفساد.

حاول جاوارا، لسنوات، استعادة «الحكم الديمقراطي»، لكنه لم يلقَ اهتماماً كبيراً لقضيته، وبعد

إخفاق تحركاته استسلم للواقع، وكفَّ عن النضال.

في أواخر عام ٢٠٠١م؛ قام الرئيس جامع بمنح جاوارا العفو الوطني، فعاد لغامبيا في ٢٠٠٢م، ومنع جاوارا من المشاركة السياسية، لكنه نشط في الشؤون الإقليمية من خلال عمله مع المجموعة الاقتصادية لدول غرب إفريقيا (ECOWAS).

فترة يحيى جامع:

منذ قيادته للانقلاب، الذي أنهى حكم جاوارا في ١٩٩٤م، استولى يحيى جامع على سلطة البلاد بمزيج من شدة، وتصرفات يلبس بها ادعاءات دينية، كما في محاولته الاستمرار في الحكم برغم خسارته في الانتخابات الرئاسية الأخيرة (٢٠١٦م)، وعلى حدِّ قوله مؤخراً: «لا يهم ما يقوله الناس عني... أنا لا أستمع إلى أي شخص: لأنني أعرف ما هو مهم»، لأنَّ الحكم- وفق قوله-: «يني وبين الله عز وجل»^(١).

لقي الانقلاب الذي قام به آنذاك دعماً شعبياً، خصوصاً بين الشباب، حيث رحّبت به أحزاب المعارضة الرئيسية، وأعلن جامع أنَّ الجيش سيبقى في السلطة أربع سنوات؛ قبل أن يسلم السلطة إلى الحكومة المدنية، قوبل إعلان «جامع» بانتقادات واسعة، وأوصت اللجنة الاستشارية الوطنية (NCC)- التي شكّلها جامع في أعقاب انقلاب مضادٍّ غير ناجح في نوفمبر ١٩٩٤م- في تقريرها في شهر يناير ١٩٩٥م: أن تكون مدة الفترة الانتقالية عامين.

وبعد نجاحه من محاولة انقلاب، بقيادة اثنين من قادة مجلس حكم القوات المسلحة المؤقتة (AFPRC)، وهما: «سبا سبالي» و «ساديو حيدارا»، في يناير ١٩٩٥م، قبل جامع توصية اللجنة الاستشارية الوطنية، وعيّن لجنة لوضع دستور جديد.

وعلى الرغم من أن حكومة جامع رفضت بعض التوصيات الرئيسية التي جاءت في الدستور الجديد؛

فإنه أقرَّ به في النهاية عن طريق استفتاء في أغسطس ١٩٩٦م، وعُقدت الانتخابات الرئاسية في الشهر التالي (سبتمبر ١٩٩٦م)، وقبل هذه الانتخابات بفترة قصيرة؛ أعلن جامع رفع الحظر عن الأحزاب السياسية، على الرغم من استمرارية فرض الحظر على الأحزاب السياسية الموجودة قبل الانقلاب؛ باستثناء حزب PDOIS.

وبعد أن استقال جامع؛ أعلن أنه سيرشّح نفسه كمرشّح حزب جديد «التحالف من أجل الوطن وإعادة التوجيه والبناء» (APRC)، ساعد الانقسام في صفوف المعارضة، والحملات الانتخابية الفعّالة لمؤسسة الحكومة الموالية، وسيطرته على الإعلام الوطني والآلة المحلية، يحيى جامع في تأمين الفوز بـ ٥٦% من الأصوات؛ مقابل ٣٦% للمعارضين.

كما أن هناك نتيجة مماثلة في انتخابات الجمعية الوطنية في يناير ١٩٩٧م، مع فوز (APRC) بـ ٣٣؛ من أصل ٤٥ مقعداً، وفوز (UDP) بسبعة مقاعد؛ ليصبح الحزب المعارض الرئيسي في البرلمان.

تمَّ انتخاب جامع رئيساً لغامبيا في ١٩٩٦م، ومنذ ذلك الحين فاز بثلاث انتخابات رئاسية لاحقة؛ في: ٢٠٠١م، ٢٠٠٦م، ٢٠١١م، أما انتخابات ٢٠١٦م؛ فقد هزمه فيها آدم بارو، غير أن جامع تراجع بعد اعترافه بالنتائج ووصفه لها بالنزاهة، وهي خطوة يصفها القادة الأفارقة والمسؤولون أنها قد تقوّض الاستقرار والانتقال السلمي للسلطة.

وخلال فترة حكمه؛ نفذ جامع العديد من الإصلاحات التنموية والخاصة بالبنية التحتية، لكنه أيضاً أتى بسياسات توصف من قبل الإعلام بـ«مثيرة للجدل»، منها على سبيل المثال:

١ - في ٢٠١١ صرّح بأنه سيحكم غامبيا لـ«مليار سنة»، حيث قال: «سنأنجز برامجي إلى الشعب الغامبي، وإذا كان عليّ حكم هذا البلد لمليار سنة فسأفعل؛ إن شاء الله تعالى»^(٢).

(١) Yahya Jammeh: devout and erratic leader of Gambia، (تاريخ التصفح: 2016/24/12).
https://www.yahoo.com/news/yahya-jammeh-devout-erratic-leader-gambia-031448965.html

(٢) Gambia's Yahya Jammeh ready for 'billion-year', year, تاريخ التصفح 2016-12-14

٢ - ومن أجل الاستقلال الذاتي، والقطع التام للعلاقات الاستعمارية البريطانية، قرّر جامع في ٢٠١٣م سحب غامبيا من رابطة الشعوب البريطانية (الكومنولث).^(١)

الانتخابات الرئاسية في غامبيا ٢٠١٦م:

٣ - في كانون الأول من ٢٠١٥م: أعلن دولة غامبيا: جمهورية إسلامية، وذلك: تمثيلاً مع الهوية والقيم الدينية لغامبيا- وفقاً لما قال-، وما يزال يؤيد الحرية الدينية^(٢).

٤ - ادّعى جامع أنه وجد علاجاً لفيروس (الإيدز)، قائلاً: «إنه يمكن علاجه بالأعشاب الطبيعية»، لكن دعواه عرضته لانتقادات؛ لكونها تفتقر للأدلة العلمية، وخطر تشجيع السلوكيات الخطيرة بشأن معاملة المصابين بهذا المرض^(٣).

هذا، وقد تكون شعبية الرئيس يحيى جامع داخل قارة إفريقيا متباينة، ما بين من يراه زعيماً إفريقياً له أخطاؤه، وبين من يراه رئيساً يدّعي «القومية» و «الإقليمية» فقط لمصالحه الشخصية.

أما في عيون الغرب، أو من يرى بعيونهم، فإن يحيى جامع ليس إلا من حكم بلاده لعقدين من الزمن، وسأهم حكمه في تدهور حالة حقوق الإنسان في غامبيا، وتسبب بحدوث حالات حرجة، مثل قتل الطلاب المحتجين والصحافيين، وإعدام الـ «مثليين جنسياً»، بالإضافة إلى الاضطرابات الداخلية والقلق الدولي، وتضييق الخناق على المعارضة، وقمع الأصوات.

لكن الحقيقة- برغم احتمال صحّة بعض تلك الانتقادات- أنّ الجهود الكبيرة التي بذلها جامع للتوجّه إلى

هذا، وقد تكون شعبية الرئيس يحيى جامع داخل قارة إفريقيا متباينة، ما بين من يراه زعيماً إفريقياً له أخطاؤه، وبين من يراه رئيساً يدّعي «القومية» و «الإقليمية» فقط لمصالحه الشخصية.

أما في عيون الغرب، أو من يرى بعيونهم، فإن يحيى جامع ليس إلا من حكم بلاده لعقدين من الزمن، وسأهم حكمه في تدهور حالة حقوق الإنسان في غامبيا، وتسبب بحدوث حالات حرجة، مثل قتل الطلاب المحتجين والصحافيين، وإعدام الـ «مثليين جنسياً»، بالإضافة إلى الاضطرابات الداخلية والقلق الدولي، وتضييق الخناق على المعارضة، وقمع الأصوات.

لكن الحقيقة- برغم احتمال صحّة بعض تلك الانتقادات- أنّ الجهود الكبيرة التي بذلها جامع للتوجّه إلى

و بالرغم من خطابه واتصاله بالفائز؛ فقد تكهن

(٤) 2/History Compass 6 (2008): 426 - 438, Journal.0542.2008.00513-j.1478/10.1111 Compilation © 2008 Blackwell Publishing Ltd

(٥) قراءات إفريقية: انتخابات غامبيا الرئاسية: لماذا خسر الرئيس يحيى جامع؟ https://goo.gl/3LfB2D

(٦) المصدر السابق.

١ - ومن أجل الاستقلال الذاتي، والقطع التام للعلاقات الاستعمارية البريطانية، قرّر جامع في ٢٠١٣م سحب غامبيا من رابطة الشعوب البريطانية (الكومنولث).^(١)

٢ - في كانون الأول من ٢٠١٥م: أعلن دولة غامبيا: جمهورية إسلامية، وذلك: تمثيلاً مع الهوية والقيم الدينية لغامبيا- وفقاً لما قال-، وما يزال يؤيد الحرية الدينية^(٢).

٣ - ادّعى جامع أنه وجد علاجاً لفيروس (الإيدز)، قائلاً: «إنه يمكن علاجه بالأعشاب الطبيعية»، لكن دعواه عرضته لانتقادات؛ لكونها تفتقر للأدلة العلمية، وخطر تشجيع السلوكيات الخطيرة بشأن معاملة المصابين بهذا المرض^(٣).

هذا، وقد تكون شعبية الرئيس يحيى جامع داخل قارة إفريقيا متباينة، ما بين من يراه زعيماً إفريقياً له أخطاؤه، وبين من يراه رئيساً يدّعي «القومية» و «الإقليمية» فقط لمصالحه الشخصية.

أما في عيون الغرب، أو من يرى بعيونهم، فإن يحيى جامع ليس إلا من حكم بلاده لعقدين من الزمن، وسأهم حكمه في تدهور حالة حقوق الإنسان في غامبيا، وتسبب بحدوث حالات حرجة، مثل قتل الطلاب المحتجين والصحافيين، وإعدام الـ «مثليين جنسياً»، بالإضافة إلى الاضطرابات الداخلية والقلق الدولي، وتضييق الخناق على المعارضة، وقمع الأصوات.

لكن الحقيقة- برغم احتمال صحّة بعض تلك الانتقادات- أنّ الجهود الكبيرة التي بذلها جامع للتوجّه إلى

http://www.bbc.com/news/world-africa-16148458

(١) Gambia Withdraws from Commonwealth - تاريخ التصفح 2016-12-15
http://www.voanews.com/a/gambia-withdraws-from-the-commonwealth/1761959.html

(٢) الجزيرة: رئيس غامبيا يعلن بلاده جمهورية إسلامية، تاريخ التصفح: ٢٠١٦-١٢-١٢م
https://goo.gl/X7Zc16

(٣) In Gambia, AIDS cure or false hope? تاريخ التصفح 2016-12-11
http://www.physics.smu.edu/pseudo/AIDSGambia.html

متابعون لشؤون غامبيا أنّ خطوته تلك ليست جدية، وأنها لا تُحسب إلا بعد تسليمه السلطة بعد انتهاء ولايته في يناير، وبالفعل.. تراجع جامع بعد أسبوع من صدور النتائج، وبعد اعترافه بها، حتى إن كان البعض يرجعون السبب إلى خطورة تصريحات المعارضة بعد فوزهم وخطواتهم، ليدخل البلاد في نفق غامض، حيث قال: «بعد تحقيق شامل، قد قرّرت رفض نتائج الانتخابات الأخيرة، فقد شكوت من خروقات خطيرة وغير مقبولة، والتي قيل إنها حدثت خلال العملية الانتخابية»، مطالباً بانتخابات جديدة بقيادة مسؤولين «أقياً لله»^(١).

ولكن، من ذلك الشخص الذي هزم الحاج والزعيم الغامبي يحيى جامع، بعد عقود من الفوز الاضطراري والتشبّث بالحكم الرئاسي؟

آدم بارو.. الرئيس الغامبي المنتخب^(٢)؛

لقد ساهم في فوز آدم بارو كون الاقتصاد الغامبي في السنوات الثلاث الماضية يعاني عدة مشكلات، مما يصعب الحياة على الكثيرين من الغامبيين، وتسبب بمغادرة الآلاف عبر ركوب البحر الأبيض المتوسط للبحث عن حياة أفضل في أوروبا، إضافة إلى الملاحظات من قبل حكومة جامع لكل من تسوّل له نفسه لمعارضة خطواته وطبيعة حكمه.

أزمة ما بعد الانتخابات وتدخل إيكواس؛

لقد ساهم في فوز آدم بارو كون الاقتصاد الغامبي في السنوات الثلاث الماضية يعاني عدة مشكلات، مما يصعب الحياة على الكثيرين من الغامبيين، وتسبب بمغادرة الآلاف عبر ركوب البحر الأبيض المتوسط للبحث عن حياة أفضل في أوروبا، إضافة إلى الملاحظات من قبل حكومة جامع لكل من تسوّل له نفسه لمعارضة خطواته وطبيعة حكمه.

وُلد مرشح المعارضة في ١٩٦٥م، في قرية مانكمانغ كوند، تقع في أقصى غرب غامبيا، وبمنحة دراسية التحق بمعهد إسلامي، ثم عمل في شركة الحاج موسى وأبنائه، قبل أن يتولّى منصب مدير المبيعات، وفي ١٩٩٦م انضم إلى «حزب الاتحاد الديمقراطي» (UDP)، وهذا يعني أنه انخرط في السلك السياسي، وهو في سنّ ٣١ من عمره.

في بداية ٢٠٠٠م؛ سافر إلى بريطانيا للدراسة في مجال إدارة العقارات، ولتتمكّن من تغطية رسوم دراسته عمل حارس أمن، وعاد إلى غامبيا بعد حيازته الشهادة،

إن تغيير جامع لموقفه حيال نتائج الانتخابات أثار انتقادات من الاتحاد الإفريقي والولايات المتحدة والأمم المتحدة، والمجموعة الاقتصادية لدول غرب إفريقيا (إيكواس)، التي شكّلت وفداً إلى غامبيا برئاسة رئيسة ليبيريا إيلين جونسون سيرليف، يضمّ: (رئيس نيجيريا محمد بخاري، ورئيس غانا المنتهية ولايته جون ماهاما، ورئيس سيراليون إيرنيسست باي كوروما)، في محاولة لإقناع جامع بأن يتخلّى عن السلطة^(٣)، إلا أنها كانت محاولة فاشلة^(٤).

أما جيش غامبيا؛ فهم يغيرون موقفهم تبعاً لموقع جامع- برغم الإدانات الدولية-، فقائد الجيش الجنرال «بادجي» هنّأ «آدم بارو» وقدم له ولاه، ثم تراجع أيضاً بعدما غير «جامع» موقفه تجاه الانتخابات، وسرعان ما أمر باستيلاء القوات المسلحة على مقرّ اللجنة الانتخابية.

(٣) قادة دول غرب إفريقيا يصلون إلى غامبيا لإقناع الرئيس "جامع" بالتخلي، تاريخ الزيارة ١٩-١٢-٢٠١٦م، الرابط: <http://afrikaar.com/16176/16176>

(٤) رئيسة ليبيريا: لم نصل إلى اتفاق لإنهاء أزمة غامبيا، تاريخ الزيارة: ١٩-١٢-٢٠١٦م، الرابط: <http://ara.reuters.com/article/worldNews/idARAKBN1422MG>

(١) أفريقيا عربي: رئيس غامبيا «جامع» يعلن رفضه لنتائج الانتخابات الرئاسية الأخيرة.

<http://afrikaar.com/16055/>

(٢) قراءات إفريقية: غامبيا: من هو آدم بارو الذي أطاح بيحيى جامع بعد ٢٢ عاماً في الحكم؟ <https://goo.gl/JgQK2i>

رؤساء الدول والحكومات لـ(إيكواس)، التي أُقيمت في أبوجا، أن كل قادة المجموعة الاقتصادية لدول غرب إفريقيا، اتفقوا جميعاً على أنهم لن يسمحوا لـ«جامع» بالبقاء في الحكم، كما أنهم اتخذوا قراراً بحضور تنصيب الرئيس المنتخب آدم بارو في ١٨ يناير ٢٠١٧م؛ طبقاً لدستور غامبيا.

وجاء في البيان:

أن المجموعة «تدعو الرئيس جامع إلى احترام نتائج التصويت، والكف عن أي عمل من شأنه أن يعرض للخطر عملية الانتقال السلمي للسلطة إلى الرئيس المنتخب»^(٤). أما عمّن سينفذ العمليات في حال عدم تراجعها، أو تركّ السلطة في الوقت المحدد؟ فإنّ الجواب في تصريح رئيس لجنة المجموعة الاقتصادية لدول غرب إفريقيا، مارسيل آلان دي سوزا، إذ قال: إنّ السنغال «ستراس العمليات في حال تقرّر تدخل عسكري في غامبيا»، مؤكداً أنّ المجموعة مستعدة «لاستخدام القوة بغامبيا إذا رفض يحيى جامع التّحّي عن السلطة في ١٩ يناير». وإذا كانت السنغال لم تؤكد أو تنفي هذا التصريح الأخير لـ«مارسيل آلان»، فإنّ ذلك يفيد باستعداد وتأهب قوات السنغال للقيام بالعملية في حال لم يبق سوى الحلّ العسكري.. ولكن السؤال هو: هل ستقاتل القوات الغامبية في صفّ زعيمهم يحيى جامع، أو أنهم سيترجعون وينضمون لصفوف الشعب الغامبي لتقادي خسائر محتملة؟ وهل سيتّحّي جامع قبل الموعد المحدد في يناير حفاظاً على ما تبقى من أنفاسه، أو أنّ له خططاً غير معلنة لمساعدته وفق ما تتداوله بعض المصادر الغامبية؟

■ ذلك ما ستكشف عنه الأيام القادمة

وكان المراقبون للأوضاع الغامبية يأملون أن يعيد يحيى جامع النظر في رفضه لنتائج الانتخابات، خصوصاً بعد زيارة لجنة وساطة (إيكواس) له، لكنه زاد الطين بلة، ومضى قدماً بعد أيام من الزيارة ليصرّح: بأنّ وفد (إكواس) «غير مرحب به في غامبيا»، وأنه سيدافع عن بلده وعن نفسه حتى النهاية^(١).. «لست جباناً.. لا يمكن انتهاك حقّي.. هذا هو موقعي، لا يمكن أن يحرمني من هذا النصر إلا الله القدير»، مضيفاً: «كان اجتماع إيكواس بالفعل إجراءً شكلياً، قبل أن يأتيوا... قالوا إنّ جامع يجب أن يتّحّي. لن أتّحّي»^(٢)!

بل اتهم جامع القوى الاستعمارية الغربية باستنزاف خيرات إفريقيا، وأنها هي السبب الرئيس في كلّ المشكلات التي تعيش فيها القارة، فمن يقف في وجه هذه القوى الاستعمارية، أو يحاول وقف استنزافها لخيرات القارة، تتم شيطنته، ويُعتبر غير مرغوب فيه من طرف هذه القوى^(٣). زادت حدّة التوتر، وبدأت الآراء تتناول ما قد ينتج عن الأزمة في حال إصرار جامع على مواصلة الحكم الرئاسي، وفجأة ظهر بيان للرئيس النيجيري محذراً إياه: بأنّ كلّ محاولات البقاء في الحكم، بعد انتهاء فترته في ١٨ يناير ٢٠١٧م، «ستواجه بمقاومة شرسة: لأنّ كلّ شيء تمّ إعداده لطرده من الحكم بالقوة عند الحاجة».

فما الذي تمّ إعداده؟ ومن الذي سينفذه؟

أشار بيان صدر عن القمّة الأخيرة العادية لـ٥٠ سلطة

(١) fatunetwork: Yahya Jammeh insists he will not step down. تاريخ التصفح 2016-12-22
yahya-/21/12/http://fatunetwork.net/2016-jammeh-insists-he-will-not-step-down

(٢) المصدر السابق.
fatunetwork: Yahya Jammeh insists he will not step down. تاريخ التصفح 2016-12-22
yahya-/21/12/http://fatunetwork.net/2016-jammeh-insists-he-will-not-step-down

(٣) يحيى جامع: الحل في إعادة الانتخابات، وسأدافع عن بلدي ونفسي، تاريخ التصفح: ٢٣-١٢-٢٠١٦م.
-12-2016-http://www.alakhbar.info/news/19379.html.51-16-01-21

(٤) What ECOWAS leaders agreed on Boko Haram· Gambia· Guinea-Bissau· Mali· others
تاريخ التصفح 2016-12-24م.
http://www.premiumtimesng.com/news/headlines/218340-ecowas-leaders-agreed-boko-haram-gambia-guinea-bissau-mali-others.html

Islamic Media Challenges in West Africa: Burkina Faso as an Example



Haroun Sawadogo

Researcher and Writer, Burkina Faso

Islamic Media faces great challenges in West Africa. Some such challenges are almost identical with those in many Islamic World countries, while others are considered to be solely related to this region. These specific challenges are related to internal components of the media industry as a whole: the message, the sender, the receiver and the transmitting means. Among the fatal internal challenges of Muslim media in this region, particularly in Burkina Faso, are the following: the multiplicity of religious discourse references of different Islamic movements whose methods are sometimes at odds, such as Salafism and Sufism; non-professional ways that affects the message, its impact and futuristic efficiency; the language barrier that prevents the media message from reaching segments of society, such as non-native speakers or non-speakers of the most prevalent languages; and the intelligentsia that is distant from following TV programs in local languages. In addition to these internal challenges, there are external elements unrelated to media, such as the flood of non-Islamic and misleading media outlets like the *Qadiani* and Shiites channels that are more dangerous than the secular and Christian media. The total outcome of this kind of media is an endeavor to destroy the message that has been transmitted by Islamic media with its values and principles. In this context, the lack of resources and limited financial means arises as an external challenge, as most Islamic outlets suffer from lack of resources and poor capabilities that make them unable to deliver the basics of instruments needed. Perhaps that explains the decline of Islamic media in this region on radio and TV channels. Most Islamic newspapers that were established in this region were unable to survive in the face of this scarcity of resources, although it tries to make a better come back in the era of New Media ■

African Youth and Technologies of Information and Communication: Influence on Social Structure?



Dougouna Seydou

If the nineteenth century was characterized by the industrial revolution, this century in which we live is characterized by what can be called “the technological and computer revolution.” If Africa has missed the Industrial Revolution, it should seize the opportunity of the current technological revolution to reach the rank of the developed nations. This responsibility rests primarily on young people as the key players in the future. Information and communication technologies play an important role in increasing productivity through the digital economy. They also play an important role in improving public and private services in the field of education, health, employment, and social development. This article highlights the state of use of information and communication technologies by African youth, and measures the impact of these technologies on society in the political, economic and social spheres ■

African Youth and the Question of Future: Challenges and Prospects



Dr. Haroun Bah

African society is young because youth constitutes more than 65% of the continent's population as a whole. Highlighting the reality of African youth is therefore an important exercise to infer the future perspective in the continent. With a prospective approach, This article studies the future of African youth based on the real and objective data of the moment. To this end, it highlights the major challenges facing Africa in the political, economic, security and socio-cultural fields. Then, it elucidates the aspirations of the African peoples for dignity, security, prosperity, economic and social progress. Finally, and based on the above, it attempts to foresee the prospects of African youth ■

Empowering Youth in Mali: A Reading in Public Policies and Strategies



Demba N'diaye

One of the important concerns of the public authorities in sub-Saharan Africa is to develop the skills of young people so that they become able to work and ensure dignified lives for themselves and their families. This can be explained by the growing number of young people, the emergence of political consciousness among young people, the increase of the spirit of protest and syndicalism among youth movements and associations, and international contexts such as the movements of the Arab Spring. Mali in particular is going through one of the most difficult times in its contemporary political and social history because of the political-security crisis that rocked the country in 2012, despite the fact that the central government has managed to take over the entire national territory, and relative political and social stability, the Northern Region crisis has highlighted the weakness and fragility of state institutions, which has led the country's new authorities to undertake structural reforms to prevent the repetition of this painful experience. In this context, the public authorities are increasingly aware of the importance of promoting the youth role in building peace and social and political stability. This awareness is reflected in public policies and national strategies for economic and social development. Article compares Mali's public policies and strategies to promote the youth role before and after the Northern Region crisis ■

Youth and Democratic Transition in Africa: The Cases of Senegal and Burkina Faso



Moustapha N'diaye

Despite political marginalization, African youth have always played an important role in all major political events that have in the continent. With the collapse of the Berlin Wall and the dismantling of the communist bloc, the process of democratic transition began to take hold in the African continent. This is what the American theorist Samuel Huntington called “the third wave of Democratization.” Youth is a most important social class that played a leading role in the process of democratization in Africa, and the last five years have witnessed the emergence of a new form of youth organizations that militate in favor of social justice, good governance and peaceful political alternation. They have flexible organizational structures and a big capacity for popular mobilization. In many African countries, these youth movements have achieved important political and social results. This study focuses on the role of youth movements in the process of democratic transition in the case of Senegal and Burkina Faso ■

Towards an Exploration of the Concept of Youth in Africa



Adama Bamba, Ph.D.

This paper attempts to explore the concept of youth in various African cultures: what are their perspectives on youth? What are the appropriate cultural sets in which each society places youth? In order to answer these questions, this paper adopts a socio-cultural method to explore the African views on and social concepts of youth, with five themes set as the major elements in which the concept of youth will be explored, namely: (a) age recording, (b) the age-set system, (c) the philosophical views, (d) the popular notion about youth, and (e) the modern factors that affect the views towards Youth concept. The study finds first that African societies had some of the oldest age-based classifications of population, first recorded in ancient Egypt, then spread to other cultures worldwide. Second, the age-set system, where individuals of a certain age are assigned specific social tasks, was a common practice in African societies. Here, youth represents the center of classification, and many cultural practices known as “rites of passage” go in line with this concept. Third, regarding the norms affecting the concept of youth in Africa, the African worldview known as *Ubuntu* plays a central role in forming the concept of youth. Youth is mostly seen as a set of social behavior, responsibilities and conformity to the social norms. Fourth, every African society has distinctive words, maxims and proverbs that portray best the concept of youth. Few examples are mentioned to elucidate this fact. Fifth, many factors have impacted the concept of youth in Africa in the modern era, such as colonialism, European cultural invasion and globalization. These factors have positive or negative impacts on the changing concept of youth. Finally, this paper argues that the youth concept in Africa should not be based solely on chronological and legal criteria, and that attempts should be made to reconcile traditional and modern views on the youth concept ■

Nature and Mechanisms of African Wars in the Globalization Age

Souaâd Boussenia

Ph.D. Candidate, Political Science, Department of International Studies, Faculty of Political Science and International Relations, University of Algiers 3, Algeria

Many theoretical theses agree on the changing nature of war and the emergence of new forms of organized violence during the last two decades of the twentieth century, especially in Africa. The most prominent feature of this change is the decline in interstate wars from a quantitative perspective compared to the increase of internal wars that take place within states. The nature and characteristics of contemporary warfare have been the focus of academic debates in the field of war and peace studies in recent years, particularly those relating qualitative distinctions between old and new wars. Despite differences in details, supporters of the new-war thesis agree in general that it is qualitatively and quantitatively different from previous forms of interstate wars, and thus requires a new conceptualization that surpasses traditional conceptions of war that are profoundly transformed in the global era. A survey of the most important literature of new wars shows that Mary Kaldor's work, *New and Old Wars: Organized Violence in a Global Era*, presents a more inclusive paradigm of new wars, which varies, according to her, from the preceding old wars on many different levels. Therefore, this study aims to demonstrate how conventional approaches of war have proved increasingly inadequate to capture the changing nature of African wars in the global age. The study highlights the impact of the collapse of the Cold War system on the spread of anarchy and production of new types of organized violence; determines the characteristics of African wars in the global era; and finally identifies transnational processes through which domestic wars in Africa are internationalized ■

Social and commercial relations between Fez and West Africa 1850-1920-



Talouzte mohamed

Researcher in Modern History, Morocco

The Moroccan city of Fez had trade relations with all Moroccan cities and countryside. During its flourishing times since 1850, its commercial influence was extended outside the country to North Africa, then Europe and West Africa. Its handcrafts played the main role in this blossoming trade, as it provided commodities for exchange that met the needs of customers in all places. Fez exported its commodities through trade caravans to Algiers, Tripoli, Egypt, Sudan, and West Africa and hence became prosperous. Its trade impact was affected by its spiritual and political influences in Morocco. Its commercial expansion outside Morocco was materialized as a result of its active social relations and trade exchanges. These commercial relations changed dramatically, starting with Fez' traditional regions of trade influence in North and West Africa, due to changes in these places and colonialism: the invasion and occupation of Algeria in 1830, then Western Sudan and West Africa, followed by and the declaration of Morocco as a French protectorate in 1912. These relations stopped in 1920, after the First World War ■

Journeys of pilgrimage and spreading Arabic and Islamic education in West Africa: The Case of Nigeria



Aminu Yahuza

Arabic Language Department, Faculty of Arts, Kaduna State University, Nigeria

Journeys of pilgrimage or Hajj to the Holy Lands began immediately after the spread of Islam in sub-Saharan Africa in the early second century of the Islamic *Hijri* calendar. This early commencement of pilgrimage shows the strong sincerity and unshakable faith of African Muslims which helped them defy distance, famine, plague, horrors of the road, vagaries of the day and night, and the hope that the journey would result in gaining prestige and honour. The journey was a way to getting close to the religion and the pursuit of knowledge, and an opportunity to meet members of the wider Islamic *Umma* (or nation) and identify with them. Apart from trade competition and affinity with other tribes on the way to Hajj, these journeys are considered the major factors of spreading Islamic religion and its education. This research attempts to examine the role of pilgrimage journey in the disseminating Arabic and Islamic education in West Africa, focusing on Nigeria. This process began from the fifth century of the Islamic calendar in Islamic countries in the far east and north, and continued until the end of British colonialism in the middle of the twentieth century. This study examines dimensions of this journey, including its terminals, caravans, and some of its members, and confirms that Nigeria was a strategic area for trade caravans linking North and West Africa, and took care of the pilgrimage trips made by people of regional villages and cities. Some Nigeria scholars also established Islamic schools along this long distance to attract students and teach them. On the other hand, those students spread knowledge of scholars, their places and references, both before and after their arrival to the Holy Lands and neighbouring cities and countries such as Cairo, Sudan, Iraq, Syria and Jerusalem. They also rewrote the books brought through this trip, thus contributing significantly to developing Arabic and Islamic education ■

Most followers of Prophet Muhammad (PBUH) were young, as half of the ten promised with heaven converted to Islam as teenagers, and most of Al-Medina's people who attended the second Aqaba homage were youth. In his narrative of the story of the second Aqaba homage, Jaber, may Allah be pleased with him, said: «... Then, seventy people of us convened and said, "until when will we leave the Messenger of Allah (PBUH) expelled in Mecca mountains living in fear?" So we traveled until we reached the prophet (PBUH) in the Hajj season, and agreed to meet him at Aqaba valley. The prophet's uncle, Al-Abbas, told him: "O my nephew! I do not know those who came to you? I know the people of Yathrib. So we met the prophet individually and in couples, and when Al-Abbas looked at us, he said: I do not know these people, they are Young!"⁽¹⁾

When mentioning the People of the Cave, Ibn Kathir commented: "Allah Almighty said that they were young men, who are more ready to accept the truth and the right path than the older generations who had gone deep in false religions. That is why most

people who responded positively to Allah and His Messenger (PBUH) were young, while most elders of Quraysh remained on their religion, and only few of them accepted Islam. Thus, Allah Almighty told us that the People of the Cave were young men».⁽²⁾

Therefore, the scholars and thinkers in any society should care about the youth by preparing and protecting them from the westernization and globalization waves and the misguided calls. They should also open their hearts for the youth, listening to them, answering their questions and calming their fears. They should exert efforts in projects that educate and qualify them in order to have better use of their time. Investing in young men will not bear fruits and fulfill its objectives until we also take care of young women who are their right hands, the backers and the helpers.

May Allah bless these efforts and support those moves. May Allah send His blessings and peace upon our Prophet Muhammad and his family and companions ■

(1) (Musnad Ahmad, (14653)

(2) (Ibn Kathir, (5\140)

in their Lord, and We increased them in guidance. (13) And We made firm their hearts when they stood up and said, "Our Lord is the Lord of the heavens and the earth. Never will we invoke besides Him any deity. We would have certainly spoken, then, an excessive transgression. (14)} [A-Kahf 1314-].

Those young people rose above their pagan community with their faith and belief in the oneness of Allah Almighty, and, in order to preserve their faith, preferred to live in a small cave over a prosperous and luxurious living: {These, our people, have taken besides Him deities. Why do they not bring for [worship of] them a clear authority? And who is more unjust than one who invents about Allah a lie?} [A-Kahf: 15].

Prophet Muhammad (Peace Be Upon Him) told us the news of the People of the Groove in the hadith of Suhaib (may Allah be pleased with him), narrated in Sahih Muslim: «There was a king in the past times, and he had a wizard who, when became aged, said to the king: "I became an old man, bring me a boy so that I can teach him magic craft." Then the king sent him a boy...».⁽¹⁾ The prophet (PBUH) told us about this boy and his persistence to remain on

the righteous path and attached to his call and preaching, which made people convert to the true religion of God, although he was still a young boy. Thus, the magician, as he wanted to preserve his knowledge after he dies, asked the king to bring him a young man to teach him his craft.

In addition, most followers of the prophets (Peace Be Upon Them) were young. For example, Allah Almighty said about Moses: {But none believed in Moses except some children of his people, for fear that Pharaoh and his chiefs would persecute them. Pharaoh was high and mighty in the land. He was a tyrant.} [Yunus: 83]. Ibn Katheer elaborated on this verse, saying: «Allah told us that nobody believed in Moses, peace be upon him, in spite of his evident signs, clear arguments and bright proofs, except a few of Pharaoh's people who were young. They believed in Moses despite fearing that the Pharaoh and his people will turn them back into disbelief, because the Pharaoh, may Allah put his curse on him, was stubborn, extravagant in rebellion and disobeying Allah, ascendant, awesome, and very much feared by his people».⁽²⁾

.Narrated by Muslim (1)

.(Ibn Katheer, (2/622) (2)



The Investment in African Youth

Societies varies as some develop while others regress; some rise while others fall; some are torn by conflicts while others experience intellectual, normative, political or economic transformations. Nevertheless, regardless of the conditions and trajectories of any society, the human factor remains its most influential element, without which no rise or progress can be achieved in any society. This is the law of Allah Almighty in His creation {Indeed, Allah will not change the condition of a people until they change what is in themselves.} (Al-Ra'd: 11).

The important role of all society members of different classes and races notwithstanding, youth remains the main effective actors. Youth has the biggest share of population in most contemporary countries. They are most vital, active, responsive to changes,

and faster to accept transformations regardless of their direction. Hence, the advocates of change of all orientations and schools of thought target youth who are the instrument of transmitting new cultural elements. Investing in youth is the real investment, as they are the powerful and influential force and men of future. The stage of youth is like a bridge or a gate that everyone has to go through; and whoever controls it, will control the future.

The pivotal and important role of youth is not particular to contemporary societies; rather, the youth has had the most active and influential role throughout history. For example, the People of the Cave whose story was spread before and after the revelation of the Quran were youth, as Allah says: {It is We who relate to you, [O Muhammad], their story in truth. Indeed, they were youths who believed

صدر
حديثاً..

قراءات
إفريقية
مجلة ثقافية علمية متخصصة في شؤون الحضارة الإفريقية
تصدر عن المنتدى الإسلامي بطنجة

الشيخ عثمان دان فوديو وحركة التجديد الإسلامي بغرب إفريقيا



إعداد الدكتور
أدم بمبا

الإصدار (٤)
ضمن سلسلة إصدارات
مجلة قراءات إفريقية